

التوأمان الفرنسيان

تأليف : فيرنر برجنجرين
ترجمة : محمود ابراهيم الدسوقي

الثمن ٣٠ قرشا
العدد ٥٠٧

سلسلة

روايات عالمية

تصدر عن:

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

روايات عالمية

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

نقلت إلى العربية كاملة عن
رواية

Die Zwillinge aus Frankreich
von
Werner Bergengruen

روايات عالمية

العدد (٥٠٧)

من الأدب الألمانى

التوأمان الفرنسيان

تأليف : فيرنر برجنجرين

ترجمة : محمود إبراهيم الدسوقى

مقدمة

الاديب الشاعر الالمانى فيرنر برجنجرين علم ملحوظ من أعلام الادب الالمانى الحديث ٠٠ ولد فى أواخر القرن التاسع عشر فى سنة ١٨٩٢ فى مدينة ريجا عاصمة لتفيا الواقعة على بحر البلطيق ٠٠ وهى مدينة كبرى أهلها خليط من الالمان والبولنديين والروس ٠٠ حكمتها الكنيسة وحكمها الفرسان الالمان فى القرون الوسطى ٠٠ وتعاقب على حكمها البولنديون والروس والالمان ٠٠ ثم استقلت لتفيا ٠٠ ثم احتلها الروس وباتت فى سنة ١٩٤٠ جمهورية من الجمهوريات السوفيتية ٠ فمدينة ريجا ، عاصمة لتفيا ، بهذا التوزع بين نظم الحكم ، ومختلف الثقافات والحكام ، لم تترك وليدها وابنها فيرنر برجنجرين بلا تأثير ٠٠ على أن هذا التأثير خليق أن يلفت القارىء الى انعدام تناسبه مع كاتب نشأ نشأة ألمانية ولم يكن مع ذلك متعصبا للألمان ــ تلقى تعليمه فى ألمانيا ، ودرس القانون والعلوم الطبيعية واشترك فى الحرب العالمية الاولى وبات منذ سنة ١٩٢٦ كاتبا أديبا ، واعتنق المذهب الكاثوليكى فى سنة ١٩٣٦ ٠ فهو من ثم يقدس روما ، ويتأثر بها فى كتاباته ٠٠ وعاش من سنة ١٩٤٦ فى سويسرا ٠

لقد تجاوز أصله الالمانى مع أصول أخرى فى ريجا ٠٠ فبدلا من أن يتنابذ ، تحاب، وأعز ذكرياته مع المواطنين ٠٠ ووفى للتقاليد، وجانب العنصرين ، ومثل التآخى بين من عاشر من الاجناس ، فهو

حين يقص عن الروس أو يقص عن البولنــديين أو عن قومه الالمان لا تجد فى قصصه شبهة من التحامل على هذا أو ذاك ، أو تحيزا لهذا أو ذاك ، بل أمانة ملحوظة فى سرد الوقائع ، وتقوى وأدبا يتخللان قصصه ، لا يثير غريزة ، ولا يغلو فى سرد نقيصه ، بل يعف ويغضى عن كثير ، فى ألمعية بينة ، وطرافة أخاذة ، لا تشـــط عن المستوى الهادىء الباسم ٠

والشاعر برجنجرين بارع فى القص ، حاذق فى اللغـــات ، عميق التفكير ، انسان تنبع انسانيته من التقوى ، وهو لا يباعد بين تخبط الكائنات الحية وصفائها ، وبين الذنب والمغفرة ، وبين الاغراء والنقاء ، فهو يجعل هذا مفضيا الى ذاك ، وقد أوقف شخصياته أمام القضاء ، لينحسر القنـــاع عن مألوف كل يوم ، ويظهر ما خفى فى البشرية من معادن موغلة فى القدم ، ثم تصدر الاحكام ٠ والاغراء فى رأيه هو الطريق الى النقاء ، والذنب يعد الانسان لتلقى المغفرة ٠

وقــد عالج برجنــجرين القصة الصغيرة والكبيرة أو القصيرة والطويلة ، فكان أشهر ماكتب فى الاولى « تجربة النار (حكم الله) »، «وغفران الفصح» و «الصقور الثلاثة» و « شجرة الورد الاسبانى » وأروع ما كتب فى الثانية : « الطاغية الكبير والقضاء » و « فى السماء كما على الارض » و « الفارس الاخير » و « الفارسة » وقصائده الى ذلك قيمة ٠

وقد جاء فى مقدمته «للطاغية الكبير» ان القصة تتناول المغريات التى تســاور الأقوياء ، والغوايات التى يقع الضعـــفاء والمهددون فريستها ، وأنه يحكى عنها فى القصة بصورة تنبىء بأن ايمان المرء بالكمال الانسانى يتعرض لخسارة ٠

وتعرض القصـــة كيف أن حاكم مدينـة كاسانو يقلق راحة سكان المدينة الى حد كبير ، فهو يطالبهم بالكشف عن جريمة ارتكبها

هو كما ثبت فيما بعد ، لكن أحدا لا يجرؤ أن يتعرض له ، ويقبع الكل خائفين تحت وطأة الطغيـــان ، فيلجئون الى الكذب والبهتان يتهمون أنفسهم وغيرهم ، ويكشفون بصــورة مرعبة عن غلوهم فى الشعور البشرى ، اللهم الا واحد فقط يجرؤ على الوقوف فى وجه الطاغية ، وهو راعى كنيسة النـــاحية الدون لوكا ، اذ يتهمه بأنه يمتهن كرامة الإنسان لمنفعته الخاصة وشهوة الحكم ، ويزعم لنفسه القدرة على كل شيء من دون الله ٠

ويبلغ أخيرا انسان بسيط برىء عن نفسه بوصفه القاتل لينقذ المدينة من سموم الشر والنميمة المتبادلين ٠٠ فسرعان ما يؤدى هذا بالطاغية الى بدء حياة جديدة واقامة دولة جديدة بالاتفاق مع رعاياه، تسودها فضائل الحياة ٠

كذلك فى قصة «فى السماء كما على الارض» يجيب برجنجرين على السؤال : كيف يكون رد فعل الخطر والتهـديد على الناس فى أوقات الكوارث ؟ ويبـــدى فى ذلك قابليتهم للتوبة ٠٠ ففى القرن السادس عشر يهدد طوفان مدينتى برلين وكولونيا ، فيندفع السكان فى رعبهم المخيف الى أعمال تنافى الضمير ٠٠ وتهزهم الكارثة المهددة من الاعماق ، فيظهر ماله قيمة ، وماهو عديم القيمة : ماكان من ذهب حر خافيا فى الاعماق قد خلص من الشوائب فى عملية طويلة أليمة، وما نفى من دنس فكدر وجه الصورة كله ، وهكذا يوصد برجنجرين الهـــوة القائمة بين السماء والارض باستعداد أصيل لتقبل المصير وتنقية ما يلوث الانسان ٠

وننهى مجمـــوعة القصص التى قمنا بترجمتها ، بكلمة ختام لكاتب ألمانى من كتـــاب الفصول وشاعر غنائى من شعراء الغزل اسمه رينهولد شنايدر ٠٠ لقد دخل تاريخ الادب الالمـانى والادب العالمى على السواء ، وعاش من سنة ١٩٠٣ الى ١٩٥٨ ٠ ومات فى

عز كهولته وانتاجه •• وقد امتاز بضميره الحى فى سنى الحرب العالمية الثانية وأثناء الحكم الهتلرى ، وبقى ضميره حيا يتحرك بين الحين والحين •• وقد جاء فى تاريخ الادب العالمى لكناور فى معرض الكلام عن كورينى Caneiaae أن حاضر الالمـــان مدين لرينهولد شـــنايدر بأنه سدد عنه لكورنى دينا فخريا استحق عليه من أمد طويل • ويقول شنايدر كان نضـــال كورنى التراجيدى من حول الصراع بين الهوى والواجب نضالا امتد الى أبعاد تصنع التاريخ •• يقول انه يظهر أن الذين يتلاقون ويتصارعون فوق هذا المسرح من التاريخ العالمى لم يعودوا بشرا من لحم ودم •• بل صـــورا بشرية تجسم قوى السياسة العالمية •• وأن المكان الخاص بهم المناسب لهم فى الوجود هو مجال الواجبات الكبرى •• مجـال القوى التاريخية التى يجابه بعضها بعضا •• لذلك لا يســـتطيعون ولا يريدون أن يعيشوا فى مجال آخر ••

محمود ابراهيم الدسوقى

بناء البرج

« Der Turmbau »

أسماء الشخصيات

ساراسيني	Saracini
مينوشيا	Minoccia
جانلوكا بلتراندى	Gianluca Beltrandi

لم يكن وقف القديسة جستينا مجرد دير ، وقد أقامه فى حينه بعض أهل المدينة الأثرياء ليعول بعض العوانس من بنـــات الأسر الشريفة فعشن فيه فى حرية تامة ٠٠ وقد حدث أيضـــا أن طلب الواحدة أو الاخرى من الشابات المقيمات النزيلات رجل ما للزواج فخرجت تلك الفتاة ٠٠ وكانت تعيش هنا اذ ذاك عجوز يقظة عانس من بيت ساراسينى ٠٠ فجاءتها ذات يوم حفيدة لابنة أخ لها كانت فى الوقت نفسه طفلتها بالتعميد وهى مينوشيا الحسنـــاء ، فقصت عليها ـ وهى منفعلة تنشج وتبكى ـ قصة حب معقـدة ، وسألتها المشورة لانها لم تشأ أن تفاتح بقصتها أحدا من أهل بيتها ٠

فأصغت اليها العجوز هادئة لم تقاطعها بسؤال ، فلما سكتت الفتاة أسندت هى ظهرها الى كرسيها ، ورفعت بصرها الى النافذة التى ترامت خلفهـــا مختلف الدور والأسطح والأبراج والأشجار ، وبدا لها على مرمى البصر شريط من البـــحر كأنما يعلو اليابسة ، وكانت بعض الاشرعة تتبدى كقطع دقيقة بيضاء من اللهب ، وبعض آخر تختلف ألوانه فيه الأسمر والأحمر والأشـــهب ، وبعض ثالث يبرز من الماء لكنه غير واضح ٠ وظلت العـجوز برهة ترنو الى كل هذه الاشياء ، ثم قالت :

« أريد أن أقص عليك حادثا وقع لى فى حيـــاتى الخاصة ٠

عندما كنت صغيرة ما أزال أعيش فى بيت أبى الذى لم يكن كما تبديه الصورة الكبيرة المعلقة فى قاعة طعامكم ، بل كان أكثر تحمسا لنفسه هو وأقل اكتراثا لما يتصل بمسلكه حيال الآخرين • وقد كان الكثير فى ذلك الحين يختلف عما هو اليوم • لكن لا بد أن تكونى قد سمعت بالتغيرات التى ألمت منذ ذلك العهد بمدينتنا وبالعالم على الاطلاق • كذلك من المؤكد أنه قد تردد مرة فى بيت والديك أو فى مكان آخر أن النية كانت معقودة على بنـــاء برج جديد لكنيســـة الرسول يهوذا تاديوس • فقد أسهم اذ ذاك فى مثـل هذه الخطط كل واحد ، حتى صغار الناس فعلوا ذلك ، وبالاولى نحن الذين كنا نضطلع بمجد مدينتنا وننشد أن نعليه فوق أمجاد المدن الاخرى فى شبه جزيرتنا •

وانه لمن الغـــريب أن مدينتنا أنجبت كثـــيرين من الرجال الفخورين ذوى المواهب ، تجارا ومحـاربين وجوابى بحار ومؤرخين وعلماء ، كما أنجبت أيضا قديسا عاش قبل عدة مئات من السنين؛ لكنها لم تنجب فنانين على ما كنا عليه من تقدير للفن • وهكذا كنا مضطرين الى أن نستقدم من الخارج من نحتاج اليهم من الفنانين •

وكان جانلوكا بلتراندى مايزال صغيرا ، لكن صيته كان قد أخذ يذيع ، وكان قمينا أن يبلغ النجوم بمحو كل ما عدا اسمه من الاسماء فى وطننا ، لو أنه قدر له أن يعيش أطول مما عاش • وقد تنـــازع عليه كثير من المدن والامراء والعظماء وزايدناهم فيه فزدنا عليهم فى ثمنه ، لأنه فى ذلك الوقت وقبل أن ينشـــب الكثير من الحروب ويقع المزيد من السلب والنهب وقبل أن تتغلب علينا منافسة المدن الاخرى لنا ـ فى ذلك الوقت كان يســـود مدينتنا أعظم ثراء شهدته فى يوم من الايام •

وهكذا جاءنا جانلوكا بلتراندى ليبنى البرج الجديد لكنيسة القديس يهوذا تاديوس • لكن كان عليه أن يقـــوم الى جانب ذلك

بطائفة من الاعمال الاخرى : أبنية وتماثيل ورسوما على الجدران ، وصورا للهيكل ، ذلك أنه لم يكن مألوفا اذ ذاك أن يزاول فنان فنا واحدا بل كان يجب على الأصح لمن يحرص على شهرته أن يعمل فى كافة فروع الفن التشكيلى ؛ فكان هناك رجال يضعون التصميمات لتشييد الحصون ويلمون بفنون صنع المواقع وآلات الحرب وينظمون الشعر ويحيلونه الى موسيقا • لكن أهم ما كان يهمنا هو برج كنيسة الرسول يهوذا تاديوس ، حتى لا يكون له مثيل فى شبه الجزيرة بأسرها •

اذن فقد جاء جانلوكا الينا وشغل أفكار الكثيرين جدا من الناس ، ولم تمل النساء والفتيات خاصة من التحدث عنه ، لكن فى رأيى أنهن بالغن فى هذا • ولما كانت قد مضت عليه فترة طويلة فى المدينة فقد أرانى الناس اياه فى الشارع فوجدته حسن البنية حسن الهندام ، وراعنى ما شهدت فى نظرته من نار متأججة ، لكنه كان فى رأيى مع ذلك شابا لم يصنع من مادة غير التى صنع منها شبان مدينتنا •

ومضت بضعة أشهر فقال لى أبى انه يرغب فى أن يرسم لى جانلوكا صورة ، وأن جانلوكا أبدى استعداده لذلك وانه أيضا يريد أن يبدأ عمله عما قريب ، قال أبى : وهذا شرف لبيتنا وفيه مسرة لنا ، ذلك أنه معروف طبعا كيف يلاحقه العظماء جميعا وأية عروض عالية تعرض عليه ، وهنا شكرت أبى وكنت فخورة بأن تصل صورتى الى الذرية ، وانتظرت بفارغ الصبر مقدم جانلوكا الذى أبطأ برهة أخرى ، وكنت ما أزال أتصور فيما يتصل به وبصفاته أنه لايختلف عن غيره كثيرا ، وكنت أقول لنفسى انه ليس من اللائق أن يكون لى الآراء نفسها التى تراها بقية الشابات والنساء فى المدينة • بيد أنى لما دعيت بعدئذ الى الغرفة التى كان جالسا فيها مع أبى ــ ذلك أن أمى كانت اذ ذاك قد توفيت الى رحمة الله ــ ومددت اليه يدى ،

وصافح سمعي صـــوته وأحسست نظرته فوقي عرفت عندئذ أني أحببته ٠

ولم يلبث أن انصرف ولم يعد الا في الاســـبوع بعد التالي ، وهنا شرع في عمله وسار فيه سيرا بطيئا ، لأنه بالنظر الى الاعمال الكثيرة الاخرى التي كان يزاولهـــا كان يحضر على فترات معينة ، وهكذا كان لي من فراغي ما أفكر خلاله فيه وما يجعلني أعيش في انتظاره ، أجل لقد كنت أنتظره بفارغ الصبر ٠

كانت جلساتي اليه في الحجرة التي يدرس فيها الآن أطفال أخيك ، لان الضوء فيها كان على أحسنه ٠ وهكذا كنت أطل على جانب من المدينة وعلى البحر وهو جانب لا يختلف منظره عما أراه الآن هنا من النافذة ٠ وبينما كان جاتلوكا يرسمني كانت قريبة مسنة لأمي تعيش في بيتنا ، تحضر جلساتي ، لـكنها لم تلبث مع الزمن أن أقلت من الحضور وباتت تجتزيء بلحظات تلقي فيها النظر الينا ٠

وكان جاتلوكا يحب أن يتكلم أثنـاء الرسم وأن يحملني على الكلام كي أكسب ملامحي ـ كما كان يقـول ـ حيوية أكبر ، فكان يقص على الكثير عن عمله وأشعاره وعن المدن التي يزورها والناس الجديرين بالذكر الذين كان يختلط بهم ، كان يفعل هذا بصـــورة شائقة وأسلوب حيي لم أسمعه في حيـــاتي لسواه ٠ وكان كثيرا ما يحـــكي في مرح لم يوات الا القليلين ٠ ومع اني كنت أحب أن أصغي اليه دائما فقد كان يحملني أيضا على أن أروى له عن حياتي وعن كل ما يحدث في المدينة ، وكنت أفعل ذلك في أول الامر مع التحفظ ، ذلك أني كنت أرى أن رجلا مثله لا يمكن أن تروقه مثـل هذه الاشياء التافهة ، ومع ذلك فقد كان يسعدني أنه كان يحب أن يسمعني أتكلم ، وان وجب أن أقول لنفسي لعله كان يطالبني بالكلام تيسيرا لعمله ، لكنه كان يفهم آنئذ أن يكسب ما اقصه عليه أهمية ما كنت لأجرؤ أن أزعمها لنفسي ، كان يفعل ذلك بانصاته ونداءاته

وأسئلته التى يلقيهـا بين ما أرويه ، ونظراته وهيئته • وأحب أن أقول انى قضيت هذا الوقت كانى مسحورة وانى لم أتمن شيئا مثل أن يدوم هذا الى الابد •

وازدادت الالفة بيننا من أحاديثنا • لكنه فى الوقت نفسه بدأ يبدو لى أنه تغير بصورة غريبة • فقد كان آنئذ كثيرا مايشرد فكره، وكان يسير قدما فى عمله ويلزم الصمت أحيـانا طويلة وينظر الى بصورة لم أعرف معها ما ينبغى أن أفعله وقد ألفت حقا أن يركز على نظرات ثاقبة نافذة جدا ، والا كيف كان ينبغى أن يرسمنى بخلاف ذلك ؟ لكن نظرته كانت من نوع آخر ، فكان قلبى يترنح بين الهناء والقلق ، وكان يحدث أيضا أن يكف عن الكلام ويضع الفرشاة أو يلقى بها من يده ثم يثب ويخطو فى الغرفة مسرعا غاديا رائحا كمن يريد أن يتمالك نفسه بالقوة ، لكنه كان يتعذر عليه ذلك فيما بدا له ، فينظر الى برهة محملقا ثم يستأذن فى الانصراف على غير توقع •

لقد سبق أن قلت ان المدينة كانت تتحدث كثيرا عن جانلوكا واذ كان يرسمنى كان الكثيرون يحسدوننى على ذلك كما لو كان فيه تمييز لى فقد كثر ما تحدثوا الى عنه وأرادوا أن يعرفوا الكثير منى •

واستبنت من مثل هذه الاحاديث أن التغيير الذى تبينته فى كيانه قد لاحظه أيضا غيرى من الناس • قالوا انه طرأ على أعماله جميعا توقف وانه ينبذ خططه جميعا ولا يستطيع التصميم على خطط جديدة • ولا يعلم أحد ماذا يكون مآل البرج وبنائه • وسألنى أحدهم ألست أرى أنه يمكن أن يكون مصابا بمرض ما ؟ ففزعت وتولانى هم كثير •

وأخيرا تشجعت وسألته عن سبب تغيره • هنا أجابنى بصوت فيه خشونة انه يمكن أن يقال بلا ريب انه فريسة مرض • فشعرت بقلبى يدق دقا عنيفا ، وتأملت وجهه الشاحب والخوف يحدونى ، ونظرت الى عينيه اللتين كانتا تتقدان كمن ألمت به الحمى •

واستطرد يقول : أجل ان به شيئا يشبه التسمم سرى فى كيانه كله ، وانه يسعنى وحدى أن أنجيه من هذا السم ٠

ولما قال هذا ارتعشت يداه وأحسست الرعشة تسرى فى أنا أيضا ٠ وجعلت أفكر لحظة لعله يريدنى زوجة ٠ لكنه خطر ببالى فى الحال أن له فى وطنه زوجة لا يعيش معها فى وفاق ، وهو نفسه لم يحدثنى عن ذلك قط ٠

ولذت بالصمت ، لكنه جعل آنئذ يتكلم ، ففاتحنى بأنه يستبد به هوى لى وأنه يشعر بأنه لا يستطيع السيطرة عليه ، وأن هذا الهوى يخضع حياته بأسرها له ، ولا يسمح له بتركيز أفكاره على شيء غيره ، فلا هو فى مكنته أن يرسم ، ولا هو قادر على أن يفكر فى أعمال بناء البرج أو يؤدى لها شيئا ٠

فلما نطق بهذا لزمت الصمت ، وألقى نظرة على السجادة ، وكانت قد باتت اليوم رثة معلقة على حائط القاعة السفلى على الجانب المعرض للضوء ، كانت فى ذلك العهد ما تزال جديدة وما يزال لزهرات السوسن الذهبية المعقودة فى أرضيتها الزرقاء بهاؤها الاول ، ومن ذلك الحين لم يسعنى أن أراه ثانية من دون أن تتجدد ذكرى هذه الساعة ٠

وأخيرا رفع وجهه ثانية لكنه كان مغمض العينين فقال لى وهو على هذه الحال انه لا يمكن أن يشفيه غير أن أكون مستعدة لأن أقضى معه ولو ليلة واحدة ٠ ولم أعد أعلم أية كلمات اختارها للتعبير عن هذا ، فانه لم يقلها على نحو غير مهذب بل قالها حقا فى وضوح لم أسيء فهمه ، ثم زاد عليها قوله انى اذا لم أوافق فلن يستطيع الامل فى استرداد حرية التصرف فى تفكيره وفى قواه ولكليهما أثره فى فنه ولا غنى له عنه فى أداء أعماله ٠ فلا صورتى ولا بناء البرج سوف يستطيع انهاءه والفراغ منه ولا أى شيء من كل ما أخذه على

عاتقه وقدر له أن يزين مدينتنا ويزيد في شرفها • وبعد أن نطق بهذا انطلق الى الخارج •

وفي ضحى اليوم التالي ظهر جانلوكا وسألني أي جواب أعددت له لكنه كان آنئذ في حالة تختلف عن حالته بالامس ، هي أنه كان ثابتا مصمما كانسان يمضي الى هدف وحيد وقف عليه الفصل في مصيره •

أما أنا فكنت في حالة من الاضطراب لم يسعني معها أن أجيبه بشيء ، ومن ثم جعلت أتذرع بكل ما أتهرب به وأخفف به عنه • وهو ما لم أستطع معه أن أخفي عنه بلا ريب عطفا عليه آثاره في منظر عذابه •

واستمع الى هذا برهة لكنه قاطعني بعدها وقال لي انه يمهلني ثلاثة أيام ، فاذا لم أعلن اليه موافقتي فانه يقسم بأنه سيبارح المدينة في اليوم نفسه ولن يطأها ثانية أبدا • ولن يهمه ما ينشأ عن هذا النقض للاتفاق الذى عقده مع المدينة • وبهذا خرج من الحجرة ومن بيتنا •

ولا أريد أن أحاول أن أصف لك كيف قضيت هذه الأيام التالية واليوم السابق لها منذ أن فاتحني بأمره أول مرة ، هذا الى أني لم أعد أذكر شيئا واضحا عن تفاصيل ذلك الوقت كما لا تعي ذاكرتنا تفاصيل شيء حدث أثناء مرضي بالحمى •

كان يسود طبقتنا اذ ذاك أسلوب صريح في التعبير وانطلاق من قيد العادات لم تعودوا يا أهل اليوم تعرفونها ، والا ما كان ممكنا أن يخاطبني جانلوكا على هذا النحو أو أن أصغي اليه ، ولا يسعني أيضا أن أقول اني غضبت منه ، فقد راقبت التغيير الذى ألم به من بدايته فعرفت أنه لم يدل بمبالغات فارغة كالتي تصدر عن الرجال حين يريدون تنفيذ رغبات لهم ، وقد أشعرتني بالدوار فكرة أني كنت

سبب هذا كله ، فلم يشتهنى رجل فحسب بل ان هذا الرجل كان له أن يتحكم فى ارادتى وأن يفصل فيها الى حد كبير . كان الرجاء الذى تعلقت به أفكار الكثيرات من النساء وحطت عنده رغباتهن ، لكنه لم يعبأ بهن ولاحقنى أنا وحدى بطلبه كله ، وعانى من جراء هذا الطلب ، ثم كان الرجل الذى أحببته .

ودارت الايام كما تدور فى النهاية أيام حياتنا جميعا ، ولم أذق فى ليالى طعم النوم الا قليلا ، وكانت الليلة الاخيرة سهادا كاملا ، ثم حلت اللحظة التى دخل على فيها جانلوكا .

وسألنى أى قرار اتخذت ، فلم أعد أن هززت رأسى ، لان الكلام لم يكن باستطاعتى . لكن جانلوكا تحول عنى بسرعة وخرج ، وعند الباب خيل الى أنه يريد أن يلتفت مرة أخرى لكنه لم يفعل ، ولم أره بعد ذلك ثانية .

وفى اليوم التالى ذاع الخبر بأنه بارح المدينة دون أن يودع أحدا . وفى اليوم بعد التالى علمت أنه لم يعد على قيد الحياة . ذلك أن الأوان كان أوان عواصف الخريف الكبرى فلو لم يعرض مالا كثيرا ما وجد ملاحا يرضى بالخروج به فى سفينته ، ثم تحطمت السفينة وفقد جانلوكا حياته .

ووقعت المدينة آنئذ فى حيرة شـديدة ، وراجت الشائعات الكثيرة ، لكن أحدا لم يصب كبد الحقيقة وهى أنى كنت السبب لفراره وكنت سبب موته .

وتقدم بعد ذلك كثير من الرجال يخطبوننى ، وطنيون وأجانب ، وكان من بينهم أجلاء عظماء . لكننى كنت أفكر دائما بعد الذى حدث: هل يجب أن يكون محالا أن يملكنى أحد هؤلاء ، وأن أمنحه ماحبسته عن جانلوكا ؟ وجهد أبى واخوتى وغيرهم من أقربائى أمدا فى حمل على الزواج من هذا أو ذاك من الخطاب . لكننى لما أعلنت اليهم فى

النهاية أنى أريد الذهاب الى الدير وأنى أريد أن أبقى مايخصنى من ميراث في الاسرة ارتاحوا الى هذا القرار ، وكان ديرنا مزودا من قديم بالهبات السخية بحيث لم يكن يجبى من بنات الأسر اللواتى أقيم الدير لهن الا رسم ضئيل للدخول ٠

ومضى وقت طويل ، وأنا لا أجـد فى نفسى رغبـــة فى رؤية الصورة التى لم تتم ، ومن ثم أمرت بطيها وابعادها ، ومع ذلك فقد اتجهت اليها بالكثير من أفكارى ، فقد كانت الشيء الوحيد الذى بقى لى من جانلوكا ، بعد ذلك كنت أتأملها أحيانا فتبدو لى غريبة وأعجب من أن لى بهذه الصورة صلة ، فلما انتقلت بعدئذ الى هنا لم أحملها معى ، ولا بد أن تكون موضوعة فى مكان ما للمهملات فى بيتنا ، وقد تقع مرة تحت يديك، وقد تكون الفئران قد التهمت شاشها من أمد٠

ستسألينني الآن عن السبب في رفضي لجانلوكا ٠ لكنى هنا لا بد أن أجيبك : حقا انني لا أستطيع أن أذكره لك ، لأنى لا أعرفه ولم أعرفه أيضا فى ذلك الوقت ، وقد فكرت كثيرا فى ذلك فيما مر من السنين ٠ واذ كنت لم أستطع أن أتبين ســـبب تصرفى فلست أعرف أيضا : هل أصبت أو أخطأت التصرف ؟ ٠

لقـــد كنت خليقة في تلك الحرية الكبيرة التى اكتنفت آدابنا والتى حدثتك من قبل عنها أن أجيب جانلوكا الى ما يشتهيه دون أن يعلم أحد بذلك ، ودون أن يثير هذا ضجة أو يطلق قيلا وقالا ، فهنا اذن لم يكن شيء يمنعني من الرضوخ لرغباته التى كانت أيضا رغباتى ، وكذلك لم يكن فى وصايا الكنيسة عائق لى ، والعالم اليوم يختلف بلا ريب ، لكنك لن تفشى كلامى اذا قلت لك ان الطبقة الدنيا من الشعب فى ذلك الوقت هى التى كانت تؤمن بالعقيدة الكنسية ، أما نحن الآخرون فكنا نصلى لآلهة الاقدمين ونقدم لها القرابين ٠

ثم كانت ماتزال هناك اعتبارات أخرى ٠ وهى أنى كنت أعرف

حقا أية نتائج سوف تترتب على رفضى ، ذلك أنى لم أشك لحظة فى أن جانلوكا سيبر بقسمه ، كنت أعرف أنه ما على الا أن أسلم نفسى اليه فتبقى شهرة مدينتنا قائمة الى الأبد ، اذ يكون جانلوكا قد شيد لها البرج وزينها بأبنية وتمـــاثيل وصور أخرى يظل الناس قرونا يحجون الينا من أجلها • كل هذا كان حقيقة أن يحدث ، هذا الى مجد آخر لن يرتفع صوته ولن ينفذ الى الخـــارج كنت سأكسبه وأظل أملكه الى آخر نسمة من حياتى ، يخلع سناه عليها بأكملها • وأرى أن ههنا حالة لا تناسب فيها وقد تبينتها اذ ذاك • هى : ماذا تكون عفتى بالنسبة الى خلود للمجد الذى كان سيصيب مدينتنا من اتمام بناء البرج وأداء كل الاعمال الفنية الاخرى ؟ لقـد كنت خليقة أن يكون لى نصيب بوصفى ابنة من بنات تلك الاسر التى حكمت المدينة وكانت مسئولة عنها أمام الآلهة ، وقد كنت أحب مدينة آبائى حقا كما كنا جميعا نحبهـا نحن الذين نرتبـــط بشرفها القديم والذين لم يتردد أحد منا ـ رجلا كان أو امرأة ـ فى بذل حياته فى سبيل شرفها ورفع اسمها ، لان مجدها فى الوقت نفسه هو مجدنا ، فكيف حدث أنى لم أستطع أن أضحى بعفتى ؟! ما الذى منعنى من ذلك ؟

هل يقع الذنب على أو لا يقع فى أن جانلوكا غرق فى عنفوان شبابه ؟ وأن كل ما كان ينبغى أن يخلقه بقى بلا خلق ؟ لقـد طالما تحدثنا فى ذلك الحين عن القدر وعن الضرورة •

واستقدم آخر ليشيد البرج فكان بناء مضجرا دميما لم يلبث أن انهار • فهو يقوم الآن قومة بقيت حياتى بأسرها مثلها • وبتنا لا نرى فى العادة عندنا سوى أشياء عادية لا يقصد الينا سائح من أجلها •

وصمتت العجوز ، فلعل طول القصة قد أنهكها • واغمضت عينيها برهة فلما فتحتهما ثانية تطلعت مرة أخرى من خلال النافذة

الى أبراج المدينة وأطلت على البحر بأشرعته المختلفة الالوان • وكان لعينيها الحادتين تعبير مبهم ضائع •

أما مينوشيا التى كثيرا ما احمر وجهها أثناء الحكاية فقد أبدت مشاطرتها لما قص عليهـــا فى بضع جمل عادت بعدها الى شأنها ، وسألت : كيف ينبغى أن يكون مسلكها فى رأى العــجوز ؟ وأعادت مينوشيا سؤالها فأدارت العجوز رأسها كمن يستيقظ فجأة ، ونظرت الى الفتاة متعجبة • وأخيرا بعد السؤال الثالث أجابت أن على مينوشيا نفسها أن تفصل فى أمرها كما ترى لانها هى لم تعد اليوم تسدى النصائح الى العالم •

صـورة الكرنفال

«Das Karnevalsbild»

أسماء الشخصيات :

جاناندريا راسبنتي	Gianandrea Raspanti
مونا أونستا	Monna Onesta
الاردو فولونيانا	Alardo Volognana
رانشيو	Ranuccio

فى بداية الكرنفال عقب عيد القديس يوحنا ذى الفم الذهبى بقليل ذاع فى مدينة تريكرس خبر بأن الدوق أقال أثيره وأكبر مستشاريه جاناندريا راسبنتى فجأة من جميع مناصبه وجرده من كافة أمواله ، لكن أحدا لم يعرف لأى سبب حل بالسيد راسبنتى مثل هذا الغضب ، ولم يكن من عادة الدوق كذلك أن يبدى لرعاياه أسبابا لما يتخذ من قرارات أو يصدر من أحكام ٠

وراح الشعب يتخبط فى تخمينات كان كثيرها لا يخرج عن كل ما يلفت النظر ويثير العجب ٠٠ لكن الواقع أن الكثير لم يتناول عملا ما لأثير الدوق ٠ محددا تحديدا دقيقا ، أدى الى سقوطه فلم يذكر ما هو ، وعلى كل فقد كان الأثير على أعظم جانب من السلطان لا يأبه بشىء على الاطلاق فى سبيل مزاولة سلطته والاستمتاع بها ٠ وقد خلق له هذا أعداء لايقلون بين الشرفاء عنهم بين أولئك الذين كانوا يحسدونه على سلطته وعلى ثروته التى حصلها بسرعة ويؤثرون أن يحلوا هم أنفسهم أو يحل أحد قريب منهم محله ، وقد ذكر معظمهم على التعيين كسبب لسقوطه وكخلف له فى الوقت نفسه على مناصبه فى الدولة خصمه الآردو فولونيانا الذى كان يعد رئيسا لأحد أحزاب المدينة يعيش فى بيت أمه اذ هو ما يزال رجلا عزبا فى مقتبل العمر

وكان جاناندريا راسبنتى محبوبا بين بسطاء الناس الذين لم يكونوا بعد يطمعون فى أن تكون لهم دراية بشئون الدولة ، وكان سخاؤه سخاء مبذر سريع الى التبذير ، وحبه للفخفخة يدعوه الى الانفاق

على رجال الحرف • ولعل التوصيات المجزية ستصبح من الآن فصاعدا أندر ، والهبات المغدقة فى الأعياد أقل • ولعل بعض المتسولين سيطرقون من الآن أبوابا تظل موصدة فى وجوههم • وقد أسف الكثيرون أيضا لزوجة راسبنتى مونا أونستا التى تنتمى لى أسرة نبيلة لكنها رقيقة الحال ، من مدينة سيمانير المجاورة • وقد أكد الناس بعد الحادث بيومين فى الحانات والمتاجر والبيوت أن راسبنتى خُنق فى السجن بأمر الدوق •

ولم يشأ البعض أن يصدق هذا • لكنه فى صباح اليوم التالى بالفعل اقنعت المعاينة على نحو غير مألوف كل من كان يداخله الشك أن راسبنتى لم يعد على قيد الحياة • ومع ذلك فقد بدا لأول وهلة أن هذه المعاينة تثبت العكس • ذلك أن من كان يقترب عند الفجر من كنيسة الاطفال الابرياء كان يرى راسبنتى فى ردائه المخملى الأسود الذى كان يحب ارتداءه ، لكن من دون زركشته المعهودة ، جالسا الى اليسار على مقعد بجانب باب الكنيسة مستندا الى عامود ، مطرقا برأسه المكشوف كأنما غلبه النعاس فى هذا المكان وعلى هذا الوضع ، فيلفت نظره أنه يمسك فى يديه المستقرتين فى حجره بشىء زاهى اللون فاذا ما ازداد المرء دنوا منه تبين فى هذا الشىء صحفة خشبية صغيرة كالتى اعتاد الدراويش حملها فى جولاتهم طلبا للاحسان والصدقة ، لكنه كانت فوق رأسه لوحة مثبتة على العامود ، عليها كتابة لم يمكن مع ضوء الصباح المتفتح فى بطء أن يفك رموزها أول من اقتربوا منها ووقفوا عندها مبهوتين •

وتزايد عدد هؤلاء المقتربين والواقفين بسرعة ، وكانوا أناسا أرادوا التوجه الى أعمالهم أو أداء صلاة الصبح ، بل أيضا أناسا كانوا عائدين من المراقص راجعين من موائد الشراب ، آيبين من المغامرات الغرامية ، وكان كثيرهم ما يزال فى ثيابه التنكرية يضع

الأقنعة ويطلى الوجوه بالابيض ، فتبدو فى ضوء الصباح الباهت المرهق فوق زركشة الثياب الملونة كالاشباح .

وكانت السماء قد أمطرت بالليل كرات الجبس الصغيرة التى لا تحصى والتى كان الرعفاء يتقاذفونها فى الشوارع والطرقات ــ كما كان العرف ــ قد امتزجت بتراب الارض المبتل وتحولت الى طينة قذرة كدرة ، اختلطت بها أيضا قطع الورق الملون التى حال لون بعضها بفعل المطر واقتنصت ريح بشائر الربيع غيرها تذروه فى هواء الصباح الباهت . وقد تعلق بعضها بالابواب يتلوى كالأفاعى وبخارجات المنازل وبالتماثيل ، وجعلت تتحرك كلما هب عليها الهواء كأنما تسرى فيها حياة . وقد تعلقت أفعى من هذه الافاعى ذات لون أخضر واضح قذر ، هائل من كثرة ماغشيه الماء .. تعلقت باللوحة التى سبق وضعها فوق رأس راسينتى وجعلت تتأرجح تعلو وتهبط فى غير مبالاة وتلطم أحيانا جبينه الشاحب بطرفها الأسفل .

وكان يتصاعد بين عابرى السبيل ممن وقفوا آنئذ أصوات من الضحك والحديث ومن آلات النفخ الخشبية ذات الصريف ومن الصنوج التى تكرى وتؤجر فى موسم الكرنفال عند المنعطفات . وكان بعض الأزواج يرقصون فى الطريق وتتناهى من بعيد موسيقا هوجاء ، وهنا وهناك يتغنى بعضهم بأغنية شعبية مترنحة ، وهذا وذاك يصاحب المغنى فى المذهب ، وكان بعض السكارى يغالون فى صراخهم وفى تهليلهم كأنما يريدون أن يؤكدوا دوام مرح كان قد خف بالفعل بل زال .

بيد أنه فى المحيط القريب من باب الكنيسة كان السكون قد خيم وامتد من هذا المكان وانتشر من حوله فى صورة مغلقة . ذلك أن من كانوا يلون باب الكنيسة تبينوا فى تلك الاثناء أنهم كانوا حيال جثة شدت الى المقعد والى العامود بحبال يمكن أن يبدو صاحب

الجثة جالسا . فرسم بعضهم الصليب على صدره ، وعرى بعض الرءوس وأطرقت ، وسمعت صيحات نصف مكبوتة . ومع ذلك فلم تكن الواقعة قد انجلت بعد ، لأن الكتابة التى سرعان ما اتجهت اليها أنظار كثيرة هى بلا ريب فى معظمها أنظار أولئك الذين لايدرون القراءة وقد جعلت هذه الكتابة تتضح شيئا فشيئا بانتشار الضوء وسريانه.

وشق الطريق مندفعا الى الأمام انسان ما يزال شابا فى لباس العمال . وهو رجل ذو وجه منتفخ سمين يضرب الى البياض وله عينان حادتان وان لم يحذق القراءة . وأخذ يحملق فى العمود رافعا بصره الى أعلى مجهدا يتهجى بشفتيه الاسفنجيتين فى صوت بين الخافت والمرتفع .

ويوفق أخيرا فيقرأ الآن بصوت مرتجف ، مقرقر ، عال: «صدقة واحسانا ! أيها المسيحيون الطيبون صدقة واحسانا لرجل مسكين لا يملك شروى نقير اسمه جناندريا راسبنتى كى يوارى جثمانه التراب تصدقوا لأنه لا بد أن يظل ماكثا هنا حتى يستوفى المال ولو بقى الى ما بعد أربعاء الرماد . أحسنوا ، أحسنوا حبا للمسيح ورحمة بأنوفكم . »

وأعاد التلاوة فما كان ليقنع دون اعادة المكتوب على الدوام ، ويظهر أن المكتوب قد فقد بالنسبة له كل صلة بالميت ؛ فقد وقف فى المقدمة يواجهه كل المواجهة شيء آخر هو الظرف الذى يتمثل فى أنه نجح فى فك رموز المكتوب ، وأنه قد يسر له أن يستمتع أمام الشعب كافة بظفر فنه فى القراءة .

ونظر الناس بعضهم الى بعض كما يقع دوما حين يصادف جماعة غفيرة من الناس شيء غير مألوف ، اما ليلتمسوا فى ملامح الغير توكيدا لما يشعرون به هم أنفسهم ، واما ليطالبوا الغير بمشاطرتهم المشاعر نفسها ، واما فى آخر الأمر لينشدوا عند الغير مقياسا لمدى

ما يجب أن تذهب اليه مشاعرهم هم ، أو ما ينبغي أن يوضع لها من حد . ذلك أنه في مثل هذه الحالات يتوق الناس الى مشاركة في الشعور وفي الحكم .

لكن مفعول ما ارتفع به صوت القارىء على الحاضرين لم يكن واحدا . فقد حدث أول ما حدث أن ساد الصمت بضع لحظات ولم يسمع سوى صوت القارىء الراضي عن نفسه ، ثم بدأ التهامس ثم ارتفعت آنئذ صيحات أيضا تنم عن السخط ، بيد أن الخوف من الذوق كان عظيما ، ومن شعر بأن احساساته قد جرحت ما كان ليجرؤ على التعبير عن غضب بشيء مبين ، وعلى كل فقد أوتي الشجاعة بعض من يحملون القناع ، لكن كلا منهم كان يشعر حقا بهمزة في هـــذا السقوط الى حضيض مرعب لا يسبر له غور ، ومن كان لا يزال طعم الخمر في فمه وقد أتى رأسا بعد لهو ، ومن كان عندئذ ما يزال على شفتيه لحن أو فكاهة وفي أذنيه موسيقا رقص أو رقة مهموسة ، فقد شعر بغتة بما بين الحياة والعدم والبهجة والهاوية من قرب وثيق

وألقت في الصحفة امرأة زرية الهيئة كانت في طريقها الى صلاة الصبح قطعة من النقود بوصفها أول فاعل للخير . وكانت عملة نحاسية من أبخس نوع متداول ، وجاراها مترددين بعض آخر . وجعل بعض العجائز من الشعب يتمتمن مسبحات على وتيرة واحدة .

وانحنى أحدهم فوق الميت . وكان يمكن أن يظهر عليه أنه يريد أمرا معه في صورة خاصة . ولعله كان بدافع من الفضول فحسب يتحرى الطريقة التي شد بها وثاق الجثة الى المقعد والعمود ، ولم يكد يفعل ، فقد ظهر جندي لم يكن الى ذلك الحين ميسورا أن يرى خلف الاعمدة ، ففهم الجميع أنه أقيم حارسا لا ليحرس ما يسيل من نقود بقدر ما يتدخل اذا حاول أصدقاء للقتيل أن يبتعدوا بالجثة ويضعوا حدا لهذه المهانة . لكن الامر لم يكن بحاجة الى هذا الاحتياط ، والا

فمن ذا الذي كان قمينا أن يأمن أن يناوىء الدوق على هذه الصورة العلنية ؟

من الآن لم يجرؤ سوى متنكرين تقريبا على القاء شيء من النقود في الصحفة • أما من عداهم فتهيبوا أن يستراب بميلهم الى القتيل ذلك أنهم تصوروا أن في مكنة الجندي ملاحظة المتبرعين والتبليغ عنهم ـ ولم تكن تريكرس مزدحمة بالسكان • وكان كل من فيها يعرف الآخر ـ وقد يكون الجندي مكلفا بذلك ، وقد يكون قائما بهذا من تلقاء نفسه فيرفع الامر الى الدوق أو الى رؤسائه المباشرين وكذلك افترض الناس أن يكون بين الجمهور متنكرون من خلصاء البلاط •

وارتد الناس قليلا قليلا وبارحوا المكان ، وتسار البعض مع البعض خلال رحيلهم وانتقلوا في آخر الامر من التهامس الى تصريحات أعلى وأجلى بابتعادهم من الميدان الكائن أمام الكنيسة ثم حل محل المنصرفين آخرون • بل ان أناسا جددا لم ينفكوا يتدفقون لأن الشائعة انتشرت في تلك الاثناء ، وبين من لا يحصون ممن توافدوا من الآن فصاعدا كان من جاءوا اتفاقا لا يزيدون عن عدد قليل ، وقد حضر معظم من حضروا ليشهدوا المنظر غير المألوف ، وليقتنعوا بأن الحدث الجلل الذى روى لهم حقيقة واقعة ، وقد أدرك الجميع أهمية المكتوب على اللوحة •

وطلع النهار في تلك الاثناء لكن السحب كانت تخيم وغبش الفجر لا يبدو انه انقشع الا قليلا ، وفي هذه الحالة التي كان عليها الضوء تبين الناس قامة امرأة نحيفة تضع قناعا أسود مقبلة في بطء دون أن تلتفت يمنة أو يسرة ، آتية من ناحية حي المدينة المسمى سان مارسيللو ، وان ارتداءها الملابس السوداء وأكثر من ذلك

مشيتها وهيئتها قد نم كله عن انها لم تكن من عامة أهل المدينة ، ومن ثم أثارت ضجة ، اذ كان الناس لم يألفوا أن يروا سيدة من الأسر المحترمة تسير في الشارع دون مرافق • وقد بدت مشغولة بنفسها حتى انه لا بد أنه قد ظن الناس أنها لا علم لها بما وقع أمام كنيسة الاطفال الأبرياء أو انها لا تشعر بأنه يمسها ، كذلك كان يظهر انها لم تلم بما كان يقال على مقربة منها عما حدث ، وانها وهى تشرع فى عبور الميدان لم تكن تنتوى أن تتلبث عند الكنيسة ، وأن تقف عند هرج الناس ومرجهم ، لكنها وقفت لحظة وكأنما طرق سمعها اسم الميت الذى كان يزداد ترداده على الدوام كلما ازداد المرء اقترابا من مكان الحادث ونفذ من هذا السمع الى وعيها • ذلك انها غيرت قليلا وجهة سيرها واتجهت دون أن تسرع الخطى نحو الزحام فى هيئتها المعتدلة • وقد نظر الناس اليها وأفسحوا لها الطريق •

وها هى تقف الآن أمام الجثة مما استرعى التفات الناس وانتباههم الشديد ، وقد بدا للحاضرين أن الوقت يطول بهم وهو ما يمكن أن يكون وهما منهم ، ثم رفعت رأسها قليلا وتبينت الآن حقا تلك اللوحة وذلك المكتوب ، وألم بصرها بالكلمات من خلال النقاب الذى كان يخفى وجهها وعينيها وبعد برهة ركعت أمام الميت ورسمت علامة الصليب على صدره وصدرها ثم قبلت يديه فى انتباه وهى جاثية على ركبتيها •

وتقدم الجندى الحارس وقد أقلقه هذا فيما يظهر ، لكن بدا عليه أنه لا يعرف بالضبط كيف يكون سلوكه ، ومن ثم انتظر وتنجنح فى شىء من الارتباك ، لكن السيدة كانت قد نهضت فى تلك الأثناء ، وهكذا تمتم بشىء لا يدل على تأكد ثم انسحب ثانية الى مكانه فى ظلام الأعمدة •

وأتت السيدة الآن بحركة كأنما تبغى جيب منطقتها الصغير ، حركة كان يبدو أنها قد اعتادتها يداها ، لكنها تذكرت فيما وضح

أنه كان هناك عائق عاق هذه الحركة أو جعلها على غير جدوى ، وهكذا أرجعت يديها ثانية .

وكانت يداها على غير المألوف عاطلتين من كل حليــة فيما عدا خاتم غير عريض من الذهب فى بنصر اليد اليمنى غير مرصع ، ومع ذلك فقد اعتقدت فتاة واقفة بجانبها انها ترى بوضوح أن بعــض الأصابع الأخرى كانت تبدى آثارا اعتاد أن يخلفها التزين بالخواتم سنين طويلة .

وظلت يداها مترددتين فترة أخرى ناحية المنطقة لكن السيدة رفعتهما اثر ذلك الى ارتفاع الصدر تقريبا وخلعت الخاتم الذهبى فى شيء من الجهد عن اصبعها وتأملته وقلبته كما لو كانت تقرأ على باطنه كتابة منقوشة فيه ، ثم رفعته الى شفتيها والقت به بين قطع العملة النحاسية الزهيدة فى الصحفة . فى هذه اللحظة تأكد لكل الواقفين حولها أن أمامهم تقف مونا اونستا أرملة جاناندريا راسبنتى .

فى هذا السكون سمع وقع حوافر بعض الخيل وقد صمت فجأة وجاء على الاثر رجل يزاحم قاصدا مكان الواقعة . وقد عرف الناس فيه سائس ألاردو فولونيانا ، فتلفت حوله وسأل ماذا هنالك؟ ولما رأى بين الناس حداد الحداوى الذى اعتاد أن يركبها لخيول فولونيانا قال له انه كان قادما مع ســـيده فى الطريق ، ولمــا رأى ســـيده زحام الشعب وقف فى الجانب الآخر من الميدان وأرسله يستطلع الخبر .

وعرف التابع وتبين الضرورى واستعد للعودة الى سيده . لكن هذا كان قد ألم فى تلك الأثناء بكل شيء من أقوال عابرى السبيل ، اذ جاء يخطو وهو يخبط الارض بعنف يصحبه وقع مهمازيه الطويلين وسط الجمهور الذى أفسح له الطريق ، قاصدا الى الجثة رأسا . وأجال نظراته الملتهبة باحثا ثم وقف مسمرا عند اللوحة .

قال وهو يلهث تقريبا : « الله فى الأعالى ! » وظهر أن التأثر والغضب كانا السبب فى هذا اللهاث أكثر مما كانته العجلة التى عبر فيها الميدان الفسيح · وكان يتنفس فى عسر ، وكان له المحيا الوسيم الذى تمثل فيه انتقاله التدريجى من الصبى الى المرحلة الكاملة لنضج الرجولة العامر بالأفكار والتى كان الناس يعرفونها فيه ، ما فى ذلك شك ، كان محياه الوسيم يبدو للناس لما رفع قبعته وكأنه قد تغير من تأثر هذه اللحظات ، وقد رفع قبعته بحركة بلغ من عصفها أن ريشها الأبيض الطويل حط على أنف صبى خباز وفمه ـ وكان واقفا بجانبه ـ وجعله يرتد مترنحا مذعورا تقريبا ·

وصلب فولونيانا على صدره ثم وقف بلا حراك مطأطىء الرأس وتركزت أنظار الجميع عليه ، وأحسوا التأثر من منظر الرجل ومن الشعر الأسود الذى وقف قليلا واليدين المديدتين غير العريضتين والسترة البيضاء المزدانة بفرو سنجابى فضى والموشاة بالاحمر والذهبى والتى تتدلى منها على الصدر سلسلة ذهبية ثقيلة ، ويعلم الناس أن جده تلقى هذه السلسلة هدية رضى من سلف الدوق الحالى الأول وأن العملات المظهرية المثبتة الى هذه السلسلة تحمل صور بعض أعضاء أسرة الدوق ·

ولم يقف ألاردو فولونيانا للناس يستعرضونه بلا حراك الا لحظات قليلة ، ولم يفطن الى ذلك لأنه كان هو نفسه قد تملكه الحادث وتملكته الردود التى تكونت فى دخيلة نفسه جوابا على الحادث حتى انه لم يستطع الالتفات الى ما حوله · لكنه طرح رأسه الى أعلى بعدئذ وأخرج كيس نقوده بسرعة فائقة وكان كيسا من الجلد الاخضر الموشى بالذهب أفرغه فى الصحفة ، وهنا لاحظ كافة المشاهدين أنه قدم كل ما كان يحمل من نقود ·

فحملق الناس فى الصحفة مبهوتين وجعل بعضهم يندفع الى

الأمام واشرأبت رقاب عديدة وامتلأت الصحفة التى لم تكن تحتوى من قبل ـ عدا خاتم مونا اونستا ـ سوى القدر اليسير من النحاس حتى كاد القاع يظل مكشوفا وبات الآن فيها فضة وعدد كبير من القطع الذهبية ، ولعله كان فيها أكثر كثيرا مما يتطلبه دفن معتدل . لكنه رأى كأنما لا يكفى هذا ، فهو يريد أن يرى الصحفة مليئة الى حد ألا يدع سببا لمتابعة هذا الامر هنا ، وليس هذا فحسب ، بل أن يدفن الميت بأكثر من الصورة اللائقة ، أن يدفن بكافة صنوف التكريم المأثورة ، أجل فى فخامة ، وهكذا أخذ السلسلة الذهبية بل انتزعها تقريبا من رقبته وحل ، قطع العملة المظهرية مع الازرار الدوقية وهو ما احتاج فيه الى استخدام شيء من العنف ، وألقى السلسلة فى الصحفة بعد كل ما رماه فيها من نقود ، وقد سمع لهذا رنين حاد وأودع فولونيانا قطع العملة المظهرية كيسه .

وارتفعت بين الجمهور همهمة الاستحسان ، بل ان بعض الناس صفق بين النداءات المرتفعة . لكن معظم الناس لم يجرؤا أن يسمحوا لمشاعرهم بمثل هذا التعبير ، لأن الوجل الذى كان قد خيم على جمهرة الشعب فى البداية ازداد أخيرا ، وكان سبب ذلك فى الحق وجود شخصين متنكرين ومسلكهما ، وقد انضما الى الناس وساهما فيما كان يجرى أمدا طويلا وهما يشهدان ما حدث . كان أحدهما رجلا طويلا نحيفا والآخر قصيرا بدينا دون المتوسط . وكان كلاهما يلبسان رداء للتنكر أصفر اللون . وهو ما كان الناس يحبون ارتداءه فى تريكرس . وكان على وجهيهما قناع من الحرير الأسود . كان هذان الرجلان يقفان تارة معا وأخرى متباعدين ، ويبدوان متفاهمين غالبا بالنظرات والحركات بلى لقد لوحظ ان الأقصر كان يخرج أحيانا لوحا للكتابة ويدون فيه شيئا . وهكذا وقر فى الاذهان أنهما يدونان أسماء أولئك الذين تبرعوا بصدقة كثيرة أو الذين أفلتت منهم تصريحات ، ومع ذلك فلم يجرؤ أحد على التعرض

لهما ، ذلك أن الظن كان أنهما لا بد أن يكونا من حاشية الدوق أو يكونا على صلة به فجعل هذا وذاك الناس يتحولون عنهما دون أن يلفتوا الأنظار .

وأبدى بعض الجمهور عجبه من مسلك فولونيانا ، فقد نسب الى جهوده سقوط جاناندريا فلم يستطع الكثيرون أن يتصوروا أن للعداوة أيضا حدا يوضع لها فاعتقدوا على التحقيق أن الحط من قدر الميت قد كان مرجعه الى مسعاه . واعتقد بعض هؤلاء انهم يتبينون الآن في سلوك فولونيانا تأثير ضمير يؤنب صاحبه ، وفسروا تبرعه بأنه رغبة منه في التهوين من ذنبه هو ، بعد فعلته . بيد أن أولئك الذين كانوا يفكرون على هذا المنوال كانوا أقلية على التحقيق . وكان معظمهم يشعرون رأسا بأنهم تأثروا بفكرة هذا الذى وقع والذى كانوا شهودا عليه . وكأنما أرضى عمل فولونيانا انفعاله الباطن وهدأ ثائرته فبات الآن رابط الجأش مستجمعا قواه ، واذ يتحول ويريد الانصراف يرى السيدة ذات النقاب فيعرفها من فوره ، وليكن هذا لأن دائرة الناس التى كان كلاهما يعيشان في داخلها باتت ضيقة . فتقدم منها وقبعته ما تزال في يده وانحنى لها وقال : « مونا أونستا ! » ولما كانت السيدة قد خفضت رأسها بصورة غير ملحوظة تقريبا ردا عليه . مضى يقول في الحاح وبصوت مكتوم الى حد أن كلماته لم يسمعها أحد غيرها : «أرجوك أن تأذنى لى بأن أرافقك؟» .

ولم تحر مونا أونستا على ذلك جوابا لكنها قالت بعد صمت وجيز : « يجب أن أشكر لك يا سيد فولونيانا أنك وضعت حدا لهذه المهانة وأرجوك الصفح ، ذلك أننى وقد رأيت فيك سبب كل ما لحق بزوجى في أيامه وساعاته الأخيرة وأدى الى نهايته عددتك، منذ تبينت هذا ، من أحضر زوجى رغما عنه على مثل هذه الصورة ولهذا الغرض أمام كنيسة الأطفال الأبرياء . لكنى الآن أرى حقا

أن هذا كان منى رأيا ظالما وعلى الأقل ما يتعلق بالمهانة الحادثة هنا أمام الكنيسة » ٠

فأجابها فولونيانا بقوله : « ان رأيك فى غير هذا أيضا خاطىء يا مونا أونستا ، فلا دخل لى فى موت السيد راسبثتنى » ٠ ثم أضاف الى ذلك : « اللهم الا اعتبار غير مباشر هو أنى سعيت فى اقصائه عن مناصبه لدى الدوق » قالت : « كلا ؛ لقد كنت أفترض هذا ومع ذلك فلا يداخلنى شك فى كلامك » ٠

لقد كانت خصوصية هذا المشهد هائلة دون أن يرى أحد حتى ولافولونيانا وجه مونا أونستا ، حتى انه لم يمكن أن ينم عن دخيلة نفسها سوى حركاتها وصوتها ٠ لكنها الآن كانت تسلك سلوك من جافاه التأثر كلية ومن كان صـوته متحجرا ٠ أجل لقد كانت السيدة على درجة من الجمود بدا معها أنها لم تعد قادرة على التعبير عن شكوى أو ملام ، ومن لا يدرى الظروف خليق حقا بأن يظن أنه مونا أونستا كانت تتكلم عن شىء لا يهمها ، أو أنه وقع من عهـد بعيد جدا ٠

وكرر فولونيانا رجاءه بأن يرافقها وأن تسمح له باصطحابها الى بيتها ، فسألته فى جمود : « الى أين ؟ لم يعد لى بيت فى تريكرس فلا تهتم بى ! » ، لكن فولونيـانا لم يستسلم لهذا الرد بل مضى يستحثها ، لما دار الحديث بينهما بالفعـل كانت مونا أونسـتا لا تسعها الرغبة فى أن يصـل فحواه الى آذان الواقفين من حولهما فقد انتحت جانبا وهى مضطرة وتبعهـا هو ، وكانت هذه بداية بالفعل لانصرافهما معا ، وفى النهاية ألفت مونا أونستا نفسـها على استعداد لتقبل ذراع فولونيانا ٠

وبينا يشرع فى اصطحابها وقع نظره وهو يبغى شق طريق لهما بين جمهور الشـعب ، على كلا الرجلين المتنكرين فى الثيـاب

الصفراء ، وكان وجهاهما المقنعان متجهين اليه والى مونا أونستا فارتبك لحظة وجيزة ، لكنه كانت تتملكه مشاعره ، وكان مدفوعا الى الخروج بمونا أونستا من الغمرة بأسرع ما يستطاع حتى انه سرعان ما نسى ذلك الذى تبينه فى الرجلين نصف تبين ٠

وانطلقا ، ذات الثوب الأسود وذو الرداء الأبيض ، وأفسح لهما الشعب المكان وتبعتهما أنظاره حتى اختفيا وتواريا عن الأنظار ٠

ومشيا برهة صامتين جنبا الى جنب ، ثم قالت مونا أونستا: « هذا ما يعرفه كل انسان فى هذه المدينة ، وأنت أيضا تعرف أننا، زوجى وأنا ، لم نكن على وفاق تام فى معيشتنا ، لكنى رأيت فيه زوجى والشخص الذى يمثل شرفه وخزيه شرفى وخزيى أيضا : سامحنى يا سيد فولونيانا ، لكن ما أقسى ما نزل بى المصاب ، حتى انه ليس الآن من يأخذ بيدى سوى الرجل الذى أسقط زوجى » ٠

فأجاب فولونيانا : « لم أكن عدوه ، لكن كانت لى فى الشئون العامة أفكار تختلف عن أفكاره ، وكنت أسعى الى تحقيق أفكارى كما كان زوجك ينشد تحقيق أفكاره » ٠

فقالت مونا أونستا : « انى لا أوجه اليك لوما على هذا ، فأنى لأعلم جيدا أن مثل هذا لابد أن يقع فيما يكون بين الرجال والأحزاب من نزاع على السلطة ٠ وقد كان أيضا على زوجى قبل أن يصل الى السلطة أن يقضى أولا على سلطان الرجال المعارضين له وعلى حزبهم » ٠

وكانت ما تزال تتكلم بصوت وتير جدا كأنما حرمت القدرة على رفعه أو خفضه ٠ كذلك لم ينشط صوتها لما جعلت تروى له

أنها كانت فى طريقها الى سيمانيرا خالية الذهن من المذلة القائمة أمام كنيسة الأطفال الأبرياء حتى وقفت بغتة أمامها ·

وسأل فولونيانا : « الى سيمانيرا ؟ على قدميك ؟ ودون رفيق ؟ » ·

فأجابت : « لعلى أجد عربة قروى يسمح لى بامتطائها شقة من الطريق لوجه الله · وقد حظر على خدمنا أن يرافقونى · وأحمد الله أن حرمنا من الأطفال » ·

وكان الدوق قد أمر بأن تصادر ثروتهما على أعنف صورة ، فلم يسمح لمونا أونستا بأن تأخذ شيئا مما ملكت · أجل انه لم يدع لها من كافة حليها سوى خاتم زواجها الذى ألقت به فى الصحفة ، فقد افترض الدوق ، ربما عن حسن نية ولكنه خطأ على كل حال ، أن جاناندريا راسبنتى لابد أن يكون فطن الى ضرورة اخفاء الكثير من الثروة الهائلة التى أحرزها أثناء خدمته لينجو من كل مساس · وتلتزم الأرملة ذلك الآن · وقد فكرت فى أن تسأل المأوى أقرباء أو معارف لها فى سيمانيرا ، ذلك أن أحدا فى تريكرس لم يجرؤ أن يوليها معروفا ·

لقد قصت هذا كله الآن وسمعه فولونيانا دون أن يعقب بشىء كثير ، لانه مهما يكن شعوره قد جرح فما كان ليجد من اللائق أن يجرح على مسمع من مونا أونستا أعمال الدوق الذى دخل فى خدمته ، فصمت من ثم ، وغض من بصره لما قالت مونا أونستا أول ما ارتفع صوتها أنها لا تشكر له فحسب تحرير الميت من عبودية الذنب المخزى ، بل كذلك شيئا آخر · ذلك أنه أقام الدليل على أن الأسلوب الذى تحكم به المدينة لم يكن قادرا على اطفاء أريحية الكرم وجذوة الكبرياء من النفوس · ولما طلبت مونا أونستا أن تودعه لتتجه الى الباب العالى الذى يؤدى الى الطريق العام من

جانبه الآخر الى سيمانيرا ، عاود الكلام وقال فى حينه انه لن يطيق أن تغادر المدينة على هذه الصورة فتذهب الى المجهــول مستجدية وتمضى الى ما لا تطمئن اليه • فالأحرى أن يرافقها الى أمه فسترحب بها فى بيتها وستجد هى فيه كل حماية •

فمانعت مونا أونســتا ، لكن فولونيانا لم يتراجع •• ولما كان ما خبرته قد أضعف قوة ارادتها وعزز بذلك قوة ارادته فقد رضخت فى النهاية •

وسارا من تلك اللحظة جنبا الى جنب مستدبرين الزحام من أمد ، وبلغا شوارع لها مظهر النهار العادى وأخرى بعـــدها غير مرصوفة وقليلة النشاط ، وتلاشت كل ضوضاء وصافح سمعهــا فى ذلك الوقت تغريد الطيور تعلن عن حلول الربيع ، وكانت شهبة الجو تميل الى الانقشاع ، والسماء آخذة فى اتخاذ لون رقيق بميل الى الزرقة •

وألم بسمع مونا أونستا وألاردو فولونيانا وقع خطوات من خلفهما مسرعة تتوثب عن قرب فأحسا أنه لا بد أن تكون لهـــذه الخطوات صلة بهما ؛ لكنه لم يلح لأى منهما أن من المنــاسب أن يلتفت اليها • ووقف على الأثر أحد الرجلين المتنكرين عندهما وهو ينهج قليلا ، وكان الأقصر قامة والشخص الذى يميل الى البدانة فانحنى وحسر القناع عن وجهه ، وكان رانشيو خادم الدوق الخاص وموضع ثقته وهو مخلوق منحط فاز من صداقة الدوق وصراحته بأكثر مما أبدى الدوق نحو الوجهاء من رجال بطانته •

وفى تلك اللحظة فطن فولونيانا الى أنه كان قد تبين كليهما من قبل لما أوشك أن يبارح رحبة الكنيسة مع مونا أونستا ، لكنه لم يستطع أن يستبقى فى وعيه هذا التبين كما ينبغى • بل انه تبين الدوق الذى كان يعرف مظهره ومسلكه أدق المعرفة • بل انه

لاح له الآن أنه لابد أنه عرف من تحت القناع الحريرى الأسود ذلك الوجه الشاحب المتوعك ذا العينين الصغيرتين الباردتين المستريبتين وتساءل عندئذ هل تبينه الجمهور فى الحق بالمثل ، الجمهور الذى لم يألف منظر الدوق كما ألفه من يخالطونه ، لأن الدوق قل أن ظهر فى المدينة جهرة ؟

جال هذا كله فى رأس فولونيانا بسرعة خاطفة • وقد رأى رانشيو يحسر القناع عن وجهه وينحنى له ، وسمع خطابه • لكنه الآن لم يستطع أن يتابع أفكاره ، لأنه كان لابد أن يوجه التفاته الى ما كان رانشيو مكلفا بأن يبلغه اياه •

ومط هذا صدره ، ومع أنه كان لا يفتأ ينقل نظراته من فولونيانا الى مونا أونستا وكلها حب استطلاع فقد تظاهر كما لو كانت هذه غير موجودة وقال : « ان صاحب السمو ينتظرك يا سيد فولونيانا فى الايوان الأحمر بعد دقات ساعة الظهيرة • »

فأجاب فولونيانا : « حسن • سأكون فى الميعاد • »

وكان يمكن أن يبتعد رانشيو بعد هذا ، لكن يبدو أن غروره لم يحتمل فكرة أنه لا يكون شيئا غير حامل رسالة أو أن الدوق حمله ، ربما على سبيل التلميح ، مهام أخرى مستمرة ، أيا كانت الحال فانه قد حاول أن يطرق باب الحديث فيما وقع فرفع صوته بملاحظته • قال : « انه يبدو أن صاحب السمو يرى يا سيد فولونيانا أنك بدأت عهد خدمتك بعمل يدل على أريحية غريبة » وغمز فى ألفة جريئة عوده عليها مركزه •

وجهد فولونيانا فى التوفيق بين الاستهانة التى كان يحسها لشخص رانشيو والاحترام الذى كان عليه أن يبديه نحوه كرسول للدوق ، فأجابه بقوله انه تعلم أن يرى أن دفن الميت هو فى الحق

آخر ما ذكر بين الأعمال البدنية السبعة التى تتطلبها الرحمة وتفرض على كل مسيحى القيام بها • لكنه لم يقل قط أن تنفيذ هذه الوصية تأتى بعد الواجبات الستة الأخرى •

فرد رانشيو : « ان هذا التفكير يشرفك ، لكنه يبقى أن يسأل حقا هل أردت بمسلكك أمام كنيسة الأطفال الأبرياء الوعظ بتعليم أو اصدار حكم بأن جانبا آخر على سبيل المثال قد أهمل فى الحرص على قاعدة مسيحية أو عمل رأسا على مخالفتها ؟ » •

فأجابه فولونيانا : « سأقدم الحساب عن هـذا الى صاحب السمو اذا شاء • » وتركه يفهم من هذا أنه لا يشعر بأنه ملزم بأن يقدم حسابا لرانشيو •

فرد رانشيو : « عد هذا ما تشاء ، فسيدور الحديث فى هذا وربما فى غيره فى الايوان الأحمر ما فى ذلك شك • » وثبت القناع على وجهه ثانية وهو يضحك ضحكة مقتضبة ، وانحنى وانصرف • وتابع فولونيانا ومونا أونستا سيرهما ولم يتحادثا عن رانشيو ولا عن رسالته •

وكان بين من حضروا ذلك المشـــهد الذى قام أمام كنيسة الأطفـــال الأبرياء الرســـام فرنسيسكو سكارتيزى أيضـــا • وقد استوقفه وهو فى طريق عودته من وليمة • وكانت قد تملكته رحمة أقوى مما تملكت كل من عداه من المشاهدين تأثرا من هزة لا من سخط ، لأن ما انفعل به لم يكن ما سبق حدوثه وما لابد أن يكون أدركه بفكره بل ما عرض لعينه كشىء حاضر ، فلما عاد الى بيتـــه سجل فى الحال وقبل أن يأوى الى فراشه ماشاهده ومانفذ بالنظرة الى نفسه رسما كروكيا بالقلم تتناوله هنا وههنا أيضا بضعة ألوان بالفرشاة ، اسعافا للذاكرة ، وذات دلالة بالصدفة وقد نشأ من هذا فيما بعد صورة زيتية •

وقد التقطت الصورة وتبنت تلك اللحظة التي انتزع فيها أوردو فولونيانا سلسلة الرضى ، وحقا لقد أقيم لهذه اللحظة وزن هي جديرة به ، وهي لحظة أحرى بأن تبدو فحسب تعبيرا عن عمل خفي جليل يرفعه آنئذ ضوء تلك الساعة الغريب الى ظاهرة عظيمة الشأن • لقد وجد جميع من ساهموا في الحوادث أمكنتهم في الصورة كان فيه كذلك تلميح للتباعد الخفي الذي بدأ يلوح بين الجمهور وكلا الرجلين المتنكرين في القناع الأصفر ، حتى سائس الخيل لم ينقص من الصورة ولا حداد الحداوى المعروف بثوبه الجلدي المبتذل أو الفتى الذي كان يقرأ اللوحة والذي كان قد ابتعد في الحقيقة لما أقبل فولونيانا بل عند اقبال مونا أونستا • لقد جحظت عيناه لمرأى السيد ذي الرداء الأبيض اذ كان ابهامه المسدود المشير الى المكتوب على اللوحة ما يزال موجها اليها في خشونة • لكنه بدا أنه نسي هذا المكتوب تقريبا بجانب الحادث الذي لاحت له فذاذته وهو أن أحد الناس تجرد طوعا عن نفائسه ، لكن أحدا من كل من صوروا لم يطغ على الصورة حتى ولا فولونيانا أومونا أونستا ، بل أن ما استقر في عقل الرسام قبل غيره قد كان تلك الساعة الحدس الذي أخضع كل أولئك الناس وأخضعته معهم • لقد تشابكت الحركة والسكون معا ، تشابك المستجدون والمبتعدون ، الفعالون والمتهاونون ، الخبيرون والمتأملون ، وتداخلت حمرة جدران الكنيسة المكتومة وبذلات العمل القاتمة وثبات التنكر الزاهية والأقنعة الصفراء والسواد الفاحم في ثياب السيدة ذات النقاب والبياض والذهب في سترة الرجل • لقد لطفت السماء الغائمة من حدة الألوان المتجاورة رأسا • ومع ذلك تجاوزت هذه الألوان عتمة الصباح الوئيدة الكدرة الى فعاليتها ، فانتقل غبش ضوء الفجر واهنا الى صبغه بلون الصدف أو بلون يكاد يتم به لون الفضة • وقد بدا هذا الانتقال يعني في نفس الوقت ذلك الانتقال الآخر ، اذ مال ذلك

المرح الطاغى الذى حل به التعب وبات مشوها بجمود مهلك ، ثم عادت تتألف من هذا رقة جديدة للقلوب وتقبل لا للحوادث فحسب بل أيضا لأهميتها ، وهكذا وفق الرسام الى التعبير عن صورته عن الشيء المستتر ، عن الشيء غير المعقول فيما وقع بمعنى حقيقى لعله عظيم ، ولعل المرء قد تبين هنا شيئا من نور السحر الذى تتحرك فى ضوئه كل الأعمال والمصائر فوق هذه الأرض كما لو كانت فى ردهة يحسدها ضوء النهار الساطع ٠

وقد أبقى سكارتيزى هذه اللوحة طويلا طى الخفاء ، ولم يجرؤ الا بعد عقدين من السنين ، أى بعد وفاة الدوق ، على عرضها للبيع لبيير فولونيانا ابن ألاردو فولونيانا من مونا أونستا الوحيد الذى لم يشهد أباه اذ لم يولد الا بعد سقوطه واعـدامه الذى أنهى مدة ولايته فى عام ونصف عام ومدة زيجته بعد نصف عام ٠ وقد حصل هذا الابن على الصورة وحملها الى أمه التى ترملت مرتين ٠

وصرخت مونا أونستا لما رأتها ، لكنها لم تتركها بعد ذلك بعيدا عنها ٠ وفى مرضها الأخير كان لابد من تغيير وضعها بحيث تكون نصب عينيها على الدوام وهى على فراش الموت كما هى الحال فى العادة مع الصورة الدينية الأثيرة العامرة بالرحمة ٠ لكنها احترقت فيما تلا من الزمان لما طارد شعب تريكرس حفيد الدوق ودمر فى خلال ذلك بيوت بعض النبلاء أيضا دون تمييز بين ملاك هـــذه البيوت ، من أنصار البيت الدوقى أو من خصومه ٠ وهكذا لم يحفظ من تلك الصورة ومن المصائر التى سجلتها الصورة سوى الذكرى التى يمكن أن تبقى طى صفحات هذه القصة على سبيل المثـــال بعض الأمد ٠

شقفة الطائر

« Das Vogelschaelchen »

أسماء الشخصيات

كولا دى رينزو	Cola di Rienzo
جبرينى	Gabrini

كان كولا دى رينزو الذى أدار أبوه حانة غير بعيد من طواحين التيبر يحكم آنذاك شعب روما ، وكانت كافة الملوك والمدن تعرف اسمه ، لكن خبرا ما جد لم يكن وصل الى القرية الصغيرة الواقعة خلف أنانييى والتى كان يعيش فيها عمه جبرينى .

ويجب أن يعرف أن جبرينى أرمل ، وهذا أمر لايكرهه ، لأنه اذا كان المرء قد عاش مع زوجه تسع عشرة سنة فانه يجب أن ينشـد الراحة آخر الأمر ، وهو ليس له أولاد ومزرعته صغيرة يزاولهـا بنفسه اللهم الا أن يستعين فى الربيع والخريف بضـعة أسابيع بطفل يتيم من أنانييى ، والأطفال اليتامى لا يكلفون كثيرا .

ولا يجوز أن يظن أحد أن جبرينى بلا قلب لأنه يحب راحته ويؤثر ترمله ، فهو فيما خلا ذلك على التعيين يحب بيبينو الصغير بحرارة بالغة . وبيبينو الصغير طائر وردى من نوع الشحرور ، له بطن وردى اللون وصدر وردى اللون ، أما سائر أجزاء ريشـه فأسود مائل الى الزرقة ذو لمعان جميل . ويسكن بيبينـو قفصا مجدولا من عيدان الصفصاف وفى كل سنة بعد تبديل ريشه يجدل له جبرينى قفصا جديدا . وليس بيبينو أجمل الشحارير الوردية جميعا فحسب بل هو أعقلها . ويصعب أن يتصور المرء كل مايتعلمه، لكنه بكل أسف ينساه دائما اذا ماخرج من موسم التبديل ، وتلك عادة هـذه الطيـور ، ثم يبـدأ تعليمها من جـديد بالصـفير والكلام أمامها . وهكذا يجد جبرينى تسليته ، فهو خبير بأن يعلم بيبينـو

بعد كل تبديل لريشه شيئا جديدا على سبيل التغيير ، وهكذا يمكن أن يستمر الأمر عدة سنين أخرى ، ذلك أن جبرينى عنيد شديد المراس • والشحارير الوردية تعيش تقريبا عمر الببغاوات • وهذا على الأقل ما يعتقده جبرينى •

كان بيبينو فى العام الفائت يصيح : « ليحيا السادة كولونا ! » لكنه الآن يصيح : « صباحا جميلا طيبا وقدحا آخر أيضا ! » وفى تلك الأثناء لا يعود تبديل الريش بعيدا فسرعان ما يكون بيبينو قد نسى هذا الهتاف وهذا القول • وينعم جبرينى الفكر كثيرا كيف ينبغى أن يعلمه عندئذ ، وليس جبرينى ، خصب القريحة بالخواطر وهذا ما يجب التسليم به •

ويجلس جبرينى بعد الفراغ من العمل أمام بيته الصغير وبجانبه القفص المجدول من عيدان الصفصاف على الدكة ويسير بيبينو فى قفصه وهو يهز رأسه جيئة وذهابا ويرعى مستطلعا ما يدخله له سيده فى القفص هذه المرة من طعام يختلف كل يوم ، فمثل هذا الشحرور الوردى يأكل كل شيء ، التوت والعنب والثمار والحبوب والجراد والخنافس ، فهو يلتقط من هنا وهناك ثم يمسح أثناء ذلك منقاره فى مسقاته وهى شقفة من اناء فخارى محطم ، لكن جبرينى يرى أنه لابد لطائره من شيء خير من هذا •

ويسمع جبرينى وقع حوافر ، ويقف أمامه على الأثر راكب ، راكب يجب أن يقال انه عجيب جدا • فهو يرتدى ثيابا فاخرة ويحمل معطفا أبيض وليس معه سلاح بل عصا رسول قد لف حولها غصن زيتون •

ويسأله الراكب : « أأنت جبرينى ؟ » .

فيقول : « نعم ، هذا أنا ، ويمــكن كل انسان أن يؤكده لك » .

ويصيح هنا بيبينو : « صــباحا جميــلا طيبا وقدحا آخر أيضا ! » .

فيبتسم الرسول قليلا ،لكنه يفكر عندئذ فى أنه أثناء تأدية وظيفته فيترجل فى جد عن حصانه ويقدم الى جبرينى رسالة .

فيقول جبرينى : « أنى لا أستطيع القراءة » .

فيقرأ له الرسول الرسالة وفيها كلمـــات كثيرة صـعبة فى ختامهـــا : « سلمت فى روما فى قصر الكابيتول ، وعليهـا هـذا التوقيع :

« نيقولاوس الصارم المحترم ، محرر جمهورية روما بمعونة الله والغيور على ايطاليا وصديق الكرة الارضية والمدافع الوفيـــع بفضل الله عن الحرية والسلام والعدالة ، وحامى الجيوش والأرامل واليتامى » .

ولا يفهم جبرينى من هذا كثيرا فيضطر الرسول الى التلاوة مرة ثانية ، ويفسر له بعدئذ الرسول أن هذا كله هو ابن أخيـــه كولا ، حقا ابن أخيه كولا ! لكن الرسالة تتضمن أنه لا يليق أن يعيش أقارب المـدافع السـامى عن حقوق الشـــعب معوزين فى الخفاء . ومن ثم ينبغى على جبرينى أن يغادر مزرعته بلا ابطاء والى الأبد ، ويحضر الى روما .

ويقتنع جبرينى شيئا فشيئا بأن هـذا فى الواقع هو كولا

بن أخيه ، الثرثار الجهنمى ، ويقـول : انظر ، انظر ، وأنا الذى ظننت أنه لن يضمن لنفسه أبدا دخلا أكيدا ٠

وينقده الرسول مبلغا من المال ليستطيع السفر الى روما على نحو لائق ، وفى ثياب مناسبة ٠ ويعقب على أسئلته ببعض اجابات ومعلومات وأوامر أخرى وينصرف ٠

ويصيح بيبينو : « صباحا جميلا طيبا وقدحا آخر أيضا ! » ٠

ويعجب جبرينى جدا ٠ لكن هذا آخر الأمر آت من السلطة العليا ، واذن فسيعمل ما أمر به ٠ ويعد المبلغ ويجده كبيرا جدا ٠ وانه ليكونن مغفلا كبيرا اذا هو أنفق كل هذا على لباسه وسفره ٠

ويبيع جبرينى ماشيته القليلة جارا له ويدع له فلاحة أرضه والانتفاع بها مناصفة فى غلتها ٠ ويذهب الى مقرض بالرهن فى أنانيبى وينتقى لنفسه بذة من ذلك النوع الذى يرتديه الناس فى أنانيبى فى أعياد القديسين ، ومن نفس تاجر الثيـــــاب القديمة يشترى حذاء مصنوعا حقا من الجلد لا حذاء خشبيا ، وينجح فى تخفيض شىء من ثمنه ويغتبط بهذا التوفيق ٠

ويدفن من نقوده أربعة أخماسها تحت شجرة كرز كبيرة تقوم خلف بيته الصغير ثم يخرج فى طريقه ٠

ويستأجر فى أنانيبى بغلا وان كان يؤلمه الانفاق ، لـــكن الرسول حتم عليه ذلك ، ويرى جبرينى بلا يب أنه كان فى وسعه أن يسافر بالمثل سيرا على قدميه ، لأنه كم تبعد المسافة من أنانيبى الى روما ؟ ومن قبل قطع الطريق أيضا على قدميه حينما توجه لزيارة أبى كولا وأراد أن يأكل ويشرب فى حانته كما ينبغى ٠

وفى الطريق يتحدث مع البغال فيتناولان الكلام عن أحوال الحقول وعن طريقة جديدة لعصر الزيت فيحكى له جبرينى أيضـــا

أنه يريد زيارة ابن أخيه في روما الذى أصاب هناك نجاحا . لكنه لا يقص عليه أكثر من ذلك حتى لا يغلو المكارى فى طلباته .

ويقول المكارى : « أجل ، لكنه يحدث أن يعود الأولاد ثانية الى القرية حين لا يعودون يجدون فى المدينة ما يأكلون » .

وقد حظر عليه رسول كولا أن يحضر معه الى روما أى شىء من حاجياته ، بيد أنه من البديهى ألا ينفصل جبرينى عن طائره . فهو يعتمد القفص فى حذر الى صدره ، ويحمله عنه البغال من حين الى حين حتى لا تتيبس ذراعاه . والمسقاة فى ذلك تتدحرج هنا وهنا ، ويصيح بيبينو ذات مرة : « صباحا جميلا وقدحا آخر أيضا ! » فيضحك كلاهما ويستريحان برهة وجيزة ويحتسيان من النبيذ الذى أحضره جبرينى للرحلة معه ، وعلى هذا المنوال يصل جبرينى الى روما .

ويريد الحراس فى القصر الكابيتولى أن يمنعوه من الدخول ويضحكون فى نفس الوقت من قفص الطائر ، لكن جبرينى يريهم الرسالة وعليها الخاتم فيقتاده أحدهم عندئذ وهو ينحنى له كثيرا الى سيد وجيه ، وينحنى له السيد الوجيه أيضا ويقتاده الى غيره وهكذا دواليك حتى يبلغا ممشى فيلقيا عنده كولا فجأة .

وكان ما يزال كما كان من قبل متقد العينين جميلهما ذا خلق حاد . لكن ملابسه كانت غير ما عهده جبرينى . ويتعانقان ويخمش جبرينى ابن أخيه فى شحمة أذنه ويقول : « أيها اللعين ! أما زلت تذكر كيف كنت عندى ؟ كانت المرحومة زوجتى ترميك بالمغرفة على رأسك لأنك كنت تلتهم بشائر كرزنا كله . كانت تقول أيضا دائما أنك لا تصل الى شىء بكدك ومثابرتك ، وها أنظر الى ما وصلت اليه ! »

ويصـــيح بيبينو : « صباحا جميلا طيبا وقدحا آخر أيضا ! »
ويرى كولا ان هذا الطائر الذى جلبه جبرينى معه شحرور جميل وهكذا يتبادلان بضع كلمات أخرى ، لكنه يجب بعدئذ أن يعجل كولا بالتوجه الى اجتماع للمجلس ويقود رئيس الخدم جبرينى الى غرفته ٠

واذن فهو يعيش الآن فى القصر الكابيتولى وســـط الأسرة جميعـــا فى أبهـــة مسعفة ٠ وانه ليحلو لجبرينى أن يعـــاين العمل ويتحدث الى العمال ببضع كلمات ٠ وقد وجد من بينهم واحدا يعرفه ، لكن هذا أمر لا يروق أهل القصر ٠ وأهل القصر عديدون جدا ٠

ويلقى جبرينى عناء فى ابعاد بعضهم عن بعض ٠ وكولا يتكفل بحاجات أقربائه بكل ما هو حق ، ولقـــد توفى أبواه ، لكن هنـــا زوجته وأطفاله وحمواه والاخوات ٠ ولهؤلاء بدورهم أيضا أولاد وأولاد أبناء وبنات اخوان وأخوات ٠ وهناك بنات وأبناء أعمام وأخـــوال كلهم يتحلون بالذهب وينعمون ٠ وهناك جانى خال كولا الذى كان يدير فى تراسيتفيرى دكان حلاق لجبرينى دائما بالمجان كلما زار أقرباءه فى روما ، كان يحلو لهما اذ ذاك أن يتبادلا النكات ، ويخبطا فخذيهما من الضحك ، لكنه لا ينبغى أن يسمى الآن جانى الحلاق ، بل يسمونه السيد جانى روسو ، يضع مهمازين من الذهب ويحمل سيفا ذهبيا ، ويعمل كأنه لم ير جبرينى قط من قبل ٠ وهو يتخذ من حوله نصف دستة من الغلمان ، وكذلك امرأة كولا تدع مثل هؤلاء الأشقياء يحملون ذيلها ، ويأتون لها بهذا ويأتون بذاك كأنما تدور بالقصر مدرســـة للأطفال ، ولطم مرة جبرينى واحدا من هؤلاء الغلمان على خده فعلا فى القصر صراخ شديد ، وقيل ان الغلام من بيت كريم ومن ثم لا يجوز أن يلطم ٠ وقد أنب الجميع

جبرينى ، أبناء وبنات العم والخال وأبناء وبنات الأخ والأخت ، ما عدا كولا الذى لم يحفل بالأمر فما يزال يحتفظ فى ذاكرته بما كان يأتى من جهالات ٠

وقالوا لجبرينى أن عليه أن يقصد دائما الى كبير الخدم اذا رام شـيئا ٠ لكنه لم يكن يحب هذا ٠ لقـد زوده رئيس الخدم بملابسه ، لكن الثنيات والتطريزات الكثيرة تجعـل القماش صلبا فلا يستطيع أن يشعر فيه براحة ومن ثم يؤثر جبرينى أن يرتدى بذلته الجميلة التى ابتاعها من أنانييى ٠

وعلى جبرينى أن يحضر الاستقبالات الكبرى ، وهذا يضايقه كما يضايقه أن يحضر المآدب ٠ وهو يجد أن هذا يتم فى صرامة وان كان الأكل والشرب وفيرين ٠ وليس ما يدعو الى الشك فى هذا الباب ٠ لكن هناك دائما أجانب ، فرسانا وقوادا ، ودكاترة وسفراء يلقون خطبا طويلة غير مفهومة ٠ وان جبرينى ليعجب أشد العجب من أنهم يخالطون كولا كما يخالطون أشباههم ٠ وخير له فى نفس الوقت ألا يحفلوا به هو ٠

ويرى أن كافة الأقارب الذين يحملون آلاف الألقاب الضخمة ويتقلدون المناصب الرفيعة ويتحدثون مع بعضـهم البعض عن صفقات عالمية ومدنية ، يهتمون به أكثر مما ينبغى ٠ لقد حظروا عليه أن يحضر معه قفص الصفصاف عند تناول الطعام فى قاعة الأكل ويضعه أمامه على المائدة ، يهتمون بملابسه اذ يبدون عليها كافة الملاحظات ، وفى كل مرة كان يحتفل بأحد الأعياد ، وقد اندس جبرينى بين الجمهور وشرب من النبيذ فتشاجرت معه الأسرة وسألته أليس يتلقى فى القصر نبيذا كافيا ٠ وحقا ان ما أمر كولا بأن يجرى من منخرى الجوار لم يكن أفخر ما عنده من أنواع النبيذ ٠ لكنـه سر جبرينى أن يحتسى مع سائر الناس ويشرب الانخاب ويلقى الخطب،

فرأت الأسرة فى تلك الاثناء أن على جبرينى أن ينشد القاء الخطب فى قصر الكابيتول وهكذا يجد جبرينى ما يضايقه عندئذ فيأخذ فى تجنب الاسرة بعض الشيء • وقاعات القصر مترامية يستطيع المرء أن يبتعد فيها • وسرعان ما يلوح أيضا كأن كولا وأهله مشغولون بكافة الهموم والانفعالات فلا يعودون يلتفتون كثيرا الى جبرينى كما كانوا يفعلون فى مبدأ الامر • بلى لعلهم نسوه تماما فى فوضى هؤلاء الناس الكثيرين المتعجلين • وهذا يروقه جدا •

ويكف جبرينى عن مؤاكلتهم أيضا اذا اهتدى الى أن هنالك مائدة أخرى هى مائدة الخدم • ويجب ألا يظن أن الأكل هنا أردأ منه فى قاعة الطعام الكبرى ؛ كلا ففى أنانييى لا يأكل وكيل السادة كولونا مرة من مثل هذه الأوانى ؛ وكذلك السادة كولونا لايستطيع وكيلهم أن يقدم اليهم مثل هذه الاوانى اذا جاءوا لزيارته وليروا فى أنانييى مجرى الأحوال • لكن هنا يمكن أن يمد المرء يده الى ما يشاء بطيبة نفس ، وهنا أيضا رجال متفاهمون يمكن أن يتبادل المرء معهم كلمة • وهنا الى هذا دائما غدو ورواح فى مرح ،ونكات تلقى وضحك كثير ، ولا دخل للمرء هنا بهؤلاء الغلماء الأشبقاء، أما صبيان المطبخ فبوسعك فى راحة أن تلطم أحدهم على فمه فلا يعترض أحـد عليك •• وجبرينى يكرم هنا جدا وينال خير القطع ويوضع أمامه قفص عيدان الصفصاف على المائدة ، ويغدو بيبينو ويروح فى قفصه وهو يحجل ويعجب الجميع بألوانه الجميلة وفهمه الرفيع •

وقد حدث فى مبدأ الأمر أن كان هذا أو ذاك ينتحى بجبرينى جانبا ويطلب منه أن يتكلم مع محامى الشعب أو مع زوجته أو مع كبير الخدم ابتغاء تحقيق مطلب له لديهم كاجازة أو رفع مرتب • لكنهم لا يضايقونه كثيرا بمثل هذه الطلبات فهم مواطنون مجربون لا يلبثون أن يلاحظوا أن جبرينى ليس من وسطاء البلاط •

وعلى مائدة الخدم يحكون له كل شيء يحدث ، ماذا ينشد كولا لدى البابا والامبراطور ، وأنه سيدعو كل الامراء الناخبين الى روما لتستقيم الأمور ويأخذ كل شيء مجراه الصحيح . ويتضح لجبريني في الحال هذا الشيء ، ويتعذر عليه فهم ذاك . ويحكون له أيضا كيف استحم كولا في كنيسة التعميد اللاتيرانية في الحوض الحجرى الثمين الذى عمد فيه الأب المقدس سلفستر الامبراطور قسطنطين قبل ألف عام وطهره بذلك من الأدران ، وكيف أنعم كولا على نفسه بلقب فارس وجعل نفسه يتوج في احتفالات ومواكب عظيمة بأكاليل مضفورة بسبعة أنواع مختلفة من ورق الشجر ، ثم أخيرا بتاج فضى ، ويصغى جبريني الى ذلك في انتباه ، ثم يهز رأسه ويجذب اليه صحفة الخرشوف .

هكذا يشعر جبريني عندئذ بالراحة من كل قلبه . وبعد تبديل الريش لما نسى بيبينو كيف يصيح : « نهارا جميلا طيبا وقدحا آخر أيضا » وعلمه جبريني أن يهتف « ليعش كولا دى ربنزو ! » فهو أيضا يريد أن يظهر عرفانه بكرم الضيافة .

ويتجول جبريني كثيرا في المدينة متنزها ، ويغشى المراعي والحدائق الواقعة خلف الكابيتول ليقنص لبيبينو الجراد والخنافس ويتوجه أيضا الى الحانة الواقعة على مقربة من طواحين التيبر والتى كانت تخص أباكولا .

وكان يعجب في الحانة ببزة جبريني الجميلة ، ويدور الحديث عن مجد كولا ، ويقول سروجى مسن يعرفه جبريني من قديم : « كانت أمه تغسل لنا الملابس ولا جناح عليها في ذلك لأنها كانت تؤدى عملها على وجه حسن ، لكنها أتلفت لى مرة سراويل اذ استعملت ماء مغليا أحمى مما يجب وانه ليقال ان كولا هذا قد ركب في صليب صولجانه روح شيطان لا بد أنها تنفذ له كل شيء ويعنى آخرون انه لم يكن حسنا من كولا أن يأمر باعدام بضعة

من كبا قواده لأنه كان يمكن أن يعيش من ورائهم كثير من الرجال ويتداول الناس المال ، وفى آخر الامر أمكن العيش أيضـــا بين البارونات ٠

أجل ، ولماذا رفع اذن سعر الملح ؟ ويتحدث الناس أيضـــا عن ضريبة جديدة على النبيذ لتغطية نفقات الحرب ٠

ويسمع جبرينى هذا ويسأل عنه بعد ذلك على مائدة الخدم فهنا النبيذ بلا مقابل فلا حاجة الى الخوف من ضريبة عليه ، وحين يتكلم عن الملح ـ اذ يريد على التحقيق أن يبدى أنه يعلم شيئـا من كل ما يجرى فى العالم ـ يضحك أحدهم ويقول : « ان ههنا ملحا كافيا ٠ واذا شئت أفرغت لك كل ما فى الملاحة فى الحساء ! » .

ويدفع اليه هذا بوعاء الملح بحركة قوية مبالغ فيها فينقلب الوعاء ويراق الملح ، ويتأمل جبرينى الوعاء النحاسى مدققا ، انه منبعج قليلا لكنه لامع براق ، ويتناوله راضيا فى يده ، وأمامه القفص المجدول حديثا وفيه الشقفة الفخارية الحقيرة ، وهنا يأتى بيبينو أيضا يرفرف بجناحيه ويدس منقاره بين أعواد الصفصاف ويهز رأسه ، ويعجب جبرينى بفهم بيبينو ويخجل فى نفس الوقت من نفسه تقريبا لأن هذا الخاطر لم يطف بذهنه من تلقاء نفسه من أمد طويل ٠

واذن فهو يتناول الملاحة ويمسحها بكمه ٠ ويصب فيها قليلا من الماء ويضعها فى القفص ، لكنه يأخذ الشقفة القديمة ويلقى بها فى صحفة العظم ٠٠ ويغمس بيبينو منقاره فى الوعاء النحاسى الجميل ويصيح ٠ « ليعش كولا دى ربنزو ! » ويســـود المــــائدة مرح شديد بادى الصداقة ٠

ولا ينقضى على ذلك أمد طويل حتى يستيقظ جبرينى فى بكرةالصباح على ضجة وصراخ وقرع أجراس الخطر فى القصر ،

فيذهب الى النافذة فاذا أناس شاكو السلاح يهرعون من كل جانب وبينهم بارونات يمتطون الخيول ، فيرتدى ملابسه ويوصوص من ثقب باب غرفته فيرى أناسا يعدون فى الأروقة ، موظفين فى البلاط وغلمانا وخدما وأقرباء بعضهم يحمل ربطا أو نفائس • وفى داخل القصر أجانب عنه بالفعل وجرس الخطر ما يزال يدق • ويتعالى الصياح : «الموت لفارضى ضريبة الملح لتسقط ضريبة النبيذ• اقتلوهم ليعش السادة كولونا • لا تسمحوا لأحد بالخروج • كل شىء ملك الشعب • النار • الحريق » •

ويعـــود جبرينى الى غرفته ويلبس حذاءه على عجل ، ذلك الحذاء الجلدى الذى اشتراه من أنانييى ، بينما كانت بضعة أحجار تتطاير عبر النافذة ، ثم يقتطف قفص الطائر وينطلق •

ويسلك طريقه من أجزاء البناء الخلفية ، هناك حيث مساكن الخدم ودور الادارة المنزلية ، وينفذ من الجانب الامامى ومن الدرج الرسمى ومن القاعات الفخمة ضجيج طاغ ، وصراخ عراك وصراخ خوف وصراخ حنق وصراخ موت •

ويخترق جبرينى أماكن مهجورة يسودها السـكون ، فيعدو عبر فناء الادارة المنزلية ، فهناك باب جانبى مفتوح يفضى منه ممر الى بعيد على امتداد جدار كنيسة القديسة مريم فى آراكولى ، ويبلغ جبرينى الباب الصغير فاذا رجال مسلحون هائجون يعدون نحوه فيسقط فى يده ، ويغص الفناء خلفه بالمثل ، وتدق الاجراس دقا شديدا مروعا ويحمل الهواء رائحة الدخان ويتصـايح النـــاس : « الموت للمحامى ، ليعش السادة كولونا » ويحاط بجبرينى •

ويزأر رجل من نقابة القصـــابين : « هاكم واحدا منهم » ، ويصيح وهو يحمل ساطورا : « اقتلوه ، انه يريد الهرب بشىء »•

وترتعد فرائص جبرينى • حقا انه لم يكن يعلم أن المرء يمكن أن يخاف هكذا ، ويضغط قفص الطائر على صدره ، ذلك أنه لابد للمرء من شيء يتشبث به فى محنته •

ويدوى الصراخ الآن وتقوم الجلبة ، فليقم بيبينـو أيضـا بنصيبه • واذن فهو يفتح منقاره ويصيح بأعلى صوته : « ليحيـا كولا دى ربنزى ، ليحيا كولا دى ربنزى » •

لكن جبرينى يسعل بكل قواه ويبقبق بكل ما يخطر له ثم يصيح بين ذلك : « ليعش السادة كولونا » • وهكذا يذهب هتاف الشحرور الوردى دون أن يسمعه أحد •

ويقول أحد من يرتادون الحانة : « أخ ! دعوه فهذا معرفة » ويضحك ثم يقول : « انه لا يخرج أكثر ممـا أدخل ، فاهرب أيها الشيخ ! » •

ويقف جبرينى فى أسفل وهو ما يزال فى ناحية آراكولى ، ويستند الى الجدار ويمسح عرقه ، ويضع القفص على الارض فيغدو بيبينو فيه ويروح وهو يحرك رأسه ويود لو يغمس منقاره فى الماء لولا أن الماء كان قـد أريق بلا ريب • لـكن الوعاء ، الوعاء اللامع الجميل ، قد أنقذه جبرينى حقا •

ويعود جبرينى الى موطنه • يعود هذه المرة على قدميه ، راضيا مع ذلك كل الرضى • وفى موطنه يحتفر الارض ويستخرج النقود ويبتاع النقود ويبتاع ماشيته ثانية واليهـا بضع قطع أخرى • ويفسخ عقد المناصفة فى الغلة ويبقى فائض فوق ذلك ، ويستأجر جبرينى صبيا يتيما طيلة العام •

كان كل صباح يلمع الوعاء قبـل أن يملأه بالماء • ولا حاجة الى أن نقـول أى بريق يمضى حين يغمس الطـائر جناحه الازرق

الاسود المتألق فى أشعة الشمس ثم ينفضه فتتناثر منه القطرات اللامعة ويصيح بيبينو فوق ذلك منذ بدأ تبديل الريش التالى فى مرح زائد : « ليحيا السادة كولونا ! » .

فاذا جاء جبرينى أحد جعل الطائر الوردى يهتف ثم يرى جبرينى الزائر الوعـــاء النحاسى ويأخذ يقص عليه كيف كانت مسألة الملح وسعره .

على هذه الصورة عاش جبرينى عدة سنين أخرى طويلة .

اللعبة الملكية

« Das Koenigliche Spiel »

أسماء الشخصيات :

عبد الله الزغل	Abdallah el Zagal
حسام	Husam
الملك فردينان	Koenig Ferdinand
الملكة ايزابيللا	Koenigin Isabella

في ذات ليلة جلس عبد الله الزغل يلعب الشطرنج في تلك القلعة الصخرية البعيدة التي تشرف على ملقة ، وكان أخوه الملك قد احتجزه فيها أسيرا منذ سبعة أشهر • وكان خصمه في اللعب رفيقا مسيحيا عين له ليؤنسه بوصفه استاذا في اللعبة • وكان هناك عداه ممن يحيطون به رجال حائزون على ثقة الملك يعاملون عبد الله في احترام لكنهم لا يتركونه لحظة وحده ، وكان يقيم بالمكان الآن أيضا عديد منهم يتابع بعضهم اللعب بانتباه العارفين ويتمنى بعضهم انتهاء اللعب وابتداء راحتهم الليلية •

وقد حرك عبد الله تحريكته وترك القطعة التي حركها لحظة في مكانها ، لأنه أراد أن يراود نفسه في امكان الرجوع عن قراره الذي فكر فيه طويلا ثم نهض كما اعتاد أن يفعل بعد كل تحريكة، وجعل يسير في الغرفة الفسيحة جيئة وذهابا وقد ركز نظرته فوق بلاط الأرضية الرخامي ذي المربعات السوداء البيضاء •

وقد قاده طريقه القصير أربع مرات الى المرور بحسام الذي كان يجلس على الأريكة المنجدة بقرب النافذة المقوسة التي لا يكاد يبلغها ضوء المصباح المعلق فوق مائدة اللعب المنخفضة القائمة في وسط الغرفة ، وحسام رجل أبيض اللحية من رجال البلاط عهد اليه الملك مولاى بالأمر والنهي في القلعة وبالمحافظة على عبد الله •

وفي المرة الخامسة بدا كأنما أراد عبد الله أن يقف ، لكنه لم يقف الا في الجولة السادسة • قال : « ارسل الى أخي واعرض عليه

رجائى • ان أخي يريد أن يدع لى أن استدعى هذا الأستاذ أو ذاك من أساتذة اللعبة كما يروق لى ، ومن ثم فهو يبدى نحوى هذا الكرم فى شئون اللعبة على الأقل • وقد لعبت الى الآن كثيرا مع هذا المسيحى • فاذا يسر لى أن أقارن أساليب بعينها فى الهجوم وفى عادات لاعبين آخرين بأساليب هذا المسيحى وعاداته كان لهذا قيمة عظيمة عندى وأنت تعرف أن لى افكارا عديدة فى الشطرنج • »

فأجاب حسام : « ان الملك أخاك قد سمح لك حقا من قبل أن تستقبل لاعبين آخرين • لكنه أمر بأن يتم هذا بعد رضاه • »

فعاود عبد الله جولته ولم يستطع حسام أن يرى وجهه •

وقال الأستاذ : « لقد حركت » •

فجلس عبد الله الى الرقعة وعاين الموقف •

وكان رد حسام ـ ولا نتكلم عن الشطرنج ـ قد حول موقف عبد الله الى مأساة •

فقد كانت رغبة الملك أن يظل أخوه جاهلا أحداث العالم بعيدا عن الاتصال بالعظماء والمحاربين الذين كان يبدو أن الملك يشتبه فى ميلهم الى أخيه ، وعلى كل فقد تنازل له عن زيارة كبار أساتذة اللعبة اياه بقيد ، هو ألا يدور حديثه معهم عن شيء لا يتصل باللعبة وقد نبه على الحراس أن يلتفتوا الى ذلك •

وكان بين اللاعبين الذين جاءوا الى عبد الله بموافقة الملك رجل استماله أنصار عبد الله الى قضيتهم • وفى حياة الملوك كما فى حياة الشعوب حوادث قل ألا يلمح اليها بصورة ملفوفة عن طريق لعبة الشطرنج • وألعاب الشطرنج عند الشرقيين تختلف عنها عند الشعوب المسيحية فى أوصاف القطع التى لا تسمى أثمنها الملكة بل الوزير • وقد أبدى اللاعب الذى استميل ـ أثناء اللعب بضع

ملاحظات فتلاقت نظرة عبد الله بنظرته ففهم أن هناك أخبارا له ، وقد علم أن الملك مريض وأن الفصل فى شئون الدولة أصبح فى يد الوزير أكثر من ذى قبل .

وباهى اللاعب بأستاذ فى اللعب من معارفه يلم بشسطرنج المسيحيين أيضا أولئك الذين لا يلعبون بمـــائة وثمان وعشرين خانة ، بل فقط بأربع وستين ، ثم ان لهم قواعد وقطعا أخرى . ولابد أن يهم عبد الله على التحقيق أن يعرف هذا النوع من اللعب. ففهم عبد الله قصده وأنهى الى أخيه أن يســتبدل له بخصمه فى اللعب الى ذلك الحين هذا الأستاذ وقد جاء وأتى معه بلعبته هو .

وكان لهذا الأستاذ طريقة ماهرة اذ يخلق على الدوام مواقف متشابهة ويشير الى أهمية هذه المواقف فلم يلبث عبد الله أن علم أن الملك فردينان سيد أراجون وزوجه الملكة ايزابيللا سيدة قشطالة استأنفا الأعمال العدائية التى كانت قد انقطعت . واقتضى الأمر الكثير من الحيــل ليوهموا الحراس الذين كان فى جملتهم عليمون أيضا باللعبة أن كل هذه الحوادث انما تتبع جميعا فى المبـــاراة الطبيعية ، الدائرة بين خصمين فى الشطرنج . فالهجمات التى كان أستاذ الشطرنج يجعل ملكته تشنها على الدوام على احدى الطوابى دون أن يكون لهذا فى ســياق اللعبة ما يبرره كانت تنبه عبد الله الى حادث نشوب حرب من هذا القبيل . فكان عبد الله يهمل تأمين الطابية لانه كان يريد أن يرى هل يستولى عليها الآخر ، واستولى عليها الآخر وهو يتحدث عن الطابية الشرقية . فتبين عبد الله أن حصن الحمى قــد وقــع فى أيدى المسيحيين . وكان هو نفسه قد صمد فيه بعد أن فرض عليه الحصار عدة مرات قبل أن يسلبه أخوه حربته ليستطيع أن يشعر بأنه آمن على عرشه .

كانت هذه هي الرسالة الأخيرة التي وصلت الأسير . وكان العبد المسيحي هو الذي عينه الملك مولاي نفسه سميرا له لا كانسان بل كصاحب براعة فحسب في لعبة الشطرنج .

وقد حدا عبد الله أمل دفعه الى تصريحات كالتي كانت أحاديثه الخفية مع رسل الشطرنج تمهد لها .

قال الآن : « كش الوزير . أو انك معتاد أن تقول الملكة ؟ »

فأجابه العبد هادئا : « ان تسمياتكم معروفة لدى معرفتي بالتسميات المسيحية » . قالها دون أن يبتعد بعين الفكر الرصينتين عن الرقعة .

ثم قال : « كذلك نقول العذراء على اسم العذراء مريم » .

فصاح عبد الله : « كش العذراء » . وكأنما مسه هوى مفاجىء ثم ابتسم على الأثر ابتسامة مرة لأن مجرد كلمة قد كفت لأن تنسيه جدران القلعة وقد كان محتجزا في لعبة رقعة ، محتجزا عن جهاد قومه وعشيرته ضد أتباع العذراء وابن العذراء .

ونهض وعاد يخترق الغرفة مارا بالحرس مرة بعد أخرى فوق البلاط ، فاذا أغمض عينيه تمثل بلاطات الشطرنج فينحسر فوقها الأبيض عن الأسود .

وانفتح الباب ، ووقف في تيار الهواء تابع خاص . من أتباع الملك فخطا عبد الله نحو الداخل ثلاث خطوات عجلى ثم وقف ، وخطا الخطوة الأخيرة نصف خطو وهو يجر قدمه اليسرى جرا وئيدا . وهب الحراس الجالسون في اجلال ، وتنبه حسام ونفى عن نفسه الوسن أما المسيحي فظل وحده مكبا فوق الرقعة .

وانحنى التابع انحناءة مقتضبة يكاد لا يكلف نفسه مئونة التحية بشبك الذراعين .

قال : « أنى أحمل اليك رسالة يا عبد الله . فهل تريد أن تسمعها على انفراد أو في حضرة هؤلاء الرجال ؟ » .

فسأل عبد الله : « وهل تبقى خافية على هؤلاء الرجال ان أنا سمعتها وحدى ؟ » .

فأجاب التابع : « كلا » .

قال : « اذن أبلغ ما كلفت به » .

فسكت التابع برهة ثم أخرج شيئا أبيض من منطقة زناره .

قال : « يا عبد الله ، لا تراع ، فان النبى أيضا كان لابد أن يموت ، لقد أعطانى الملك أخوك هذا الحبل لك » .

وتلت لحظات لم يحرك فيها أحد ساكنا ، اللهم الا المسيحى الذى رفع وجهه عن رقعة الشنطرنج الى التابع فى دهشة بطيئة كأنما أدرك الآن فقط رويدا رويدا أن شيئا ما اعترض مجرى اللعب .

وتحول عبد الله ، ولم ير أحد وجهه ، وارتدت نظرة العبد المسيحى الى اللعبة ، وجعل المسيحى يمد يده المتجعدة المعروقة الزرقاء فى سواد كأنما يريد أن يحرك قطعته ، لكنه تركها تسقط ثانية ، وبقى من غير المؤكد هل كان غير واثق تماما من التحريكة التى كان بسبيل اتخاذها أو أنه تبين أن تحريكته أيا كان نوعها لابد أن تكون عملا غير لائق بل فضيحة ، فكان يجاهد الاغراء فى اتخاذها مع ذلك .

وذام هذا الحظة ، وكان عبد الله الزغل ما يزال واقفا ، وكانت تحوم حول القنديل مخلوقات ليلية تئز ، مختلفة الأحجام ، تصطدم أحيانا واحدة منها بصوت مكتوم بمشكاة القنديل .

والتفت عبد الله ثانية ومد ذراعه اليمنى بيده المفتـــوحة فى كبرياء كأنما يتلقى قفازه من وصيفه ، وتقدم منه التابع ووضع فى يده الحبل الملفوف وهو ينحنى .

وسمع وقع أحد حجارة الرقعة وهو يوضع بشدة .

وقال العبد : « لقد حركت . »

فنظر اليه حسام غاضبا وابتسم عبد الله يحدوه تساهل حافل بالسخرية . وقال للتابع : «لست أعلم أى نوع من الأوامر تلقيت ؟ هل سنمح لك أن تمهلنى ؟ انى أود أن أنهى اللعبة » . وأشار الى العبد برأسه وهو ما يزال يبتسم وأضاف الى ذلك قائلا : « انك ترى بنفسك أننا لا يجمل بنا أن نسىء اليه » .

فأجاب التابع : « أعتقد أنى أستطيع أن أتحمل تبعة ذلك . العب على راحتك فلن أتعجلك . وانى لأعلم أنك لن تطيل اللعب على غير جدوى ، فلن تكسب من وراء ذلك الا ســاعة أو اثنتين ، وماذا عسى أن تنفعك هاتان ؟ كذلك يمكن أن يضر هذا بسمعتك في الشيطرنج » .

وجلس عبد الله الى الرقعة . وفقدت الحجارة والخانات والابيض والاسود حدودها المحددة . وحدق عبد الله فيما تخيله من تمائج .

وفجأة انقشع الضباب وانجلى ميدان الشطرنج لنظرته طائعا .

ووقف الجيشان أحدهما قبالة الآخر وكان جيش عبد الله هو المهاجم فتبين احتمال النصر ، لكنه تبين أيضا ما حمله على ارجائه لقد تبين له أن حياته الآن هي هذه اللعبة ، ولم تعد مغزى باردا أو بديلا هزيلا ، فهنا يدار القتال وينشد النصر ، هنا وجب أن ينهى الأمر •

لقد عاش عبد الله حياة كل حجر من حجارة الشطرنج فتبوأ العرش كملك • بعيدا خلف صفوف المعركة ، محتجزا فى أبهتـــه الصارمة فى ثياب ذهبية جافة يكاد ألا يتحرك ، لم يختر لشيء غير الاستمتاع بالتكريم فحين يسقط تعلن هزيمة شعب فى حين يبقى النصر من نصيب وزيره الذى وجد ليخطط ويتصرف ويهاجم الأعداء ويبادر الى اسعاف الجيوش المهددة ، ثم يبقى مع ذلك الثـــانى من خلف صورة الملك المعبودة البعيدة عن المعركة • كان عبد الله هو من يلى القائد الذى يقيس الميدان فى مجرى منجرف ليؤمن النقطـة المهددة بالخطر ، كان قبل الحرب الذى يحمى الملك كحصن وكمتراس حى مطأطىء الرأس يهاجم فى المقـــدمة وهو ينهج ، عاجز عن أية حركة غير الحركة المستقيمة • كان عبد الله الراكب الذى تتقيـــد ركضات جواده بالعدد والاتجاه لأن عليه أن يدفع ثمن سرعتـــه بالارتباط بمقتضيات الطبيعة الحيوانية ، كان عبد الله ككل فرد من الرجالة الذين يسيرون متثاقلين ممن ولدوا للفلاحة فلا يتبينون أمام أقدامهم شيئا غير قطعة الحقل الصغيرة والذين قدر لهم أن يموتوا بلا اسم وبلا رثاء ، لكن بينهم واحدا وهب قلبا آخر فهو يشـــق طريقه حتى آخر صف من صفوف الأعداء فى المعركة ، يرتفع فوق الطبقة الدنيا وينال هيبة الوزير • ان دنيا الكفاح التى تتطـاير بالشرر تتحرك ، لكن اللاعبين يجلس أحدهما قبالة الآخر يحركان ببراعة فهما يعينان قرارات الوزيرين ومفاخر الملكين ومخازيهمـا ويحددان كل خطوة يخطوها المحاربون كل على حدة •

وقد تدبر المسيحى نقلته وتخطى عبد الله الخانات التى فصل فيها بين الأبيض والأسود دون هوادة كما يفصل بين الحياة والموت •

ووقف عبد الله أمام تابع الملك الذى كان يدير الحديث مع حسام همسا تتخلله فترات من الصمت •

قال : « لعلك لم تنس أنى آثرت فى كثير من أحداث العالم ، وقد أثرت فى • وقد رتب أخى أن أظل جاهلا بكل الوقائع ، لكنه الآن لم يعد يخشى أن استغل علمى بهـنـا فى الاضرار به ومن ثم أرجوك أن تخبرنى فى ايجاز ما هى ظروف الملك والمملكة والأعداء ، ان أخى سيقر هذا ولا حاجة بك الى أن تخفى عنى شيئا يعلمـــه هؤلاء الرجال الآخرون على كل حال أو يصل غدا دونك الى أسماعهم وتأكد أنه لن يصل شىء الى سمعى بعد اليوم » •

فتشاور التابع بالنظرات مع حسام ، ثم روى ما وقع لحصن الحمى ، وهو ما حدث بلا ريب من بضعة أشهر مضت واتصل علمه بعبد الله وكان التابع مؤدبا اذ نوه هنا بفضل عبد الله في الدفاع عن الحمى واستطرد فى روايته وحكى صورة لحالة مضطربة متضاربة كما تعبر عنها غالبا فترات الراحة بين المعارك وتحاشى التابع أن يصدر حكما على الأشياء وقص أن الملك فردينان والملكة ايزابيللا أبديا استعدادهما للمفاوضة •

فسأل عبد الله : « وماذا سيطلبان ؟ » •

فأجاب التابع : « يقولون جزية ســـنوية ونزولا عن بعض المناطق وتقديم رهائن والسماح باقامة الشعائر الدينية المسيحية ومحاولة الردة الى المسيحية فى أراضى أخيك » •

وسأل عبد الله : « وأخى ؟ » •

قال : « ان أخاك أصيب من عشرة أيام مضت بالفالج » •

ثم تردد التابع لحظة • لكنه لم يتحرج من أن يصرح بشيء كان يعلمه كل أحد • فقد أصيب الملك مولاى بالفالج فى المسجد وكان كثير من المؤمنين حاضرين •

ولف عبد الله الحبل الأبيض حول أصابعه ومعصميه ثم تركه ينزلق بعنف من يديه اللتين سرت فيهما الرعدة فجأة •

واستطرد التابع متعجلا : « وسرعان ما استرد الملك مولاى وعيه واستعاد كذلك طواعية اعضاءه وطلاقة لسانه • ومع ذلك لم يخل اطباؤه الخاضون من قلق عليه ، وكان الملك أيضا قلقا على ولاية ابنه الصغير على الأخص » •

فسأل عبد الله : «وهذا القلق هو سبب الأمر الذى أصدره ؟»

فأحنى التابع رأسه •

وقال العبد : « لقد نقلت.. » •

فتحولت أفكار عبد الله عن هـذه اللعبة العجيبة وعادت الى الرقعة السوداء البيضاء رقعة حقيقته التى انتظر عليهـا هجوما من الوزير الخصم •

وقال للتابع : « شكرا » • ثم توجه الى مائدة اللعب •

ونقل النقلة المضادة وهو واقف ، ثم توجه الى النافذة •

وكانت النافذة المؤمنة بالقضبان تتجه نحو الشمال والليل ملبدا بالغيوم يعلوها هلال قمر جديد يبرز نوره حدود كتل الجبال، وقد طالما تأملها عبد الله حتى ليعتقد انه يتبين كل قمة فيها، وتناهى نقيق الضفادع من البركة ، ولطمت وجه عبد الله الأسراب المجنحة المتهاوية التى استهواها القنديل ، وسمع صياح ديك ، وقطع الديك

صنياخه فى منتصف الصيحة الثانية خجلا فقد كان ما يزال على شروق الشمس ثلاث ساعات •

وجهد عبد الله فى اكتشاف نجوم يعهدها ، نجوم لا يصيبها تحـول • وأخيرا لم يعد يعرف هل رآها بعينه أو توهم أنه عرف أمكنتها •

وسمع عبد الله الباب يفتح ورأى واحدا يدخل • ولما كانت مواقع النجوم تلوح له أهم مما سمع لم يلتفت وراءه •

ودار حديث خافت ثم بارحت المكان عدة خطى •

وسمع عبد الله العبد المسيحى يحرك قطعة ويلقى أخرى فى الصندوق اذ سقط أحد العساكر • ولم يضع به شىء ذو بال ، وسواء أكان جنديا أم قائدا فالقتيل يلقى به فى الصندوق ، واللعب يأخذ مجراه ، والنهاية خافية ، وأخيرا ينسى باللعب القتيل وتدار ألعاب جديدة وتوضع شعوب جديدة على الرقعة • فكل من قدر له من قبل تضحية فانية أو ظفر فهو فان مع ذلك ، ولكل ملك ووزير ومن يليهما فى القيادة مع ذلك ، ولكل واحد من العامة ، لكل من هؤلاء حياته ومكانه وحقيقته له هذا القدر الضئيل من أنه لا يعوض، مثله فى ذلك مثل هذه النجوم التى لا تراها العين •

وقال المسيحى : « لقد نقلت » •

فارتد عبد الله بقوة عن النافذة • فاذا بحسام والتابع الخاص قد اختفيا من الغرفة •

فجلس عبد الله ، وتبدت له رقعة الشـــطرنج كتلك السماء الليلية البادية خلف مربعات القضـبان ، وكان ما يزال يفـكر فى النجوم التى كان يجهل الغاية منها كما يجهل الغرض من اللعبـة الأرضية ، ولم يلبث أن نفى عن نفسه مثل هذه الأفكار ، لأنه كان

عليه أن يوجه حركات القادة وهيئات الجيوش ، وشعر بأن تصرفات الناس والشعوب توجه الى أغراض لا يعرفها الموجه نفسه ويجب ألا يسأل عنها ولا يدور أبدا قتال أيضا حول غاية وانما يدور دائما حول النصر ٠

ومد عبد الله يده ليحول « الرخ » فسمع أصواتا فأدار رأسه نحو الباب ، وبقيت يده ممدودة تؤدى الابهام والسبابة اللتان أراد تناول الرخ بهما الحركة في الفضاء من دون وعى ٠

وعاد حسام والتابع ثانية ومن خلفهم ثلاثة رجال شاهرين السيوف تتصبب وجوههم المحتقنة عرقا ٠

وبقى الباب بعد دخولهم مفتوحا ، وسمع فى الممر صليل وكلام ٠

ولم يكن عبد الله قد تبين الرجال بعد ، حين جعلوا يصيحون ويختلط صياحهم خشنا : « لقد مات الملك » ٠ ـ « الوزير مقبوض عليه » ٠ ـ « يا عبد الله الزغل » ٠ ـ « الى ملقة » ـ « يجب أن تكون ملكا » ٠

فنهض عبد الله متباطئا وأصابعه المقوسة أعضاؤها الظاهرة تعتمد على المائدة وتحمل عبء الجسم النامى ٠

ومد عبد الله يده اليسرى الى قلبه الذى كان يبدو خفقانه فى تدافع أنفاسه السريعة وأتت اليمنى بحركة كأنها تبغى تهدئة أحد٠

وخر الجميع وبقى العبد المسيحى وحده جالسا الى المائدة

وتوجه عبد الله الى النافذة وجعل يتنفس ، فلم ير لا جبلا ولا نجما وقد كان لكل موقعه ٠ وعاد أدراجه الى وسط الغرفة وجعل يهز رأسه مغموما ٠

ولاحظ أنه كان قد ألقى بالحبل من النافذة .

وسمع من ينادى من الممر : « يا عبد الله الزغل » .

فابتسم عبد الله هوناما وقال : « دعونى أكمل اللعب ثم أركب معكم » .

وجلس أمام المسيحى ، وصمت الجميع اجلالا . ونقل عبد الله .

وفى أثناء اللعب أومأ بغتة إلى التابع ليوافيه الى جانب مقعده المنجد ، وخلع كل خواتمه من أصابعه وتناول كلتا يدى التابع وألبسه قطع الحلى دون أن ينبس ببنت شفة ودون أن يرفع بصره اليه ، بل دون أن يحول عينيه عن رقعة الشطرنج .

وحركت خمس نقلات أخرى . ومات ملك المسيحى .

فنهض عبد الله وقال : « انك حر . عد الى أهلك وبلغهم رسالتى . كش الملك . كش الملكة . كش العذراء ! » .

عروس الدب

« Die Baerenbraut »

اسماء الشخصيات :

ليزو	Lisu
راعي الكنيسة	Pastor

قديما أيام أن كانت ماتزال فى كورة تيربكلشن ذببة كانت فتاة تعيش بين القرويين لامكان لها فى هذا العـالم على حد تعبير الناس ، كانت الأم عزبة وماتت نفساء . وقيل ان الأب كان جنديا ، أى جندى ، سويديا أوروسيا أو سكسوينا أو بولنديا ، علم ذلك عند الله ، فقد مر الكثيرون بالبلاد ، وكان القرويون خليقين بأن يهملوا الطفلة ، لأن الوقت كان قاسيا ، لكن راعى الكنيسة أمـر باستدعاء شيخ القرية وأنحى على ضميره المسيحى باللائمة ، وكانت عصا ركوبه الى ذلك موضـوعة أمامه على مكتبه . وبذا بقيت الفتاة فى رعاية القرية . ففى كل سنة تنتقل من مزرعة الى مزرعة أخرى ، بدأت بأيسر القرويين حالا ، لأن الانسان فى أول عهـده بالحياة لا يصلح الا للأكل ، لكنه حين يبلغ الرابعة من عمره يمـكن أن يستخدم فى الحراسة اذا ما أبطله المرء عادة اللعب . وهذا يفهمه القرويون جيدا .

كانت الفتاة تسمى لينرو ، فلما بلغت السادسة من عمرها انتقلت الى بورى ذى الرجل الشوهاء ، وكانت امرأته تسمى ذات الرجل الشوهاء نسبة الى زوجها ، وان كانت نفسها معتدلة القدمين تستطيع أن تعدو كالذئب ، وكان زوجها يرى أيضا أن لها صوتا كعواء جراء الذئب ، وكذلك كان هـذا رأى لينرو ، ولينرو قد نسيت الخوف ، فلا يعرف الخوف من جاوزت علقاته الحد ، لكنها كانت تخاف ماريه ذات الرجل الشوهاء

وكانت لينرو تقعد فى الغـابة تحيك لمارية ذات الرجل الشوهاء بينما ترعى أبقارها ، وكان من العسير عليها أن تقسم وقتها ، لأنها هنا لم تكن لها بعد مفاهيم تجارب ، كما يكون أيضا للحيوان تجارب ، كانت تقضى أطول مما يجب من وقت فى جنى التوت وأقل مما ينبغى فى الحياكة ، فتضربها مارية مساء بعقافة النار ، فاذا أطالت فى الحياكة أكثر ممـا يجب وأقلت مما ينبغى فى جنى التوت بقيت جوعانة ، ذلك أن كسرة الخبز التى كانت تتلقاها لم تكن تكفيها ، وكان هذا الخبز أيضـا معجونا بالتبن المخروط ولحاء الشجر المطحون . ولاشـك أن شيخ القـرية لم يكن يأكل غير ذلك .

وفى أيام الآحاد كان عليها أن تخفر البيت وترعى الأطفـال أثناء غيبة ذى الرجل الشوهاء وزوجه فى الكنيسة ، فكانت ليزو تربط أصغر الأطفال من رجله برجل المائدة كيلا يؤذى نفسـه وتجرى الى البحيرة اذ كانت سمعت أن الغرق فى البحيرة لايستغرق طويلا وأن حوريات البحيرة يعطين الغريق خبزا من الدقيق الصافى، لكنه فى البحيرة كان يرسو زورق تجديف يجلس فيه كاتب السيد المحترم يصطاد ، فنادى عليها أولا بالألمانية ثم لأنها لم تكن تفهم اللغة التى يتكلمها سيد الناحية بالأستونية ، نادى عليها يمنعهـا أن تحاول الاستحمام حتى لا تعوق بذلك صـيده . فعادت من ثم أدراجها وفكت الطفل وارتمت تعول وهى تنشب أصابعها وأسنانها فى فروة الخروف القديمة التى اعتاد القرويون أن يناموا تحتها فوق دكة الموقد .

فكرت فى ذلك وهى تحرس الأبقار ، وفكرت أيضا فى أنه قد أريد بها مالم يرد بسائر من تعرفهم من البشر ، لكنها لم تفكر كيف يذكر عادة أولئك الذين يتحدثون منذ الصغر كثيرا عن كافة أنواع

الحوادث مع بعضهم بعضا فيتبعون فى تفـكيرهم نظاما مأثورا ، بل لأن أحدا لم يتكلم معها قط الا أن يصدر اليها أمرا أو يسلقها بلسان حاد ، ولأنها كانت دائما تقريبا وحدها فى الغابة هكذا كان تفكيرها أيضـــا لا يتجاوز شيئا كسمكة السلمون ، قفز من النهر ثم عود اليه ، كما أن سمكة أخرى قفزت ثم عادت فاختفت أيضا ، كذلك هى لم تخبر فيما عدا حراسة البقر والحياكة وتناول الخبز وتلقى الضرب شيئا ما ، وهـكذا لم تختلف كثيرا عن الحيوان لأن الحيوان يتوق الى حالة ليس فيها ما يهدده ، لكن هذا الذى دفعهـا كانسانة سوتها الطبيعة فوق مستوى الحيوان لم يتح له الظهور فيها بعد كما ينبغي ولم يمكن أن يثبت فى وعيها ·· لهذا كانت تألف الحيوان جدا دون أن تتحبب الى كل خروف أو كل بقرة ، كما يفعل أطفال السادة أحيانا على التحقيق ·

ولم يكن ممكنا أن تخشى أبدا حيوانا أو ذئبا كما تخشى مارية صاحبة الرجل الشوهاء ·

وبينما كانت تحشو فمها بالتـــوت على عجل كما تفيد كل الفـــائدة من وقتها بدا لها كما لو كانت احدى البقرات قد تولاها القلق ، فنادتها ليزو بتلك اللغة التى كانت تكلم الحيوان بها · ولم تكن تفكر فى كلمات · وألفاظ أو كانت سمعت كلمات أو ألفـاظا من الغير ، بل كانت تجدها بالبداهة فى نفســها ، فخارت البقـرة قليلا ، وركضت خائفة هنا وهناك ، وجعلت تتجه الى هذه الناحية أو تلك · وفعلت الأبقار الأخرى فعـلها وأرادت ليزو أن تقفز ، لكنها تريثت قليلا ، لأنها لم تكن فرغت من التهام التوت ، وهنا رأت البقرات تعدو وسمعت خوارها فهبت مذعورة وفمهـا ملىء ، فوقع شىء عليها كالظل الثقيل الاسود الدافىء ، أجل كان دافئا وقاتما تماما ·

وحدثت فى هذه الفترة أشياء من كل نوع دون أن تستطيع ليزو تبينها أو فهمها ، كذلك لم تستطع أن تقيس فى أى الأوقات أو بأى تتابع هذه الأشياء معها ، ويجب أن نقدر فى الحق أنها لم تكن مكلفة بأن تقدم لنفسها حسابا كما يفعل سائر الناس ، فقد لامس وجهها شىء رطب وكانت هذه الملامسة خشنة دون أن تنذرها فى تلك الأثناء بشىء من الأذى . ثم هب عليها نفس دافىء كالذى عرفته من أفواه الأبقار ، هب عليها نفس تنبعث منه رائحة الغابة والعشب النضير . واحتكت بها غصون وأشواك أيضا . فأحست شقوقا فى جيدها وجراحات ودما يسيل ، ولضغطا يعصر ونعومة خيرة تسرى فى أعضائها تعود فتتبدل ألما فيما لاح لها ، وخيل اليها مرة أنها تسمع قرقرة صاحبها عندها عطش وحركات زحف وبذل واطفاء وظمأ . وكان هناك أيضا دمدمة وملامسات لا عدوان فيها . كانت خبراتها اذ ذاك من هذا النوع وكانت تلك الخبرات تخلق ذكريات تالية اذا جاز الكلام هنا عن ذكريات . كان بينها أيضا لفت وقرع وأقراص عسل بل خبز . وكان فوق ذلك يداخل تصورها حيوان تعلق دمه الدافىء وتأكل من لحمه النيىء .

وزالت الآلام وانقشعت أيضا الظلمة التامة ، اذ كان هناك موضع يسقط منه النور وان كان قليلا ، لكنه كاف لأن تتبين ليزو أن بجانبها كتلة مرتاحة نافخة ترقد ، فلم يدهشها أن هذه الكتلة كانت دبا وسرها أن تمسح بيدها جلده وتهرشه وتحادثه كما كانت تحادث الأبقار .

وتكرر هذا ، وتكرر أيضا كل شىء خلاه ، الأكل والشرب ، وكانت هناك الظلمة الكثيرة والضوء الضئيل والدمدمة والضبح والدفء الطيب الذى كان ينبعث من الدب حين كانت ليزو تلتصق بجلده وتهرشه . وكانت تؤثر أن تفعل له هذا فى الجزء الأمامى

من رقبته حيث توجد في دغلة الفروة بقعة بيضاء تمتد منها خطوط صغيرة الى الجانبين .

كانت ليزو شبعانة متدفئة ، ولم يكن ثم ما يهددها من فترات البرد والجوع التى كانت تبدو لها وجيزة وكان لها أن تنام كلما راقها ، فلم يوجد من يقول لها كلمة تسىء اليها . ولم تكن بحاجة الى أن تحترس من أحد أو تفر منه . ولم تكن تعى مر الزمن ، ذلك أنها كانت تعيش فى وفرة رغبات مجابة وحاجات مقضية كما يعيش الجنين فى بطن أمه ، والرغبات والحاجات كانت عندها ماتزال واحدة ، فاذا كانت وحدها عرفت أن الدب القادر سيكون ثانية عندما يجلب لها فى الوقت نفسه الغذاء ودفء الفروة والجسم وكل راحة شكرتها له بذلك الحب الذى يشكر به على الراحة ويتعلق له الكلب بسيده .

وعبثا أراد الناس فيما بعد أن يستخلصوا من الفتاة هل منعها الدب آنذاك بأية صورة من الصور أن تبارح المغارة وذلك بأن دحرجوا على سبيل المثال حجرا أمام المدخل ، كما عرف الناس من حكاية انسان ذب أو دب انسان كان يحلو لشيوخ القرية أن يرووها استنادا الى ذكريات أجدادهم . فقد قيل مثل هذا ــ ويقال ان راعى الكنيسة كان يراه ــ عن أنه لامحل للتفكير فيما يتعلق باقامة الفتاة فى مغارة حقه مما يأوى اليه الدب ، بل لعل الأمر يتعلق بركن من تلك الأركان التى يتسلل اليها كتلك التى بناها القرويون أو الفارون أثناء الحرب الطويلة الأمد فى الغابات الشاسعة أو بالأحرى بشيق حجرى من شقوق الينابيع ثم غادروها فيما بعد ربما ــ وهذا ماراه القرويون ــ كان لركن التسلل هذا باب من النوع الذى ينقفل حين يمس الدب عند مبارحته المغارة تحت ضغط جسمه الضخم موضعا بعينه وهو لا يعلم ، ذلك أنه بدا لهم من المحال الاعتقاد بأن ليزو ثابرت على البقاء مع الدب من تلقاء نفسها ، وقيل كذلك أن

الفتاة وقعت بالتأكيد هناك على بعض المواد الغـذائية التى كانت مخبأة منسية كجبن الضـأن واللحم المملح الذى كان يحفظ فى لفائف من القماش المقطرن ، صونا له من الدود والفساد .. ذلك أنه لم يكن معقولا أن الدب كان يجلب الطعام للفتاة كما تفعل أمهات الحيوان لصغارها بيد أن « أولو » القروى السقاء ذكرهم بالدب الذى جاء فى الفجر الى المخبز وأثار الرعب الشـديد فى قلوب النساء ، وكان « أولو » يملك بندقية ـ اذ قيل انه ذبح مرة فى الغابة فارسا هاربا ـ فأطلق النار على الدب ، وتخلف من دمه أثر فى الكلأ .

وذات مرة رجع الدب يهر فلاحظت ليزو أن كتفه مبتلة بسائل يجرى . لكن كان هناك أيضا رغيف ساخن ، فلعقت ليزو السائل الدافىء على جلده ، وجعـلت فى تلك الأثناء تقضـم الرغيف الساخن . ولما لم ينقطع السائل وازداد على الدوام اضطرب الدب وهو يئن مزقت ليزو قطعة من أسـمالها وربطت له كتفه ربطا محكما ، ولا يبعد أن يكون الخبز القروى الساخن قد نبه ذاكرتها الى جرح رأت أهل القرية يضـمدونه ، وقد بقى الدب راقدا فى المغارة برهة أطول من المعتاد ، فلما خرج فى النهاية أضاع الرباط، لكن الجرح لم يعد يدمى

وأحست الفتاة ذات مرة أنه لابد أن تكون غيبة الدب قد طالت بصورة غير عادية وقدرت ذلك بما أحسته من جوع شديد بعد أن استنفدت كل ما تبينته أو وقعت يدها عليه من غذاء حولها، واشـتد بهـتا الجـوع وأبدت ليزو فى الوقت نفسه خوفهـا الخفى من شىء ما يمكن أن يغير نظام الأشياء بالنسبة لها ، فقد بلغ من أمرها أن خيلت اليها قلة الحيلة وخيل اليها الضيق الغابة

بعشى غرابها وقوتها بل خيل اليهـا مزرعة ذى الرجل الشـوهاء بأرغفتها وصورها ٠

وبغتة رأت الفتاة نفسها عرضة لضوء أليم ، ذلك أن الشمس كانت طالعة فى الخارج من خلال أغصان البتولا الجرداء التي تقطر ماء ، وأن الثلج الذائب كان يبرق حتى انها اضطرت الى أن تغمض عينيها ، لكنها فى الوقت نفسه شعرت بضعف شديد فى ساقيها ، وهكذا جعلت تجر نفسها خلال الغابة المقفرة من الغذاء الى الأرض لكن السير فيها كان يتعذر عليها وقطع الجليد تتكسر تحت خطوها وماء الثلج يبقبق ودجاج الغابة عليهـا يزعق ٠ لكن فيما خلا ذلك كان كل شيء ساكنا قلها أن تصرخ مابدا لها ٠

وتلمست طريق العودة فلم يـكن ثم طريق عودة وأقبلت العتمة ثم لم تلبث أن جن الظـلام ، وقبعت عند كتلة حجرية فى سكون الريح ، ودعكت جميع أعضائهـا بالثلج لتقاوم التجمد ، وهكذا مضى الليل فى بؤس ، وفى الصباح الباكر سمعت أجراسا تدق ٠ وتبينت القرع لناقوس كنيسة تيريكلشن ، فنهضت وأرادت أن تتبع الرنين ٠ ولأن قواها كانت قد وهنت وكان عليها من جراء مياه الربيع المتجمعة فى الأرض أن تسلك طرقا ملتوية كثيرة فقد احتاجت الى وقت طـويل مضن حتى خرجت من الغـابة وبلغت الكنيسة ٠

وكانت السوق العـامة تقع قبالة الكنيسة وتقف عندها مركبات الفلاحين فى صف طويل مربوطة الى مربط العربات وتبينت حصان صاحب الرجل الشوهاء ، الأبيض العجوز ، فاعتلته وزحفت منه الى دريس العربة وغابت عن الرشد ٠

واستفيقظت على الهز والصياح فرأت وجوها تحملق فيهـا ، وكانوا أكثر مما أمكن أن تحصى ٠ وكانت مارية أيضا بينهم فلـم

تلبث ليزو أن تذكرت عقيفة النار ، ثم اذا صوت مرتفع عميق ـ كان الرجال يرفعون له قلانسهم ـ يطرق سمعها فلم تعد الفتاة تسمع أو ترى شيئا بعد ذلك فترة طويلة ٠

وتذكر راعى الكنيسة الفتاة اليتيمة مرة أخرى فأسف أنه لم يهتم بليزو فى الأعوام الأخيرة ٠ لكن كيف كان ينبغى أن يفعل هــذا وهو شيخ طاعن فى السن ٠ وقد شنق القوزاق زميله فى هالنبرج ، ولم يسع راعى الكنيسة الا أن يؤدى مهامه الى جانب وظيفته ويقطع لذلك مالا يحصى من الأميال المربعة ٠

وأمر فى الحال باحضار ليزو الى الأبرشية وارقادها على زكيبة من القش واحكام غطائها ٠ وأمرت زوجة القسيس بعد ذلك بغسلها واعداد شراب ساخن لها ، لكن القدمين دهنتا بالمرهم وربطتا ، وكان لابد أن تطعم كما يطعم الطفل الصــغير ، ذلك أنها فى البدء لم تستطع أن تستبقى فى معدتها شيئا مطبوخا ، وقد خشيت زوجة القسيس أن تموت كالأرنب الصــغير واستردت ليزو قواها مع الزمن ، وباتت تأكل كما يأكل الانسان وتلبس كالانسان وتجيب على نحو انسانى اذا ما خوطبت ، ذلك لأنها تعلمت أن تسمى بعض الأشياء بأسمائها وكانت من قبل لاتعرفها ٠ ويقول الناس أنهــا أصابت حظا عظيما وانها جاءت الى الأبرشية عن طريق مغــارة للدببة وأن القسيس سيتكفل أيضا فى حياته بأن يجد لها زوجا صالحا ، فكاريا أو الجيرا ، ويســاعد فى جهازها ، وآخرون لم يصدقوها وكانوا يرون انها وقعت على بعض « النوز » واختلطت ببعض النهابين من الجنود ، لكن الجميع كانوا ينهالون عليهــا بالأسئلة ، وكان الأطفال يشيعونها بالصــياح : « عروس الدب عروس الدب » !

وذات مســاء جاءت ليزو فى أواخر الخريف من الحظيرة تريد

أن تجلب ماء من بئر المزرعة فاذا بالسيد المحترم يقبل راكبا في سترة صيده المرقعة ، وقد رأته في العتمة يخرج مع القسيس من باب البيت فناداها القسيس اليه وكلفها أن تحكي لسيد الناحية عن عهد اقامتها بمغارة الدب ، وكان السيد يهز رأسه أثناء حكايتها ويضحك مزمجرا ويقول : « كذا ، كذا • » أو « من يعلم !؟ » ثم أعطى القسيس في النهاية قطعة نقود نحاسية ليدخرها للفتاة هذا الى أنه - على قوله - لايعرف أن دبا أطلق عليه النار في ناحيته في تلك الأيام ، لكنه ما يزال ثمة جنود يجوســون خلال الديار ويحملون البنادق ولا يحفلون بقوانين الصيد ، فلم يكن شيء يعرف على وجه الدقة •

ثم أشار الى مجموعة في السماء الزرقاء المعتمة فوق سطح الأرقطيون وقال وهو يضحك ضحكة من انحرف مزاجه : هذا هو الدب الأكبر ، انظرى اليه ، فلعلك نزلت عليه ضـــيفا • وحين تكبرين بما فيه الكفاية فلربما تستطيعين أن تهرشي له مرة أخرى على رقبته •

فلم تفهم ليزو هذا جيدا ، وركب السيد ثانية وانصرف ، وتبعه القسيس بنظرة وقال لليزو : « ليصادف الانسان دبة تكول ولا جاهل في حماقته » أمثال سليمان الاصحاح السابع عشر ، الآية الثانية عشرة • حين تأتين لتتلقى البركة سأزودك بهذا كحكمة•

وأدخل القسيس في الحال الفتاة في دروس الدين المسيحى ، فجعلت تسمع عن قدير يولى النـــاس العناية ، عن واهب للدفء والقوت عليها أن تحمده وتتفانى في خدمته• فتارة يخيل اليها أن القسيس يعنى بذلك نفسه وزوجه الصغيرة جدا ، وتارة يبدو لها أن المعنى أحد غيرهما لا تعرفه •• وهكذا بقى تفكيرها في الرب الذى منحها كل شيء ولم يتقاض منها في مقابله شيئا ، أما الآن فلا بد

لها أن تساعد فى المزرعة وتحرس أيضا أبقـار القسيس وكانت ستا لكنها قبل الحرب كانت فيما يقال أربعا وثمانين • وفى هذه الحراسة كانت تنادي فى الغابة بكل كلمة كانت تقولهـا للدب واليها بضع كلمات أخرى مستعطفة علمها القسيس اياها ، بيد أن الدب لم يشأ الظهور •

وكائنا من كان من تقابله كان يذكرها بالدب بالأسئلة أو الفكاهات فكان يورى ذو الرجل الشوهاء يقول لها : « عمى صباحا ياعروس الدب • بلغى سلامى الى عريســك » وكانت مارية ذات الرجل الشوهاء تشيعها بصياحها : « أتذهبين قريبا الى مغـارة دبك تكسلين هناك ؟ » ولاشـــك أنها لم تعد تجرؤ أن تمس الفتاة بأذى منذ أن بات مقامها فى الأبرشية •

واذا تلقى القسيس زوارا استدعيت ليزو الى الحجرة الكبرى• وهنا كان للضيوف أن يسالوها وعليهـا أن تجيب ، هنا كانت تقف بالباب فتؤمر بشدة أن تقترب وأن تفتح فاها ، لكن ما الذى كان ينبغى أن تقوله حينئذ ؟ فلقد طالما أبدت وأعادت هذا حتى بدا أنه يصبح بالتكرار أسوأ وأبعد عن الحقيقة ، وسيان ضـحك السامعون غير مصدقين أو قال صياد دببة مسن ان مثل هــذا مما يحدث وان ندر ، هنا كانت ليزو تشعر جليا أن ما تعيش فيـه انما هو زور وبهتان والا لما أمكن أن يحدث أن يبدو لها أن عهـد الدب السعيد سيء بعيد عن التصديق ، وقد كانت تلقى عليهـــا أسئلة كثيرة لم تفهمها ، ومن ثم كان يرتج عليها وتلاحظ أنهم غير راضين عنها ، وأنه لم يعد شيء صحيحا •

وفى العام الثانى لعهــد اقامتها عند القسيس قدم سيد غريب ، فكلفت ليزو أن تغسل يديها ورجليها لتتوجـه بعد ذلك الى الحجرة الكبرى كى تعاين وتسأل ، ثم تحادث القسيس وزائره

بالألمانية فلاحظت أن الحديث يتناولها وأحست ضيقا لا يحتمل وهما • فلما عادت ثانية الى الفناء ألفت هناك سائس الغريب واقفا مع الخيل ، وكان رجلا أشيب الشعر يمسك بغليون فكان عليها أن تجيبه هو الآخر على أسئلته ، وكان يستمع اليها غير مكترث ثم بصق وقال :

« لقد لاقينا نحن أيضا ، سيدى وأنا ، دبا أمس ، وكان ذلك في يركنكروج اذ مر بعض النور من هناك يسحبون دبا من سلسلة متجهين الى شقار تسنبرج نحو السوق السنوية ، وكان حيوانا ضخما قالوا انهم لقوا عناء فى تدريبه لأنه تجاوز السن • وكانت له ندبة من أثر طلق نارى بكتفه وبقعة بيضاء برقبته ، ولا يعهد ذلك كثيرا فى الدببة •

فسألت ليزو : « وأين مشقار تسنبرج ؟ » •

قال السائق : « من هنا ، رأسا ، وعند فاسر هوف الى اليمين • والطريق من هناك مطروق » •

فلما خرجت ليزو من دفء الحظيرة ، كانت نجوم الخريف تعلو الأبنية السوداء هائلة باردة تبرق ، وكان كلب الفناء ينخر نصف نائم فأرعشها البرد وضغطت كسرة الخبز المصرورة فى احدى الخرق على صدرها كأنما تستدفىء بها ، ورفعت بصرها فألقت الدب الأكبر يقف فى الحديقة فوق شجر التفاح فى لمعان ثابت ، فنظرت اليه ليزو دهشة وخطرت ببالها تلك الكلمات التى فاه بها السيد المحترم وجمعت اليها أقوالا أدلى بها القسيس فى درس الديانة المسيحية كالتى يلقيها فى عظة يوم الأحد عن السماء •

ولما انعطفت عند فاسر تذكرت « أولو » غاضبة اذ اعتاد أن يقول لها غامزا : « لقد رميت حبيبك فى جلده بواحدة حارقة مصمية »

وعند شروق الشمس التمست الراحة بين المراعى وتناولت شيئا من خبزها • وجاءت مركبة تجلس فوقها قروية عجوز صارمة الوجه لكنها من قرية غريبة ومن ثم سألتها ليزو هل تسمح لهـا بالركوب معها ؟ وبعد ساعة قالت العجوز : « من لم يتعلم بعد أن يفتح فاه عندما يسأل فليسر على قدميه • ترجلى ثانية ياطفلتى » •

وفى المساء بلغت ليزو بر كنكروج وتسللت الى الفناء فألفت هناك مركبة أحد السادة محلولة السرج فقضت فيها ليلتها وحلمت بالدفء الذى كانت تستمده من جلد الجسم الضخم •

ووصلت عصرا الى شفار تسنيرج فداخلها خوف شديد من أهل قريتها اذ رأت يورى ذا الرجل الشـــوهاء ، لكن هـــذا كان مستلقيا تحت مركبته يغرق نشوته بالنوم ، وكان بالمقهى ضجيج وكانت به موسيقا وعلى أخونة البيع أشياء طيبة وزاهية لم تلتفت اليها ليزو ، وأمام الكنيســـة كانت طبلة تقرع ، وكان النـــاس يتحدثون عن الثور وعن الدب فجرت ليزو الى هناك تحدوها تلك الثقة الكاملة التى كانت تستشعرها من حياتها السالفة وهى شبه نائمة فى انتظار عودة الدب ، فاندست بين الناس فاذا رجل رث الثياب أسود الشعر يدق الطبل ويصاحب الدق بالصفير ، وخرج آخر من خلف المركبة وفى يده اليسرى سوط وفى يمناه سلسلة ووقف الرجل وجذب السلسلة وطرقع بالسوط ، وتناهى اليها فى زاوية المركبة نفخ منخرين دفىء له قلب ليزو ، وطرقع « النورى » بالسوط وأعاد الجذب وهنا ظهر الدب يتثاقل فى وطئه الباطش الى الحلقة فوكزه الرجـل فى جنبه فانتصـب الدب كارها ودمدم وجعل يدور متكدرا ، غبيا ، يقوم بهذه الخدمة المهينة ، فضحك الواقفون المحيطون ، ولم تكن ليزو قد رأت قبل الآن دبا أسيرا محقرا فلم يسعها أن تفكر الا فى انه ماعليها الا أن تجد الدب فينتقل على

الفور بسحر ساحر الى أرض الدببة حيث الوفرة والهدوء وكل كفاية ، وحملقت فى الحيوان الفظ الذى يحمل الكمامة على فمه والندبة على كتفه والسلسلة الثقيلة مثبتة فى طوقه ، يظهر منه جزء من البقعة البيضاء التى تسم رقبته ، فنطقت بالكلمات القديمة تناديه ، وكان الدب يدور فى بطء يمنة ويسرة وعيناه الكدرتان تتجاوزان عديد الناس ٠

ودفع رجل مسن ليزو فى جنبها وهو يقول : « ايتها الفتاة الغبية ، هل شربت خمرا ؟ » وعوى من هناك فى اللحظة نفسها صوت مارية ذات الرجل الشوهاء غاضبة يشبه عواء جراء الذئب : « ايه ، أنت ياعروس الدب ، انتظرى فقط فسأردك الى القسيس»٠

وسرت حركة بين النظارة وكف الطبال ٠ والتفت كثيرون الى ليزو ٠ ووقف الدب وبدا كما لو كان يبغى الاستلقاء ، لكنه حدج مدربه بنظرة واجفة كأنما يريد أن يستوثق من أنه لن ينزل به عقابا ، وأخيرا ارتمى على الأرض ٠

فصاحت ليزو صيحة صارخة الانفعال ، وقفزت تتعلق برقبة الدب ، وضغطت رأسها على جلده الدافىء ، ومدت يدها الى بقعة عنقه البيضاء ، فأتى الدب بحركة انتفاض يمكن أن تعبر فى الوقت نفسه عن الغضب والذعر والرغبة فى دفعها عن نفسه ، ثم دمدم حانقا وضرب ليزو بكفه الأيسر على ظهرها ، وفى الوقت نفسه هوت يمناه على جمجمتها فحطمتها تقريبا ٠

وزمجر القرويون ، ورفعوا الزقل والفؤوس والمناجل المشتراة الجديدة ، وصرخت نساء النور ، وسقطت طلقات ، ولم يدم هذا كله الا ثوانى ، ثم خرجت الكتلة السمراء القـــاتمة صريعة وارتمت بلا حراك كأنما هى فروة دب تجمدت من البرد ٠

وسجى الناس الميتة بقطعة من قماش المركبات ودفنوها فى اليوم التالى باسم الرب الذى كانت تصلى له على صورة دب

اللحظــة

« Der Augenblick »

اسماء الشخصيات :

مورات	Murat
جنرال لوازون	General Loison
نابليون	Napoleon
لابى	Lapie
فون شالهايم	von Sshallheim

يبدو أن هناك لحظات لعـــائشيها وذائقيها من بعـــدهم على السواء ، يتيسر فيها النظر بدقة فى معامل التاريخ العالمى ، ولنكن أكثر تبسيطا فى التعبير ، يعتقد المرء أنه يرى فيها الشعرة التى يتعلق بها مصير العالم لفترة وجيزة جدا ، ومع هذا المصير مصيرنا جميعا ، لأن مصير هذا يشتق من مصير ذاك على الدوام فى الحق ، وروح الحوادث يعلق أنفاسه ، فكأنمـا هو يتفكر ويتردد تقـريبا قبل أن يقرر الفصل فى مجراها ، ثم اذا هو صمم على أن يترك الحوادث تجرى مجراها ، كما عرفناه فى تاريخ العالم ، اذ ذاك كانت ما تزال له مع ذلك ، كما يبدو لنا على الأقل ، الحرية فى أن يتيح لها مجرى آخر لعله عكسى ٠

وقد قص ضباط من فرقة لوازون النابليونية ، فيما بعد ، حادثا من هذا النوع ٠ ففى الخامس من ديســـمبر ١٨١٢ عهـد الامبراطور الى صـــهره مورات بالقيادة العليا وغادر الجيش فى اتجاه أوزميانى ــ باريس وتقـع أوزميانى فى الجنوب الشرقى من فلنا ٠ وكان يصـــحبه كولانكور وديروك وموتون الـــذين كانوا يسمون ، قبل ذلك ببضع سنوات ، دوق فيسنترا ودوق فريول والكونت دى لوبو وقبل الحادث بســاعة أو نحوها وصـــل الى اوزميانى أمر يحمله رسول راكب يعلن مقدم الامبراطور ويأمر باتخاذ العدة لتبديل الخيل واعداد الطعام العاجل للافطار وبأن ترفع فيما خلا ذلك الكلفة والرسميات ٠

وكاد ألا يكون ثمة وقت لاتخاذ ألزم الاجراءات · كانت فرقة الجنرال لوازون ترابط فى الناحية ·· وكانت قبل ذلك بيوم قد وصلت الى أوزميانى قادمة من بروسيا الشرقية عبر فلنا ، وكان زحفها شاقا ، اذ كان طريق فلنا مسدودا بالفعل بالكتل البشرية المتدافعة الى الوراء ، وكانت الفرقة تضم سبع « أورط » فرنسية و « أورطتين » من نابولى وعشرا من اتحاد الرين تتألف من التورنجيين والأنهالتريين والفرانكفورتيين · وكان آخر مجند يعلم أنه لا يمكن أن ينتظر الفرقة مصير غير أن يزج بها فى الدمار العام ، وكقوة جديدة سوف يلقى بها الى الروس لحماية المؤخرة ·

وقد أمر لوازون باستخراج كتائب الحرس من جميع الآلايات المعسكرة فى الناحية نفسها وكان فى كل آلاى كتيبة منها ، لتؤلف حرسا للامبراطور ، وقد وضع على رأسهم لابى وكان ميجرا بهيئة أركان حرب آلاى المشاة الفرنسى الثالث عشر بعد المائة · وكان فيما خلا ذلك مؤلفا كله تقريبا من البيمونتيين ·

واجتمعت السرية فى ميدان السوق وكان ككل شىء فى هذه البلاد مقفرا متراميا الى بعد سحيق ، وكان يقوم على الميدان البيت الذى أخلته هيئة أركان حرب الفرقة على عجل ليكون مقاما للامبراطور ، وكان أوجه ما فى الناحية وان تألف من طبقة واحدة وبنى بالخشب ، وكان له طنف يقوم على أربعة أعمدة من الخشب

وأقبلت ثلاث زحافات تنهب الأرض فهتف الحرس « ليحيا الامبراطور » لكن الهتاف خرج ضعيفا ، ذلك أن الناس لم يفتحوا أفواههم جيدا الا باللفظين الأولين ، ومن هؤلاء بعض باهى فيما بعد بأنهم هتفوا ليحيا امبراطور الروسيا ·

وقاطع نابليون لوازون بسرعة وهو يقدم نفسه وقال له :

« توجه الى سلسلة المخافر الأمامية ، ألا تعلم أن الكولونيل سيزلافين ومشايعيه يحازون الحد الجنوبى للناحية ؟ »

واختفى نابليون ومرافقوه فى البيت وهم يكادون لا يعرفون فى طى فرائهم ، وابتعد لوازون ممتقع اللون ومعه ضباط أركان حربه • وكان أفراد سرية الحرس يلوحون بأذرعهم من حولهم ابتغاء التدفئة ، وعبثا كانوا يفعلون لأن الصقيع القارص لم يكن يرحم •

واقترب الضباط بعضهم من بعض ونظر لابى من الواحد الى الآخر ، ثم قال بصوت منخفض يكفى لأن تسمع الجماعة كلها كلماته : « الآن أيها السادة دقت الساعة » • وفهمه كل منهم فقد عرف كل أية ساعة دقت وأية لحظة حلت وأى عمل يطلب • وقد وثق لابى بأن الفكرة لا يمكن أن تكون قد تركت أحدا منهم دون أن تداعبه ، ولكن من لم يكن الى تلك اللحظة قد جرؤ على فكرة أو كلمة قد رأى الامبراطور الآن يتجه مسرعا نحو الغرب ويخذل الجيش ــ حطاما وفلولا •

وقال أحد قادة السرية متجهما : « لا يلومن هذا الرجل الا نفسه » وكانوا اذ ذاك اذا تحدثوا عن الامبراطور نعتوه « بهذا الرجل » •

فأجابه آخر : « حقا • وهذا أيضا على الأخص • لو كان قد دعا الجنرال وأركان حربه الى تناول طعام الافطار معه لأصبح الأمر محالا » •

وسأل جندى من بييمون : « والأنفار » يشكون ؟ انى لأثق بنفسى ــ والأمور كما هى اليوم ــ أن أقود الحرس الى مثل هذا المشروع •

فأمن الجميع كل على هواه ، وعكفوا على التشاور فى التنفيذ

« أيستطيعون رؤيتنا ونحن قادمون » ؟

قال لابى الذى كان عليه مايؤديه فى هيئة أركان حرب الفرقة:
« كلا . فالحجرة التى أعد فيهـا لتناول الطعـــام تقع الى جانب الحديقة » .

« والمملوك الذى فى خدمته ؟ » .

سيكون في الغرفة المقابلة ويكون الباب مخفورا ، هذه الغرفة ليس لها نافذة تطل على ناحيتنا .

وأية مخارج لحجرة الطعام على ذلك ؟

مخرج خلفى على ما أعتقـد . وهو يؤدى الى الدهليز ، ومن هناك الى المطبخ .

فاذا نفذ كل شىء فسينضم الجانب الأكبر من الفرقة ان لم يكن كلها ، ويكون على الرأس ثلاثة من البروجية راكبين يحملون أقمشة بيضاء وتبدأ المسيرة الى سيزلافين بالعزف الرنان والأعلام المرفرفة ، ويتولى القيادة أحد الســـادة الألمـان ليكون الأمر أوفي بالغرض ، فيعلن الى سيزلافين أنهم تحت امرة الامبراطور اسكندر.

وكل ما ينقص هو حل بعض المسائل التفصيلية ، فاتفقوا على الخطط التالية : تقتحم سرية البيت ، وتحتل أخرى المخرج الخلفى، وهذا لا يكون مع ذلك الا فى اللحظة الأخيرة ، لأن تقدمها سيلحظ من النافذة ، ويمكن أن يحمل هذا الرجل ومن معه على الهرب .

ويصرع المملوك وهم فى حجرة الطعام ، وتسرع جماعتان فى الحال الى باب الغرفة الخلفى لسد الطريق على من يريد الهرب ، وترابط من هاتين الجماعتين واحدة على الجانب الداخلى من الباب ،

وتندفع الأخرى الى الدهليز لتمنع أذى من لعله يتدخل من الجند الذين يقومون بالخدمة أو من خدم المطبخ ، وهنا وفى حجرة الطعام قبل كل شيء مع ذلك يجب أن يسري المبدأ : من يهم بالدفاع عن نفسه يطاح رأسه بالسيف .

« ومن لا يحاول الدفاع ؟ »

وجه هذا السؤال ملازم ثان من أهل نابولى فلم يلق عليه جوابا ، وقيل بسرعة : « السنكي والسيوف هي الأسلحة لأن البارود والرصاص يحملان النذير فوق أنهما يعرضان الجميع للخطر » .

ولعله قد كان منهم من يرى فى هذه المشاورات مضيعة للوقت ، لكنها كانت ضرورية ، لا لأن كل ظرف كان يجب أن يتدبر بعناية فحسب ، بل لما هو أكثر من ذلك ، لكى يتاح الوقت الكافى لأفكار الرجال كى تعتاد هذا الأمر الجلل .

وكان الى الآن لا يقال الا «المرء» فالآن بات السؤال من بالاسم يقوم بتنفيذ الأفعال فاقترح لابى أقدم رئيس للكتيبة فى الخدمة ، وكان السيد فون شالهايم الكابتن فى الخدمة السكسونية الفايمرية .

وسأل شالهايم مرتبكا : « وأنت بالذات ياحضرة الميجر بوصفك مدبر المؤامرة ؟ »

فأجاب لابى : « يجب أن يكون المنفذ رئيس كتيبة ، أما أنا فلا أمر لى على كتيبة ليس لى أنفار أعرفهم جيدا وأطمئن اليهم وعلى الأخص فى مثل هذا الأمر - كما يطمئن أى رئيس كتيبة الى جنوده » .

ولم يعارض شالهايم أثناء التشاور ، لكنه الآن حدج الأرض التى تغطيها الثلوج برهة بنظره غارقا فى أفكار سوداء ، وأخيرا

قال : « ان ماتطلبونه مني أيها السادة انما هو جريمة قتل » ٠

فصاح لابى : « لقد قتل مئات الألوف » ٠

فقال ملازم أول : « لعل السادة رؤساء الكتائب يقترعون »٠

فأعلن الكابتن : اذا كان ضمير السيد فون شالهايم أرق من أن يتحمل المدخل الأمامى فله أن يوصد البيت من الخلف بالمزلاج وكان الكابتن يقود كتيبة الحرس الثالثة عشرة بعد المائة وعلى وجهه سيماء القصابين بحاجبيه الأسودين الكثين ٠ فطلب شالهايم مترددا أن يؤسر نابليون ومرافقوه ويسلم الى الروس وسأل ٠

واذا دافعوا عن أنفسهم ؟

فحسم لابى الأمر : « عندئذ يسرى قانون الحرب » ، ثم استطرد يقول : « ياسيد فون شالهايم ٠ انى سأرافقك ، ولا حاجة بك الى سل سيفك فى حالة الدفاع عن النفس ٠ لكن كلا الشابين لن يبخلا على القضية الطيبة بخدماتهما » وأتى بحركة مؤدبة من يده مشيرا الى ضابطى كتيبة شالهايم ،وأعلن كلا الضابطين استعدادهما بلا تردد ، وكان لأحدهما أخ أكبر فى الخدمة البروسية ذهب من كونجزيوج الى الروسيا ، وهو الآن يقود آلايا هناك ٠ وكان الآخر ملازما ثانيا ممتلئا صحة ، ذا عينين باردتين حالمتين ، وشفتين رقيقتين ، ومن أولئك الذين سماهم نابليون مذهبيين ٠

والتفت لأبى الى رفيقه فى الآلاى الكابتن ذى الحاجبين الكثين وقال : « وأنت يارفيقى ؟ أتريد أن تطبق الكماشة على البيت من الجانب الآخر ؟ »

فرد الكابتن ضاحكا : « لن يكون من ناحيتي تقصير اذا تعطل شيء من أمام ضغطت من خلف وأنهيت الأمر » ٠

وسأل لابى : « كل شيء واضح ؟ أعند أحد من الســـادة سؤال ؟ » ·

فى هذه اللحظة ظهر كولانكور تحت طنف الأعمـــدة عارى الرأس ، طارحا فروه على كتفيه ، وصفق بيديه وصاح برما نافد الصبر : « حسن · لماذا لا نرحل ؟ » ·

وأقبلت الزحافات على الأثر ، وهرع كولانكـور عائــدا الى البيت ، وجرى الضباط الى كتـائبهم وأتباعهم ، وبينما الزحافات تنطلق انطلق الهتاف مرة أخرى : « ليحيا الامبراطور » ·

التوأمان الفرنسيان

« Die Zwillinge aus Frankreich »

أسماء الشخصيات :

جان ـ فيليب	Jean-Philippe
انيت	Annette
فرنكش ـ كرومباخ	Fraenkisch-Crumbach
كرويتزرمان	Creutzermann

في عهد الثورة الفرنسية ظهر في فرنكش ـ كرومباخ وفي عز الصيف ، مسنان ، رجل طاعن في السن ، أبيض الشعر ، ينادي على حرفته بلهجة غريبة ، وكان يملك عربة « كارو » يجرها كلب قوي ، وكان فوق العربة مسن آخر وأدوات وبعض حاجيات تافهة ، هذا الى طفلين صغيرين يقبعان فوق كومة من القش يشبه أحدهما الآخر ويشبهان الشيخ شبها كبيرا ، وهما غلام وفتاة في ثياب رثة ٠

وفجأة انكفأ الشيخ وهو يزاول عمله وأسـلم الروح ، فبحث الناس في ملابسه وفي عربته فوجدوا مبلغا متواضعا جدا من المال ، وعلى العكس من ذلك لم يجدوا شيئا مكتـوبا ، ولم يسترع الانتباه الا ثلاثة أشياء فحسب ، صليب تعميد أثري من الذهب كان يحمله الغريب على صدره العاري ، وحق سعوط ، وخاتم للختم بفص من العقيـق ، وهو على شـكل تاج له تسع أسنان ، وكان هذا الخاتم في كيس للنقود ولم يكن أيضا مما يناسب حرفة الرجل المسن أن يحمله في يده ، لكن تقاطيع وجهه كانت من الوقار بحيث يطمئن الجميع في الحال الى أنه مالك مثل هذا الخاتم ٠

وكان لوجهي الطفلين أيضا مثل هذه الملامح النبيلة ، ويبدو عليهما أنهما توأمان ٠ وقد أبديا أن الميت جدهمـا وسميا نفسيهما جان ـ فيليب وأنيت وكانا يجهلان اسم أسرتهما ويتكلمان ألمانية ركيكة ، وقد افترض الناس أن الجهة التي كان ثلاثتهم آتين منها

هى الجنوب لأنهم كانوا يتجهون نحو الشمال ، ولم يكن مؤكدا فى أى طريق والى أين ، وقد خلص من أقوال الطفلين أنهما كانا يعيشان مع جدهما فى مدينة لم يستطيعا أن يسمياها ، ثم لاح لهما أن جدهما تلقى ثانية بعد أمد طويل نبأ من أبويهما على شد الرحال ، وقـــد افترض الناس أن أبويهما اللذين فرا من فرنسا بعد أن هاما طويلا على وجهيهما وفقا الى مأوى وعمل فى مدينة ما من مدن الشمال ، فكانت الأسرة بسبيل أن يتجمع شملها من جديد ٠

ولم يكن سادة قصر تلك النـــاحية يعيشـــون اذ ذاك فى فرنكش كرومبـــاج بل يقيمون فى ملك لهم فى بوهيميا آل اليهم بالميراث ، فبات من اختصاص راعى الكنيسة العناية بأمر الطفلين، وبينما مراسم الجنـــازة تؤدى حسب الطقوس الانجيلية ، فى حضرة الكثير من علية القوم ، كان التوأمان بعد أن غسلتهما زوجة القسيس ومشطتهما واقفين أمام القبر يمسك أحدهما بيد الآخر ويتحملان هادئين نظرات القرويين العديدة المتركزة عليهما ، وقد سمح لهما بعد ذلك بأن يبقيا فى بيت القسيس بضعة أيام ، غير أنه كان للقسيس أحد عشر طفلا فهو يكره أن يصبح له ثاني عشر وثالث عشر ٠ وكانت زوجة القسيس تتكلم القليل من الفرنسية ، لكن التفاهم لبث غير كامل ، ومن ثم أبدت أخـــيرا أن مايتكلمه الطفلان يمثل لهجة أخرى ٠

وأبلغ الأمر فى تلك الأثنـــاء لولاة الأمور كما ينبغى ، فجاء القرار بأن يبقى الطفلان فى الناحية فى الآونة الراهنة ، وأن يعاملا معاملة اليتامى من أبناء الناحية الذين لا يملكون شيئا ، وستصل التعليمات النهائية من ولاة الأمور ، أما الأشياء الثمينة التى وجدت فعلى العمدة أن يحافظ عليها ٠

وكان عمدة البلدة اذ ذاك صاحب حانة « الحمل » فرتب أن يلقى الطفلان المأوى بالتناوب في دائرة بعينها من البيوت ، ولم يوجد من كان خليقا بأن يكون على استعداد لايواء الطفلين في وقت واحد ففصل بينهما ، واذ كان النـــاس يتوقعون سرعة البت في مصيرهما فقد كان مكان اقامتهما يغــير في فترات قصيرة ، ثم أطيلت هـــذه الفترات لأن الأوامر التي كانت تتـــوقع أبطأت ، وأخيرا بدا أن الأمر قد طواه النسيان ، اذ ظلت الاستفسارات التى كان العمدة يوجهها الى جهة رياسته بلا جواب ، وفى النهاية جعل الطفلان يتنقلان كل ثلاثة أشهر من يد الى يد فكان نصيبهما تارة حسنا وتارة سـيئا ، لكنهما فى العمـــوم كانا يعـاملان معاملة محتملة ، فكم من سيدة عطفت عليهما فى المناسبات ودست لهما في فمهما ما لذ وطاب ، ذلك أنه كان يســتدر العطف عليهما فكرة أنهما كانا فيما بدا من محتد كريم ، وأنهما مع ذلك فقدا اسميهما وأبويهما ، ووجد آخرون بلاريب نوعا من الترضية فى هذا ، ولو كان التوأمان عند وصولهما الى فرنكش ــ كرومباخ أصغر مما كانا بسنة واحدة فقط لاندمجـــا فى الراجح فى أسلوب حياة تلك الناحية اندماجا تاما ولبهتت ذكرياتهما ، لكن هذه التذكارات كفت ــ وان لم تكن من القوة بما فيه الكفاية ــ لأن تخلع على الماضى اسما ولأن تنشط بالذات فى الأخ والأخت مقاومة الاندماج التام ، وقد كان جان ــ فيليب وأنيت يعيشان بين أطفال الناحية ندين لهم . ومع ذلك كان وعيهما واضحا لاختلاف نوعهما ، وكان وعى الواحد يتقوى هنا بوعى الآخر ، ولعله كان يتراخى لو لم يذهب الى أبعد مما يجب ، فانهما كانا يجتمعان بعد انتهاء العمل وفى أيام الآحاد بمجرد أن يتيسر ذلك ، وبقدر ماباتت الألمانية ــ لغة أهل الناحية ــ سهلة مع الزمن عليهما ، يتكلمانها بطلاقة ، كانا فيما بينهما يتابعان التكلم باللغة الفرنسية ، وقد حاول أطفال

الناحية فى سخرية أن يقلدوهما فى نطق هذه اللغة غير المفهومة.

لقد كانا يتحدثان فيما بينهمــــا عن الجد وعن كل ماكانا لايزالان يذكرانه عن الحياة السابقة ، وهكذا ظل هذا باقيا فى ذاكرتهما ، لكنهما كانا يتحدثان على الأخص عن أبويهما وكيف يريدان الخروج فيما بعد للبحث عنهما ، ولم يكن منــــاص أيضا من أن يريا فى أهل فرينكش ــ كرومباخ شيئا يشبه السجانين، وان لم يكونوا من الفاسدين . كانا يفكران : « لقد كنا فى طريقنا الى أبوينا فاحتجــــزونا ، ونحن نريد المضى فى طريقنــــا وهم لا يدعوننا نمضى » . ولم يجد معهما أن جهد الناس فى أن يبينوا لهما الأسباب ، اذ ماذا يفعل الأطفال بالأسباب ، لقد كان يحدو أهل الناحية تصور غير أكيد بلاريب ، بأن سلطة عليا مشغولة على الدوام بالتحرى عن أبوى التوأمين ، لكنه لما لم يحدث شيء زايلهم أيضا هذا التصور بعد أن زايل كلا الطفلين الغريبين من أمد .

وكان هذان كلما نمت بصيرتهما مع الأيام يريان أن الناس يتعمدون استبقاءهما بوعود خلابة : لكن الدنيا كانت تبدو لهما أحيانا ماتزال أوسع من أن يجرءوا على الخروج خفية ، وكيفما اتفق ، ويشرعان فى البحث عن الوالدين ــ وكانت ماتزال فى تلك الأثناء عقبة أخرى تعترض سبيل مثل هذا القرار ، وذلك أن الطفلين كانا يعلمان أنه لا يجوز لهما مبــــارحة الناحية دون الصليب والخاتم وحـــق السعوط ، فقد كانا لا يريان فى هذه الأشياء مجرد ملكهما الوحيد الذى لا يقدر بثمن فحسب ، بل كذلك طلاسم ورهائن وشهادات ، نعم يريان وطنهما الحقيقى ، وكانت هذه الأشياء مقفــلا عليهـــا فى مكتب العمدة ، وكانا يعرفان « الدرج » الذى يحتويها ، فاذا ماجاء أحدهما مرة الى حجرة جلوس العمدة نظر الى المكتب يحدوه افتخار وتحدوه الهيبة والاشتهاء .

ولم يغير مر السنين من هذه الأحوال الا قليلا ، وعلى عادة القرويين تلف الطفلان بالعمل مبكرين لا سيما فى حراسة الأبقار والماعز ، وكانا يعدان أيضا من المهرة فى قنص « الخلد » بالمصيدة بصورة غير عادية • ويكسبان من وراء ذلك احيانا أجرا زهيدا • أجل لقد كانا أحيانا يعفيان من أجل ذلك من تأدية أعمال أخرى ، ذلك أن تلال « الخلد » الكثيرة كانت تسبب فى المراعى عقبات تعوق الحصاد كثيرا • وعندما عرضت المناسبة دخل جان ـ فيليب وأنيت المدرسة لأمد وجيز ، فبقيا أجهل مايكونان ، وعوضا مثل هذا النقص بمكر يشبه مكر حيوان الغابة وسعة حيلته ، ذلك أنهما كانا يشبان دون رعاية ، فكان لابد لكى يتعلما أن يساعدا نفسيهما وألا يضعا ثقتهما فى انسان أو فى هيئة • وعدم اقامتهما فى مكان واحد وغشيانهما بيوتا كثيرة وعيشتهما فى أحوال عديدة نشأ كله فيهما ملكة الملاحظة وانفصل ، وليس هذا من دأب من كان فى مثل سنهما ، وهى ملكة لا تنفصل مع أسلوبها الحرك المقدام الذى يجتذب اليه كل جديد برشاقة عن توخى التغيير ، وأحدهما فى هذا شبيه بالآخر كما هو شأنهما فى كل الأمور الأخرى سواء أكان ذلك لتوأمتهما أو لأسلوب حياتهما الواحد وخبراتهما الواحدة واستثنائهما الواحد من سائر المقيمين فى الناحية •

ان حكايات رودنشتاين التى كان الناس يتداولونها لم يكن لها فى كل الأزمات نفس التوكيد • لكنها كانت اذ ذاك يتناولها الكلام الكثير •

فكان المجرى العفاريتى ـ كما وصف ـ يشير مرارا وتكرارا الى سنين سادها الاضطراب ، والى انتقال الفرنسيين عبر الرين والى اضمحلال الامبراطورية الرومانية وتداعيها • وكان آخرون يعنون بلا ريب أن مثل هذه الحكايات لا تقوم على أحداث غشيها

العفاريت ، ولكن على ماكان يصدر عن عصابات قطاع الطرق كتلك التى بدأت تظهر هنا وهناك ٠

وعلى كل فقد وجهت الأحـــاديث على هذا الغرار الالتفات أيضا الى كل ماكان يروى عن رودنشـــتاين فى العادة ، وكثيرا ماتناول التفكير كذلك ماروى عن الكنوز المدفونة والمسحورة ٠ ومثل هذا قد صافح أيضا آذان التوأمين فحدث أن جان ـ فيليب ترك المـــاعز ذات يوم من أيام الصيف ترعـــى بين خـــرائب رودنشتاين ، وذهب يتجول بين الجدران ، يتلمس بين الآن والآن تلا من تلال الخلد ، فرأى شيئا يبرق على الأرض فانحنى عليه والتقطه فاذا هو ريال فضى ٠

فصفر بين أسنانه ودار على عقبيه كالنحلة ، وكان خليقا هو نفسه أن يحس عينيه السوداوين اليقظتين تبرقان ، فقد تأكد له أن هذه القطعة من النقود لابد أن تكون من كنز رودنشتاين ، وذلك أن هذا المكان كان يتحاشاه الناس ، والا فمن ذا الذى كان حريا أن يغشاه ويفقد فيه ريالا ٠

ورأى فى تلك اللحظة تحول حياته وحياة أخته ، وقد بلغ من السن مايجعله يدرك أهمية هذا المال ادراكا صحيحا ، فلابد من البحث والتنقيب وكل لقيـــة خليقة بأن تمنـــح كنزا من الاستقلال ، والريال الفضى قد عين البـــداية ، ومن يملك مـــالا يستطع الخروج الى الدنيا ٠

وتلفت جان ـ فيليب وراءه فتبين آثار نار على الأرض ، رأى رمادا وقطع أخشاب نصف محترقة ، وقد سمع الناس يحكون فى تعازيم يعزم بها المنقبون عن الكنوز ، وكان من بينها دائما ايقاد النار ، وليكن هذا مايكون فانه لا يفهم منه شيئا ولا يستطيع أن يلجأ اليه ، فهو وآنيت سيحضران ٠

وكانت آنيت تقيم اذ ذاك عند العمدة ، كان عليها أن تساعد فى حظيرة الماشية وفى الحديقة ، وفى أيام الآحاد تخدم الضيوف فلما أقبل المساء ساق جان ـ فيليب الماعز الى الحظيرة ، وجعل يتحرق الى أن يقص على أخته ماجد من جديد ·

ولم يكن قد بلغ النـــاحية بعد حين قفزت أخته من بين الأدغال وهى تنهج · فأمسكت به من كتفيه وصاحت : « أنت·· آه ياجان ·· فيليب ، لابد أن نرحل ، لابد أن نرحل » ·

ويعرف المرء تلك الحركات الملغزة ، تلك الحركات المتراوحة التى لا يمكن تفسيرها والتى تحدث أحيانا فى دوائر المصالح الحكومية بعد ركدة طويلة أوحت من قبل بأنها ستكون نهائية · فقد وصل فرينكش ـ كرومبـــاخ على حين بغتـــة وعلى غير انتظار اطلاقا ، كما لو كان ملف منسى يحوى أوراقا قد ظهر ثانية فلابد من انجازه ـ وصل أمر بتسليم خاتم الختم وحق السعوط وصليب التعميد الى جهة قضائية بعينها فى دار مشتات ، ولعل هذا كان دلالة على أن شيئا ما قد حدث ، لعله أن أبوى التوأمين اللذين يبحثان عن طفليهما اهتديا فى جهودهما الى جهة ما تابعة لنبيل ناحية من النواحى ، أو ـ كما قيل من عهـــد قريب ـ على جهة رسمية تابعة للغراندوق ، وانه يصبح الآن فى انتظار تعليمات حاسمة ·

وقد تكلم العمدة فى هذا مع القسيس فى عصر يوم وهو يفرض كل الفروض ، وكان قد قصد اليه ليباحثه فى أمر يتعلق بصندوق الفقراء ·

وكانت النافذة مفتوحة وآنيت تنقى الحديقة من الأعشاب الضارة ، فلم تفهم كل ماقيل ، لكنهـــا فهمت أنه لابد من نقل الأشياء الثمينة الثلاثة ـ فيما تظن ـ الى حيث لا يمكن رؤيتها

ولا الوصول اليها بعد الآن . وقد فتح العمدة درج المكتب وأخرج الأشياء وأراها القسيس مرة أخيرة فوصوصت آنيت من خلال النافذة وهى توارى وجهها وراء العرانيس الخضراء .

وأراد القس الانصراف ، وأعاد العمدة الأشياء الى موضعها لكنه لم يوصد الدرج ، والظاهر أنه كان يفكر فى العودة لأداء عمل كتابى آخر ، وخرج حينئذ لتوديع القس فدخلت آنيت وسحبت الدرج وتناولت النفائس وهى تكاد لا تدرك مافعلت ، فلما عاد العمدة كانت قد رجعت أدراجها الى الخارج ، وقد عاد العمدة بزائر آخر تاجر ماشية وحبوب من رايشلزهايم طالما عقد معه الصفقات ، فالآن تسمع آنيت كيف أوصد الدرج فلعله قال لنفسه أنه حسبه اليوم ماكتب ، وأخفت آنيت القطع بين أدغال « القريص » فلن يطلبها هناك أحد . وسيان عندها هى أن تنجو أو أن يحرق « القريص » يديها .

قصت هذا كله على أخيها وختمت قصتها بما بدأتها به : « لابد أن نرحل . لابد أن نرحل » .

وأراها القطعة الفضية . وبدا أنه ليس مجرد الصدفة الذى جمع بين أمرين غير عاديين ، وعكفا على التشاور وهما منفعلان وتحت رحمة الأقدار .

وتبينا الخطر ، فالشىء الوحيد الذى يملكانه يراد انتزاعه منهما ومعه أملهما الوحيد ، وكل مايصبوان اليه ، فتلك القوة الماكرة التى لا تفهم والتى عبر عنها ما يجرى فى الدواوين صاحبة الأمر والنهى والتى عقد معها أهالى الناحية محالفة شريرة ، تريد أن تحول بينهما وبين الالتقاء بوالديهما ، ويريدون أن يجعلوا منهما طفلين يتيمين من أطفال فرنكش ـ كرومباخ ، وأن يدعوهما العمر كله فى هذه المرتبة .

وسرعان ماعقدا الرأى على مايفعـــلان : فعليهما أن يبارحا الناحية هذه الليلة على أن يبـــدآ الهرب الحقيقى فى الفجر ، أما مابين ذلك من وقت فينفقانه فى التنقيب عن الكنز • وعليهما أن يأخذا معهما مصباحا وفأسا وبلطة وبعض الزاد •

ووفقا الى كل شيء ، فلم يبق على حلول الظلام طويل حتى كانا فى طريقهما الى روDنشتاين •

وكانت الريح تهب من الخرابة فوقفت آنيت واستنشقت الهواء ، وقالت : « انى أشم رائحة دخان فلابد أن تكون هناك نار » •

فأجابهـا جان ـ فيليب : « وأين يكون ما يحترق ؟ ، لـكن حقا انى أحس طعمه أيضا » •

وتسللا محاذرين وهما يكادان لا يجرؤان حتي على الهمس ، فلم يعد ثمة شك فى أن نارا موقدة تستعر فى الخرابة • ولم يلبث أن اعتقد الأخوان أنه يمكن أن يكون هناك منقبون عن الكنز •

واقتربا من الخرائب فى خط منحن آتيين من الغابة ، فسمعا أصواتا سرعان ما آنسا على أثرها ضوء لهب • وكان آتيا من ناحية مكان النار الذى كان قد وقع عليه جان ـ فيليب قبل ذلك بيوم •

ووقف الطفلان وتشاورا فى خفوت فلم يلبثا أن اتفقا ، فلابد أن يعرفا مايجرى هناك وعليهما أن يتسللا كل من جهة ، ووضعا أدواتهما عند ركن البرج الجنوبى وافترقا • واتفقا على التـلاقى فى الموضع نفسه فتسلك آنيت الطريق المستقيم ويعرج جان ـ فيليب فى قوس من حول القصر •

ولم تلبث الأصوات أن انقطعت عن سمعه ، ولم يعد كذلك يأنس من النار شيئا ، لكنه بقي مع ذلك واثقا من وجهته ، وجعل يتسلل ويزحف بين الأدغال والأنقاض حتى وصل الى فناء القصر، فاذا به يسمع الأصوات من جديد ويرى بين الفينة والفينة ضوء النار الأحمر ينير القمة ، وأخيرا بدا حائط بينه وبين الناس الذين يصطلون ٠

فتسلق الحائط وأطل من أعلاه على فناء القصر ، وعلى النار والرجال الذين كانوا يرتدون لباس القرويين ، وأحصاهم ثمانية ، وكان فوق النار قطعة لحم مشكوكة فى السفود ، والى جانبها كومة أشياء من كل نوع مصرورة في أغطية ٠ وكان الرجال يحتسون بالدور من قدح مرتفع من الفضة له مظهر كنائسى ، وبين الحين والحين يقطع أحدهم شريحة فى سمك الأصبع من لحم الخنزير ، وكان بجانب بعض الرجال غدارات ومع البعض الآخر زقل ثقيلة٠ وكان أحدهم يمسك ببندقية قائمة ، وكثيرا مارأى جان ــ فيليب بحانة « الحمل » سكارى فسرعان مالاحظ أن المرابطين فى نشوة ، وكان مايزال يعدهم من المنقبين عن الكنز وقوى هذا الاعتقاد أنه رأى شيئا شبيها بكوم من المال جعل منه أحدهم كومات صغرى ٠ ولاح أن هذا كان يمتاز عن البقية باعتبار خاص ، فقد كان يتكلم بصوت مرتفع خشن وكان على وجهه دمغة لهيب حمراء كأنما لطمته على خده يد نارية ٠

وحملق جان ــ فيليب مسحورا فى هذه المغامرة البراقة ، وفكر فى أخته وهل تحب هى أيضا أن تكون شاهدة على منظر كهذا ، وجثم كالنسر بين الحجارة يعلو ثمانية رجال يزاولون عملا محفوفا بالأسرار يخفيه الليل الأليل ، وهو الآبق من عمله السائر فى طريقه الى الحرية والى ذويه ، والرجال الثمانية خالو الذهن من وجوده ٠ أجل لقد كانت القطعة الفضية هى البداية ، فكان

في يده مال من منال الكنوز ومحيط المحظور والمغامرات والمشروعات الخفية ، وهو من الآن فصاعدا سيأتمر بأوامر هذا العالم الجديد ·

وكان وضعه غير مريح فهم قليلا الى أعلى مستندا الى الحائط· وماكاد يفعل حتى انهار السند تحت يديه وانزلقت قدماه وهوى الى الأرض · وتدحرجت الحجارة وانطلقت صيحة رجل من هؤلاء الرجال ورنت صيحات أخرى ·

وكانت الأغصان قد لطمت وجهـــه ويديه فآلمته ، وشعر بالأرض تحته وتبين أنه لم يصب بأذى ، وأراد أن يثب لكنه لقى عناء في التخلص من الأدغال المعتمة · وهنا أحاطه ضـوء نور فاذا رجلان يقفان قبالته ، وسلط أحدهما على وجهه شعاعا ثم أمسكا بخناقه وجراه من حول الحائط على نار المربط ·

وكان الجميع قد هبوا من أماكنهم والرجل المدموغ بعلامة اللهيب قد لثم وجهه بقناع أسود لكن الغـــلام عرفه من قامته ولباسه ، وجعل الرجال يتكلمون عن جان ـ فيليب فى غضب ، ويخـــاطب بعضهم بعضا ، وينحنون على أنفسهم باللائمة لأنهم لم يقيموا حارسا · غير أنه ظهر أنهم لم يكونوا يثقون بعضهم ببعض، فلم يغب أحد منهم عند تقسيم المال · وقال أحدهم : « أليس هذا هو الفرنسى الصغير ؟ » ·

وسأله ذو القناع الأسود : « ماذا كنت تبغى هنا ؟ » وكان يتكلم عندئذ بصوت منخفض ولا يعبر صوته عن كثير ، ومع ذلك فقد جعل جان ـ فيليب يرتعد من التهديد المكبوح الذى تنطوى عليه هذه العبارة ، فتلعثم وأجاب جوابا مضطربا قائلا انه لم يفكر فى سوء وانه لم يرد سوى البحث عن كنوز يودنشتاين ·

فلم يصـــــدقه أحد بل تدانت رؤوسهم وجعــلوا يلغطون ·
فحملق جـــان ـ فيليب فيهم وبدا له كأنما يتكلم أحـــدهم فى صالحه ، وكان رجلا ربعة قصير القامة ذا لحية حمراء مدببة وعينين واسعتين جاحظتين ·

واستمر الأمر برهة على هذا المنوال ، بينما كان أحد الرجال قابضا على ذراع جان ـ فيليب · ثـم عاد الجميــع اليــه ، وسأله ذو القناع الأسود بصوت هادىء : أيعتقد أنه يستطيع أن يتعرف عليهم اذا رآهم ثانية ؟ ولم يكن جان ـ فيليب يعرف ماذا ينبغى أن يقول ، كذلك لم يكن يشعر بأن لهذا السؤال ولجوابه أهمية كبرى ، فجعل ينظر اليهم من الواحد الى الآخر ·

وأعاد ذو القناع سؤاله ، فبدا للغـــلام كأنما يريد الرجل المقنع أن يعطيه اشارة ما اذ حرك رأسه قليلا وغمز بعينه اليسرى، لكن جان ـ فيليب لم يفهم قصده وكان أيضا يخيل اليه أن ماحدث هنا لم يكن حقيقة واقعة ، فالحركات الخرقاء الهوجاء لأناس مغرقين فى السكر ، والقدح الفضى والنار الموقدة بين الأنقاض السوداء والشجر والأدغال كل هذا بدا له حلما من الأحلام ، ولابد أن يجد نهايته فى يقظة عاجلة ·

وخطر له فى الوقت نفسه أنه قد يكون لديهم مايكلفونه به ، ومن ثم سألوه ماسألوه ، وقد يكون ذا نفع له أن يقول نعم »، فقالها ·

فقال الرجل الملثم : « اذن لا فائدة · اذن لا يصح أن تبقى على قيدة الحيـــاة » ودمدم الرجال وتكلموا كرة أخرى مــع بعضهم البعض ، وتطلعوا الى أعلى وتسلق أحدهم فوق صنوبرة حتى اختفى فى الظلمة · وتقدم ذو اللحية من جان ـ فيليب وقدم اليه القدح الفضى وقال له : « يجب أن تحتسى كثيرا فيهون عليك الأمر »

وأراد جان ـ فيليب أن يشرب ، لكن أصابعه ارتعشت حتى كاد لا يستطيع الامساك بالقدح الثقيل ، وغص بالنبيذ الذى لم يعتده وجعل يسعل ، وهكذا لم يستطع أن يفطن الى ما أسره اليه ذو اللحية المدببة ، ومع ذلك فقد بدا له أن ماقاله كان خيرا · ثم تحول ذو اللحية المدببة ورفع حبلا وعقد خية فيه ·

ونادى الرجل من أعلى الشجرة · وانحنت من فوق الى تحت زانة صغيرة تقوم قريبا من شجرة الصنوبر وتناول رأس الزانة بعض آخر وأمالوه الى الأرض ، ووضع أحدهم الخية حول عنق جان ـ فيليب ثم ربط الحبـل فى الزانة ، وقيد آخر فى الوقت نفسه يدى الغـــلام · وقال ذو القناع : « هب » · وترك جان ـ فيليب والزانة فانطلقت الى أعلى وطواها الظلام ، وشعر جان ـ فيليب كيف شقت الأفرع جلد وجهه فسال دمه ، لكنه كان قبل أن يطلق الرجال الزانة قد جذب قدميه وثبتهما على الشجرة فى زاويتى غصن ، وبهذه الصورة لم يتدل بل وقف على الزانة مقيدا بلاريب ·

وأراد أن يصرخ وأن يولول ، لكنه ضبط نفسه ولم يند عنه صوت · وجعل قطاع الطرق يحزمون حاجياتهم جميعا ، حتى الشواء انتزعوه من السفود ووضعوه فى غطاء ، ثم أخمدت النار ، وبارحوا المكان ، وبات كل شىء عندئذمعتما ساكنا ·

ونادى جان ـ فيليب بصوت خافت : « آنيت » ·

فردت عليه قائلة : « ها أناذا » · وكان صـــوتها مضطربا · ثم أجهشت بالبكاء ونشجت ، ولم تشل الدموع عزيمتها فى تلك الأثناء فتفاهمت هى وأخوها على عجل ، ثم تعلقت الفتاة بشجرة الصنوبر وتسلقتها وانتقلت منها الى شجيرة الزان وأطلقت سبيل أخيها · وكان عملا مضنيا فى الظلام وفى شبكة من الأغصان ·

واستلقيا بعد ذلك على الأرض منهوكى القوى ، لا يغمض لهما مع ذلك جفن ، كل يصف للآخر ماعاناه من رعب ، وتبينت آنيت فحسب أن سوءا أصاب جان ـ فيليب لكنه لم يكن ممكنا من ناجيتها أن تنفذ فى الليل الى مقربة منه ، وقد تحدثا عن قطاع الطرق وعن أن سكر هؤلاء قد كان فيه حظهما ونجاتهما ، وقد قال جان ـ فيليب كمن له فيما قال خبره ، قال : « من المؤكد أن يزاول المرء الشنق بأسلوب آخر اذا كان صاحيا » • ثم تكلم عن الرجل ذى اللحية الذى ربط الحية بحيث تعذر أن تطبق على عنقه فلم يلحظ ذلك أحد من السكارى •

وكفا عن التفكير فى التنقيب عن الكنز ، وأرادا فحسب أن يستجمعا شيئا آخر من القوة وعندئذ يجب أن يتابعا الهرب •

وأثار اختفاء التوأمين وأشيائهما النفيسة ضجة وشغلا كثيرا فى فرينكش ـ كرومباخ ، شغلا على الأخص للألسن مافى ذلك شـــك ، ذلك أن الفصل كان فصل العمــل العاجل فى الارض • فلم يكن خفير الزراعة يحب بحال أن يهمل قطعة أرضه الضئيلة ليطارد طفلين فى الدنيا الواسعة • وليس من الممكن بحال أن تعرف الوجهة التى اتخذاها • وقد أبلغت الحـــالة الى السلطات الرئيســـية ، وهذه أثبتته فى صحيفة البحث وأجـــرت بعض التحريات ، فى تهاون مع ذلك • وفى تلك الأوقات المضطربة كان لدى الناس مايشغلهم أكثر من أن يهتموا بمكان طفلين متسولين فارين ، ولعله أيضا ، لعدم التأكد من اجراءات السلطات ، قد تلاشى فجأة ماسبق أن وجهته الجهات الحكومية من اهتمام بالتوأمين كما نشأ فجأة ، ولعل هذا الحادث جاء مواتيا للتخلص نهائيا من اضبارة غير مريحة •

. . . .

وبعد ذلك بسنين طويلة ، فى مايو ١٨١٢ وقفت ذات مساء

أمام حانة « الحمل » فى فرينكش ــ كرومباخ مركبة خفيفة ذات كبود يسوقها سائق يرتدى بذله عسكرية فرنسية • وقفز من المركبة ملازم ثان أسود الشعر فى ميعة الصبا يرتدى بذة تبرق من جدتها يظهر أنها جهزت من عهد قريب ، وأعان سيدة شديدة الشبه به على الهبوط •

وحملقت الخادم العجوز التى جاءت تهبط السلم الخارجى فى كليهما مشدوهة لكن الضابط ربت على كتفها وتناولت السيدة يدها ، واستفسر كلاهما عن حالها بلهجة أهالى اودنفاك وسألاها ألم تعد تعرفهما ، وماذا يعمل سادتها فصاحت العجوز : « ياللسيد المسيح ! ان التوأمين عادا ثانية ! » وتجمع فى الخارج أطفال جعلوا يحملقون فى المركبة ، ونادت الخادم آل العمدة ، وجاء الأخوة والأخوات يقفزون الدرج اليهما •

وفى المساء جلسوا جميعا معا فى غرفة الاستقبال • لقد لبثوا يتحدثون أسابيع أخرى كثيرة عن هذا المساء ، وكان هذا أو ذاك يطلب بين الحين والحين رؤية سجل الغرباء الذى قيد فيه الشاب اسميهما بخط شائق كخط الأطفال والقرويين لم يتمرن عليه كثيرا : « جان ــ فيليب كونت ليرانكو ، ملازم ومدام آنيت اشفان مولودة كونتيس ليرانكور » •

وتذكر الأخوان كثيرا من الحوادث واستعلما عن أناس وحيوانات • وكانا عندما يأخذان فى حديث مع أحد ــ لم تكن علاقتهما به اذ ذاك طيبة ــ لا يبديان فى الواقع أية حساسية ، وعلى المائدة كان جان ــ فيليب يضع أمامه يده اليمنى يبرق فيها خاتم الختم الذهبى العريض ذو الفص العقيقى الذى يعرفه الجميع بلاريب • لكنه اذا ناداه أحدهم بقوله ياسيدى الكونت أو ارتبك أمامه ضحك منه وقال : « ماهذا السيد الكونت الذى كان فى فرينكش ــ كرومباخ يرعى الماعز حافى القدمين ؟ » هكذا كان

مرحا سهلا مع الكل ، وكانت آنيت أيضا كذلك . لكنه لم يكن يضيف أحدا ، لأنه اذا كان الآن ذا مرتبة عالية فلم يكن مرتبه كبيرا ، اللهم الا السعوط الذى كان يجود به فيقدم للجميع حقه المعروف الذى كان لجده . وقالت آنيت للعمدة وهى تضحك : انها مستعدة اذا رغب لأن تعوضه عن فانوسه وفأسه ، فضحك هو أيضا وأبدى أنه استعادهما اذ وجدا ثانية فى ردونشتاين ولما يمض على هروبهما وقت طويل .

وجعل التوأمان يقصان حكايتهما ، كيف جاسا خلال الغابات بادىء ذى بدء بضعة أيام ، وكيف بلغا سهل الرين يتسولان منهوكين ، ويعيشان مما ينهبانه من الحقول وقد وقعا هناك على طابور فرنسى زاحف فقدم اليهما طعاما ومكانا فوق عربة الأمتعة وقد بقيا مع الجند برهة ، وسعيا الى أداء خدمات صغيرة من كل نوع واسترعيا فيما بعد انتباه ضابط مراسلة اتفاقا فأحضرهما الى أركان حرب الفرقة فراقاه وراقته حكايتهما وأرياه الخاتم ، فعرف رتبته العسكرية واعتقد البعض أنه يكتشف تشابها ، وأخيرا تلقيا شهادة شخصية ، ومثل هذه الشهادات تنجز بسرعة فى الجيش ويكفى أن يزكى فيها اثنان من الضباط شخصا ما ، وكان من اليسير تغير جهل التوأمين لأصلهما ، وظاهر أن الجد نزل أحيانا أيضا بنواح كانت تحتلها جيوش الثورة ، ولابد أنه كان ينتحل اسما غير اسمه ولم يجرؤ أن يفاتح الطفلين باسمهما واسمه الحقيقى كيلا يكونا سببا لكشفه بحسن نية فى مكان غير مناسب، وكيلا يدفعا بنفسيهما وجدهما الى الهلاك .

وكلف قومندان الفرقة كاتبا باعطاء التوأمين بعض الدروس، وأخذ فى البحث عن والديهما ، لكن هذا البحث ظل طويلا بلا نتيجة ، وأخذت زوجة الجنرال التى كانت ترافق زوجها آنيت

عندها ، وكانت ابنة سماك فأزهاها أن تكون فى صحبتها كونتس صغيرة ، وأخيرا أدخل زوجها الغلام فى مدرسة حربيه ، فقد كان الجيش الامبراطورى يحب حقا أن يرقى أبناء الأسر الكريمة ، والتقيا بعد ذلك برهة بأبويهما اللذين اهتـديا أليهما بعد جهود طويلة ، وكانا يعطيان فى شقيرين دروسا فى اللغة الفرنسية ، لكنهما ، وقد كانا يعانيان شـظف العيش كانا مع ذلك لا يزالان متمسكين بالأفكار العتيقة عن الطبقة والرفعة وينتظران عودة الملكية . ولم يريدا أن يفهما أن الطفلين شـبا فى نوع آخر من الوجود لا يمكن محوه ، وعاد جان ـ فيليب الى المدرسة الحربية وعادت آنيت الى هيئة أركان حرب الفرقة وتزوجت فى سن السـابعة عشرة من موظف فى القومسـيرية ، رجل من أصل متواضع ، ولم يرق هذا الوالدين ، لكن آنيت وقد كبرت ماكانت لترضى بغيره بديلا ، فلما تخرج جان ـ فيليب من المدرسة الحربية عينه قومندان الفرقة فى أحد آلاياته ، وهـكذا اجتمـع شـمل الأخوين ثانية . وكانت الفرقة تزحف نحو الشرق فرابطت برهة فى احدى الدور . وهنا سمعا من الصحف ومن الأحاديث بقطاع الطرق ، أولئك الذين كان شعب اودنفلد يسميهم الأوغاد والذين كانت قضيتهم تنظر آنذاك فى ميشيلشتات . وقد قيل ان زعيمهم له سمة من نار فى وجهه . لكنه لما كان ملثما دائما بلثام أسود لم يمكن القبض عليه . فطلب جان ـ فيليب أثر ذلك اجازة بضعة أيام ، وخرج الأخ والأخت فى طريقهما الى ميشيلشتات ليدليا بشـهادتهما ، ودار الكلام آنئذ كثـيرا عن قطاع الطرق وتسامع الناس ببيتين من الشعر كانوا قد كتبوهما على الأبواب بالطباشير بعد نجاحهم فى حوادث السطو :

نحن ثمانية نأتى ليـلا

ننتزع العجل من حضن البقرة

ونسلب نقـود القــروى

وقد ظلوا ينشرون الرعب فى النــاحية ، ونفــذوا فى نويكرشن الى بيت القسيس وضربوا القس لينبنـــورن وبنتيه وخادمتيه ضربا مبرحا أسال دماءهن ثم ألقـــوا بهن عراة مقيدة أيديهن وأرجلهن خلف الموقد حتى تطـــاير الدم على الحيطــان ، ثم نهبوا الى جانب الكثير قدح العشاء الربانى وعلبة القربان وكل مال الكنيسة ، واضطر مزارع فى برانداو الى ايوائهم أسابيع فى مخزنه ولم يجرؤ على الوشاية بهم ، فلم ينله وأهله منهم سوء فى مقابل ذلك بطبيعة الحال ، وقد زعم الناس رغم نفيه أنهم أهدوا اليه عند وداعه كيسا ذا علاقة من الحرير الأخضر مليئــا بانقطــع ذات الرأس المحفور عليها ، وبالريالات ذات التاج · وعند قروى فى مومنروت تسلقوا من الحديقة الى البيت نافذة المطبخ أثناء غيابه بالليل وهو يعدو الى برنزياخ ليحضر القابلة · ولم يكن بالبيت سوى امرأته الحامل وكانت على وشك الوضع وسوى أمها والخادمة · وجاء بالقابلة فوجد البيت خربا والصندوق الجميل محطما وساعة الحائط أنقاضـــا وفرش السرير منزوعا والكلب مذبوحا وقفص الطائر مفتوحا وخاليا · وكانت البياضات والملابس والأدوات الصفيح وبندقية القروى مفقودة ناقصة ، حتى ثياب الخادمة نهبت من حجرة السطح ، وكانت النسوة الثلاث قد هربن الى غرفة خالية أترسن بابها بالخزانة والسرير ، وفى هذا السرير وضعت القروية غلامها الأول يتملكها الغضب والرعب · وفى نيدرهوزن سطوا على طاحونة جردوها من كل غال ، بل انهم أرغمـــوا الطحان وأحد عماله تحت تهـديد غدارات معدة على أن يحملا عربتى يد بخير الأمتعة ·

ولأن الشعب كان يخشى انتقام قطاع الطرق لم يسع ولاة الأمور أيضا أن يصنعوا شيئا ضد هؤلاء ، وتفرق اللصوص بعد

ذلك وامتنعوا عدة سنين عن ارتكاب أى شىء ، لـــكنهم عادوا بعد ذلك فاجتمع شملهم ثانية ، وقد كان كل من فى حانة « الحمل » يعرف من التفاصيل الجديدة مايرويه ٠

وخرج التوأمان فى الوقت المناسب فى صباح اليوم التالى وبلغا « ميشيلشتات » وطلبا حجرتين فى الفندق ، لكنهما لم يريا مندوحة عن الرضى بحجرتين فوق السطح لأن فصيلة من المدفعية الفرنسية كانت قد وصلت الى البلدة فى مساء اليوم السابق وأقامت يوما ترتاح فيه فشغل ضباطها جميع الغرف ٠

وتوجه التوأمان الى المحكمه وأدليا بشهادتهما ثم رجيا بعد ذلك أن يأخذا مكانا عند نافذة متحركة تفضى الى ممر محيط بفناء السجن ، واقتيد الرجال الثمانية واحدا بعد الآخر أمامهما فى تؤدة وهم يرسفون فى الأغلال ، وطلب الأخوان أن يعاد عرض بعضهم لأنهما لم يكونا واثقين من أمرهم ، على أنهما لم يستطيعا أن يقولا شيئا أكيدا عن ستة من هؤلاء النـــاس ، لكن اثنين منهم كانا قد انطبعا فى ذاكرة جان ـ فيليب بحيث كان خليقا أن يتعرف عليهما ثانية بعد عشرات السنين ، كان أحدهما الرجل الذى كان يحمل اللثام الاسود يستر به دمغة النـــار ٠ فقال مستشار المحكمة : «شهادتك تكفي ياحضرة الملازم ، فهى تدينه» وكان الآخر هو ذلك الرجل ذا اللحية الذىوخط لحيته الحمراء فى تلك الأثناء عدد من خيوط المشيب ، مافى ذلك شك ٠ وقد تساءل جان ـ فيليب بينه وبين نفسه : هلا يستطيع أن يمد اليه يد المساعدة بأن يزعم بأنه لا يعرفه ؟ لكن هذا ماكان ليجدى شيئا ، وقد سمع أيضا أن الرجل اعترف بنقط كثيرة من الاتهام ، وهنا آثر أن يتكلم فى مصلحته ، وهكذا وصف كيف عامله يوهان آدم كروبتزرمان ، فقد كان هذا اسمه ، وقد كان التوأمان لطيبة

قلبهما وجهلهما بكل العرف القضائى يعتقدان اعتقادا جادا بأن علم المحكمة بهذا العمل الطيب لابد أن يكفى لانقاذ كروبتزرمان من حبل الشفقة ، بل لاطلاق سراحه .

واستمع مستشار المحكمة الى جـــان ـ فيليب فى التفات شديد ، وكان يرى أنه لابد من اثبات هذا فى المحضر ، لعله اذا اهتدى الى وقائع أخرى من هذا القبيل قد تقال كلمة فى مصلحة كروبتزرمان .

فسأل جان ـ فيليب فى لهفة : « فيطلق سراحه ؟ » .

فأجاب مستشار المحـــكمة : « معاذ الله يا حضرة الملازم . فالحكم بالاعدام أكيد فعلا . لكنه قد يسلم بأسلوب مخفف من الاعدام » .

فهبت آنيت فى وجهه بعينين يقدحان شررا ونفخت كالنمرة الصغيرة .

وصاحت : « وكونه أنقذ أخى من الموت لا ينفعه شيئا ؟ »

فأجابها مستشار المحكمة : « انى مقيد بالقانون ياسيدتى. لكن كيف ينسخ عمل طيب واحد عددا من الجرائم لا حصر لها ؟ »

فانحنى جان ـ فيليب فى برود وخرج مع أخته ، وقصد الى سادة مختلفين من المحكمة آملا أن يكسب فى أحدهم حليفا له ، لكن بلا جدوى ، قال بعد آخر زيارة له من هذا القبيل لأخته : « حسن . الآن ينبغى أن يرى العالم هل تصميم ضابط من ضباط الامبراطور أقل تأثيرا من كل هذا العرف القضائى فى ميشيلتات وذهب الى الضباط النازلين ، وتحامى أن يقص على القائد والكباتنة أكثر مما يجب لكنه سهل عليه التفاهم مع الملازمين والملازمين الثوانى الصغار .

وفى الليـــل طرق باب مأمور الســـجن وهو نائم فاستيقظ من نومه ليتبين على ضوء المصباح الكدربذلات فرنسية وكانت لأربعة من الجنود وأونباشى يحمل خرجا من الجلد والضابط الذى كان لابد من مرور السجناء أمامه وقت الظهيرة ٠

وقدم هذا الضابط اليه أمرا مكتوبا ، أمرا يحمل أختاما وطوابع ٠

فقال الموظف : « انى لا أستطيع قراءة الفرنسية » ٠

فأجابه الضابط : « هذا أيضا غير ضرورى ٠ فأنت ترى أن هنا اسم يوهان آدم كرويتزرمان فقدنا فى الحال اليه ، فعندنا أمر بأن نأخذه معنا ، فلابد أن يمثل هذا بالفعل أمام المحكمة الامبراطورية العسكريه فى ماينتس » ٠

فقال مأمور السجن : « سأحضر أحد سادة المحكمة » ٠

« ليس لدينا وقت لذلك ٠ هيا » ٠

وكان السجين مستلقيا على برش مشدود الوثاق الى سلسلة بالحائط ٠

وأمره جان ـ فيليب : « فك السلسلة » ٠

فاجاب المأمور بأن مفتاح السلسلة ليس معه ، فهو يسلم كل مساء فى المحكمة وهو ذاهب لاحضاره ٠ وتحول الى الباب ٠

واستبقاه الضابط ، لـكنه أرســـله بعدئذ الى الممر وأمـره بالانتظار وسيرافقه جنديان ، وحدق السجين فى الضابط والجنود بعينين واسعتين ٠

وقال الضابط : « كرويتزرمان · أتذكر صبى الماعز الذى قضى فى رودنشتاين بأن يشنق » ·

فتمتم كرويتزرمان فى اضطرابه ببضع كلمات غير مفهومة ·

« كرويتزرمان ، ماذا تريد ؟ أن تشنق فى ميشيلشتات أوتصبح جنديا من جنود الامبراطور ؟ » ·

فأجاب كرويتزرمان : « لن يطول خيارى » ·

« انى لن أستطيع تحليف رجل مقيد بالسلاسل ، فأسرع يا أونباشى » ·

فتناول الأونباشى الذى كان يحمل شارة جاويش فى المدفعية أدوات من كل نوع من جعبته الجلدية وفتح القفل وفك السلسلة· ونهض كرويتزرمان طليقا ومط أعضاءه ·

واستل جان ـ فيليب سيفه ووقف الجنود فى وضع الانتباه ·

ودعاه جان ـ فيليب أن يضع اصبعين من يده اليمنى على حد السيف وأخذ يتلو عليه بالفرنسية بكلمات يمين العلم ·

فقال كرويتزرمان : « انى لا أستطيع المتابعة · فقد مر على وقت طويل منذ أن كنت أعمل فى ميتزونانسى · »

وتلا جان ـ فيليب اليمين عندئذ بالألمانية ، وكان وقعها غير ملائم ، ذلك أن صيغة التحليف كانت أطلق له بالفرنسية ، ولابد له من ترجمتها الى الألمانية جملة جملة · وأدى هذا فى وقار وفى مسرة ماكرة مع ذلك · فهو من لم يعرف ولا يريد أن يعرف شيئا من مقتضيات العدالة ، كان يحدوه تصور ساذج بأن تصرفه سيكون بهذا التحليف أقل تعرضا للطعن ، بل لعله يكون خلوا

من اللوم ، لكنه وان كان هــذا التصرف لطمة لــكل عدالة فقد كان التوأمان من الصغر متفقين ، قد علمتهما تجارب الطفولة الا خير أبدا لانسان من جهة حكومية حضرية ، وأن لكل امرىء الحق في أن يرى في السلطات عدوا له وأن يخاصمها .

ولما فرغوا مد الى كرويتزرمان يده وقال : « هيا » .

وفي الممر رجاه المأمور أن يدع له الأمر المكتوب وأن يعطيه ايصالا بتسلم السجين .

فرد عليه جان ــ فيليب : « لا حاجة الى ذلك . فقط صباحا ستبلغ المحكمة كل مايلزم » .

وانصرفوا ، لكن الجنديين بقيا هناك ساعة أخرى ولم يسمحا بابتعاد المأمور . وقد لاحظ هذا أن رائحـــة الخمر تفوح منهما قوية .

وفي الصباح الباكر ظهر مستشار المحـكمة هائجا عند قائد الفصيلة الذى كان جالســا يتنــاول طعام الافطار مع ثلاثة من الضباط على عجل ــ ذلك أن الخيول كانت مسرجة وكانت بطاريتان قد تحركتا بالفعل . وأراد مستشار المحكمة في فرنسيته العسيرة أن يروى حكاية طويلة ، لكن القائد تبرم به وقال له ان عليه أن يذهب الى حيث .. أفلا يرى أنهم على عجل ؟ . فاذا كانت عنده شكوى فيستطيع أن يقدمها كتابة .

وترتب على ذلك آنئذ شكوى تحريرية مستفيضة من الطريق الرسمي الى حكومة الغراندوق ، ومن هذه الى المفوض الفرنسى العسكرى فى دارمشــتات ، وكان الكـــلام فى الشكوى يتناول الاكراه والخداع واطلاق سراح سجين بالقوة ، ودارت من جرائها مكاتبات أخرى عديدة تعطلت فى بعض الجهات أمدا طويلا جدا

دون سبب ظاهر لكنها من ناحية أخرى ودون سبب ظاهر أيضا حركت بسرعة مذهلة • لكن هذه الحالة كانت أندر وأخيرا فى الأيام الأولى فى نوفمبر ١٨١٣ جاء رد فحواه أن الملازم الثانى الكونت ليرانكور والجندى كرويتزرمان سقطا قتيلين فى مالو ـ جارو سلافيز ، وكانت هذه احدى رسائل وردت أخيرا الى دار مشتات من الجهات الرسمية الفرنسية • ذلك أنه حوالى هذا الوقت ألغى الغراندوق المحالفة الفرنسية وانضم الى الجانب الآخر •

وكانت قضية أخرى فيما يتصل بكلا الشخصين العسكريين الآنف ذكرهما مرفوعة أمام سلطات هس القضائية على مدام ايشفين المولودة كونتس ليرانكور للتحرى عما اذا كانت هذه لم تقترف شيئا من المحاباة أو المساعدة أو التحريض ، وكانت مفوضية هس فى باريس قد تولت هذه المسألة أيضا الى جانب مسائل أخرى عديدة • وأخيرا ، وكان ذلك فى سنة ١٨٢١ ، أمكن تبليغ دارمشتات أن أخت الضابط القتيل الأرملة تبعت زوجها الثانى المزارع بأسفير الى الهند الغربية وماتت هناك بالحمى الصفراء بعد الانتقال اليها بزمن قصير وحفظت الأوراق على الأثر •

طبيب الرمـــل

« Der Sandarzt »

أسماء الشخصيات :

ديبلنجر	Dipplinger
فيرا لفوفنا بلكينا	Wera Lwowna Bulkina

كان ديبلنجر يدرس الطب ، أثقلته الديون ولم يصـــل الى نهاية الدروس ، وهذا معروف ، وكان أبوه وهو تاجر فى أنجولز شتات يلح فى أن يختم دراسته ، وكان الجيش قد أعد لخوض غمار الحرب والزحف على الروســـيا لأن الملك مكس يوسف كان حليفا لامبراطور فرنسا فانخرط ديبلنجر كغيره من الطلبة كمساعد طبيب، وشاء له سوء الحظ أن يقع فى الأسر ، لكن لا ينبغى أن نتعجل الحكم على الحظ وسوء الحظ ٠

كانت رتبة ديبلنجر هى رتبة حامل العلم ، وحامل العلم عند الروس ضابط كما هو معروف ، فعومل ديبلنجر بوصفــــه ضابطا وأخذ عليه عهد بكلمة الشرف ، وعينت له المدينة الاقليمية برجوشوف مقاما ٠ وكان عليه أن يقطع اليها أياما كثيرة جدا ليصل اليها ٠٠

ولا حاجة بنا الى وصف مدينة برجوشوف الاقليمية ، فهى بالضبط كغيرها من مدن الأقاليم التى لا تحصى ، ولا حاجة بنـــا فى الحقيقة أيضا الى وصف ديبلنجر فقد عرف كل انسان أمثاله ، وعلى كل فيمكن أن يقال عن برجوشوف انه كان فيها بين كثير من البيوت الصغيرة الواطئة بيت خشبى مكون من أربع طبقات ، يقع على الجانب الغربى من ميدان السوق قبالة ادارة المركز ، وقـــد بنى قبل سنين طويلة على مزاج عجيب ، فقال المحافظ اذ ذاك ان كل غطرسة الانسان بدأت ببناء برج كبرج بابل ٠

وتحول البيت بعد ذلك الى بيت للايجار ولم يكن مستحبا جدا لأنه من ذا الذى يحب أن يشقى بصعود الدرج ، وهكذا لم يسكنه أناس محترمون جدا ٠٠ وكلما علا الصعود اليه كلما قلت الرغبة فى سكناه ٠٠ وكانت تسكن فى طبقته الرابعة أرملة مسجل محاضرات وقد استأجر ديبلنجر عندها حجرة ، ولما كان يميل الى البدانة بعض الشىء فانه لم يكن يحب صعود الدرج ، وكان يشكو شقاء الأسر ، ومع ذلك فهو قنوع لأن حياته فى برجوشوف كانت أكثر راحة له منها فى الألاى ٠٠

وكانت الأرملة مرتاحة اليه ، فقد كان يتحلى بالهدوء ولا يؤذى أحدا ٠٠ وكان الساكن الذى سبقه قد أضاع عليها ايجار شهرين ، فرأت أنه أكفل لأمنها أن يكون الساكن من الأسرى ، لكن خيب ظنها أن بقى الأسير طليقا لا تقيد حريته ، هذا الى أنه قد بدا لها فى الوقت نفسه بادىء ذى بدء أن من المخاطرة أن تؤوى فرنسيا فى بيتها ٠

وقد سألتها امرأة البدال ـ وهى تشترى منها ـ عن الساكن فأجابتها :

« انى والله لا أكذب فهو مثلنا تماما » ٠٠ ولعلها كانت تظن أن للفرنسيين قرونا تنبت فى رءوسهم أو أن لهم ستة أرجل ٠٠

وكان ديبلنجر يعد فرنسيا كما لابد أن تكونوا قد لاحظتم ، لأنه ما الذى يعلمه المرء فى برجوشوف عن بفاريا !٠٠ ولقد أسر حقا فى الحرب الفرنسية ٠٠ وكان لهذا مزايا لكن كانت له مصاعب أيضا ٠٠ ومع ذلك فمزاياه ترجح مصاعبه ٠

كان مسموحا لديبلنجر أن يتحرك داخل المدينة وفى محيطها ٠٠ لكن كان عليه أن يتوجه الى المخفر الرئيسى ظهيرة كل يوم ليبلغ عن نفسه ، وكان بالمخفر كابتن أعرج خدم تحت امرة سوفوروف ، ومن ثم كان يعد حجة فى كافة الشئون الفرنسية ، وقد سأله بعض

الطلبة عن ديبلنجر ، وحدث أيضا أن أحدهم رجاه أن يكون مترجما له فى هذه المسألة أو تلك ٠٠ وأخيرا قال بروما انه يصعب عليه التفاهم معه ، فان الطبيب الفرنسى يتكلم لهجة بعينها يطلق عليها الناس لغة معينة ٠٠

وكان فى برجوشوف طبيب مدمن للخمر ، أوهنته السن وأضعفت ذاكرته ٠٠ وقد زار ديبلنجر لأنه كان يرى أن من واجبه أن يجامل زميلا ، وكان الى ذلك يضجره أن أحدا لم يعد يصغى الى نكاته التى تقادم عليها العهد ، وأراد أن يتكلم مع ديبلنجر بالفرنسية لكن ديبلنجر كان ضعيفا فيها ، ولما كان مايزال يعرف من أيام المدرسة بعض اللاتينية فقد قال له : « أتفهم اللاتينية ؟ » ٠

فنظر اليه الدكتور مرتاعا ٠٠

فسأله ديبلنجر : « عالم لا يعرف اللغة اللاتينية ؟ » ٠

فتلعثم الشيخ مرتبكا : « أعرف ، أعرف » ٠ وقال له ديبلنجر انه لا يليق فى الحق بالعلماء أن يتكلموا اللغة نفسها التى يتكلمها نجارو التوابيت وعمال النقل ٠٠

ومضيا يتحدثان قليلا بعدذلك ، ولميقل أحدهما للآخر مايرغب فى الحق أن يقول ولكن قال لمن له اتفاقا : بضع عبارات ٠٠ وبهذه الغرابة كانت تحكم أيضا فى العادة الأحاديث التى كانت تجرى بين ديبلنجر وأهالى برجوشوف ٠

وقد رأى ديبلنجر أن من المهم عنده تقريبا أن يتكلم الفرنسية بدلا من أن يتحدث بالروسية ٠٠ فجاء ببضعة كتب ، لكن التحصيل لم يكن عنده سهلا قط وهكذا لم يتقدم كثيرا ، وكان كلما جلس بكتبه عند النافذة تاهت نظراته وأطلت على ساحة السوق المترامية الخالية حيث يتمرغ الخنازير والأطفال فى القاذورات وحيث يتدرب

رجال الجيش على وقفة الانتباه وتتزاحم مركبات القرويين دون أن تبدو الساحة من جراء ذلك أملأ مما كانت ، وكان ديبلنجر الى ذلك يدخن غليونه أو يقزقز لب زهرة الشمس ويبصق القشر على الارض، وسرعان ما أعتاد هذه التسلية •

وتلقى ديبلنجر عروضـــا عــديدة باعطـــاء دروس فى اللغة الفرنسية ، وفى الرقص وفى التعريف بالاشكال الدنيوية الراقية لأنه وقـــد اعتاد الناس أن يذكروه بكلمة «فرنسينا» كانوا مقتنعين بحذقه لهذه الامور الثلاثة ، ويجــدون فى أسلوبه شـــيئا فرنسيا أصيلا • وقد وجد عناء فى دفع هذه الفروض عن نفسه •

وكان يدعى كثيرا ويضـــيف بسخاء فكان من ثم رخى العيش اللهم الا أن الجعة لم تكن تبدو له سائغة المذاق ، وأخيرا تعلم أيضا أن يجعل نفسه عند الحاجة مفهوما ، وقد كف من أمد عن الذهاب الى المخفر الرئيسى • ذلك انه كان يضجر الكابتن المسن أن يراه آتيا كل يوم وأن يضطر بعد ذلك الى أن يسأله الناس عما قاله الفرنسى عندئذ •

وهكذا رتب أن يرسل ديبلنجر كل يوم اقرارا كتابيا مع ابن أخ صغير لمضيفته لقاء ستة كوبكات في الاســـبوع • وقد بدا هذا أيضا مع الوقت أكثر مما ينبغى ، وهــكذا اتبــع أن يمهر الكابتن الاقرار بامضائه مرة واحدة ويرده للغلام ثانية فى الحال فى المخفر الكبير • وليس سوى التـــاريخ ما يغيره كاتب الكابتن كل يوم • وهكذا تظل البطاقة معمولا بهـا دائمـــا حتى يغطى وجهها وظهرها بالتواريخ المشطوبة أو حتى تتسخ الورقة من أصابع الغلام الرسول ويعلوها قتام السواد وعندئذ تبـــدأ بطـاقة جديدة ، وأخيرا بقيت البطاقة ببساطة فى المخفر ، وفى كل شـــهر يثبت الكاتب كل أيام التقويم على الظهر ويزودها بالاختام ، وكان كل أحد يجد هذا على ما يرام ماعدا الغلام الرســول الذى هبط دخله الشـــهرى الى ستة

كوبيكات من أربعــة وعشرين ٠ وفى العشرين من كل شـــهر كان ديبلنجر يذهب مرة الى المخفر ليتلقى مخصصاته كأسير ٠

ولقد كان من العسير الاكتفاء بهذه المخصصات ، لأن ديبلنجر لم يكن يحب التقتير ، لكنه لم يحتج الى هــذا أيضا ، فقد كفى أن يتسامع الناس بأن الفرنسى طبيب حتى يهرع اليه بعض المغامرين، وأية امكانيات كانت قائمة فى مدينة برجوشوف لقضـــاء حاجة من يبغى أمرا ؟ وقد تلا الواحد الآخر ٠ ولما كانت امرأة رئيس البوليس تشكو من برد فى المعدة ومأمور المركز النبيل يحتاج الى مرهم جديد للروماتيزم فلم يسأل عن الدواء اللازم طويلا ٠

وكان الطبيب الشيخ يحب كثيرا أن يخفف عنه العمل وخاصة فى الجــو الردىء ، فطلب ديبلنجر مرارا الى استشارة وأعد لذلك بضع جمل لاتينية سلفا ، وهكذا أختلط الاثنان اختلاطا يبدى فيه كل منهما حيال الآخر أهميته وعلمه وأدبه ، لكن الشيخ لاحظ على عكس ما توقع ـ لاحظ مع الزمن أن التيسيرات التى حققت رغبته فى الراحة كانت على حساب شعبيته وسمعته الطيبة ٠

لقد كانت معــارف ديبلنجر متواضعة ، وكانت حسب الجنود عند الضرورة ٠ وهؤلاء لم يكن يجوز لهم أن يشـــكوا ، وكان حظه طيبا لان أهالى برجوشوف كانوا شعبا صحيح البدن سليم الجسم يتخلص من أمراضه بســـهولة ، لكنه كان بين ظهرانيه أيضا أناس كانوا يشعرون بأنهم غير راضين كل الرضى ، وخاصة بعد أن خفت الشهرة (المودة) الفرنسية الاولى بعض الشىء ، هذا الى أن الطبيب الشيخ كان أخيرا يطوف ويبتسم بسوء نية وبصورة غامضة ويقول:

« ينبغى أن يرى الناس فعلا الى أين هم مسوقون » ٠ يلمح بذلك الى شكوى قدمها الى المحافظ وجاء فيهــا : تفضلوا ياصاحب الســعادة بالعلم الكريم بأن أساس طبه ليس العلم الحقيقى ، علم

الوطن ، بل مزيجا من الشعوذات الاجنبية • ومن يدرى اذن ألا يكون محرضا من أهله على تقويض صحة الشعب الروسى بصورة ماكرة ؟»

وكانت آنذاك تعيش فى الطرف الشمالى الشرقى من مركز برجوشوف بعيدا جدا عن المدينة ، مالكة أطيان شابة ثرية اسمها فيرا لفوفنا بلكينا ، كان على زوجها اثر عرسه مباشرة أن يلتحق بالجيش فلقى حتفه فى أول اصطدام مع العدو ، وكانت تنتظر مولودا ، فلما حان الوقت انتقلت الى بيتها فى مدينة برجوشوف ، وكانت تعيش لحدادها معتكفة كثيرا عن الناس ، ولم يكن اتصل بها خبر وجود طبيب فرنسى اذ ذاك بعد ، وكان فى نيتها أن تستعين بالطبيب المسن ، وبدا أن الولادة متعسرة ، وكابدت الشابة بلكينا آلاما مبرحة ، وتباطأ الجنين فى الخروج واعتقدت المرأة الشابة ألا نهاية لعذابها •

وكانت ساعة متأخرة من الليل ، والطبيب يغالب النوم فقال أخيرا : « لا فائدة ولا بد من الصبر • فليكن الله فى عونك أيتها الأم • انى رجل مسن ويجب أن أكون فى فراشى فغدا صباحا لا بد لى من السفر » ••

وعبثا توسلت اليه كل النسوة اللاتى يتبعن بيت بلكينا أن يبقى ، وانضمت اليهن القابلة نفسها •

وانصرف ، وكانت الشابة فى ألم المخاض بحيث لم تحاول استبقاءه ، وجعلت النسوة يندبن ويلغطن ، وتحدثت احداهن عن الطبيب الفرنسى فقالت انه لا ينعس كما يفعل المسن ، واذ بدأت الكلام عنه فقد مضت أيضا تحكى عن معالجات عجيبة قيل انه قام بها • قالت انه يفهم وصف المساحيق والنقط ، فلا يكف المرء عن العجب منه !• انه ليكتب الوصفة فلا يحتاج الصيدلى الا الى التركيب ويهب الله عندئذ الشفاء » •

وأمرت الشابة بلكينا فى النهاية وبصوت واهن باستدعائه ، وتناولت العجوز التى أثنت عليه شالها وخرجت تطلبه ، وكانت ليلة عاصفة فى أواخر شهر مارس، وكان الثلج يتساقط من الاسطح فيقع وقعا أصم وكان الماء الذائب يبقبق تحت قدميها ٠

وكان ديبلنجر قد أفرط فى المساء السابق فى الشراب أكثر مما اعتاد ، فكان نائما يأبى أن يستيقظ من نومه ، لكنه وسط أحلامه كان اسمه يتردد فى نداءات متلاحقة ، وأخيرا استيقظ متضايقا، وأضاء النور بينما انقطع النداء وتوجه الى النافذة، وفتحها متعبا فكادت العاصفة تنتزعها من يده التى كانت ما تزال خدلة من أثر النوم ، وكان على العجوز الواقفة تحت فى الساحة أن تجهد صوتها وكانت الريح تطير كلماتها من فيها ٠

كانت تصيح : « أيها السيد الأمجد ! أيها الدكتور المحترم ! بحق المسيح ارحم ! ان فيرا ليفوفنا يتعذر عليها الوضع !»

واستمرت هذه الحال طويلا حتى أدرك ديبلنجر الوسنان جلية الخبر ٠ فصاح حانقا : « أى وضع اذن ؟ أرسلوا فى طلب القابلة ٠٠ فلست مولدا !٠ وفى وسط الليل !٠ وفى جو كهذا الجو ! » ٠

فجعلت العجوز تشكو وتتودد وتتوسل ، وهى تحاول فى غضون ذلك أن يطغى صوتها على عواء العاصفة : « ان الزوج قد مات ، فهى وحدها كالاصبع الواحدة ، كشريحة الخبز المقطوعة ٠ أفتريد أن تترك الاسرة كلها يحل بها الدمار ٠ ان أجرك على الله»٠

وأحالها ديبلنجر الذى لم يسبق له قط أن عاون فى ولادة على الطبيب المسن ٠ وأحس وهو يرتجف فى قميصه عند النافذة المفتوحة من البرد بأشد كراهية للتوليد وللمرأة وللطفل وللجو ولكل

شيء على الاطلاق فيما خلا سريره ، وقد كان يشتم ويسب · لكن العامة تحب الاطباء الافظاظ وتضع ثقتها فيهم ·

وعادت العجوز تنادى : « أيها الأب الصغير ! · أيها المحترم! · ان لك لضميرا في الحق ! انك لن تترك سيدتنا تقضي · أيها المحسن الينا ! أيها العائل لنا · لست فى حاجة الى المجيء · صف شرابا ·· صف مسحوقا ·· اكتب وصفة ، فقد منحك الله هذه الهبة · »

فزمجر ديبلنجر أخيرا يقول : « اذن حسن ·· وصفة باسم الشيطان انتظرى ·· »

« انى أنتظر ، انى أنتظر ·· أكتب فقط وصفة كما تشاء سيادتك » ·

فأقفل النافذة وتناول جرعة من الماء لينتعش ثم جلس الى المائدة وعز عليه أى خاطر · وأخيرا كتب مسحوقا بوصفه مقويا ومهدئا بوجه عام ، ولكى لا يلفت نظر الصيدلى حينما يطرق بابه ويخرج من بيته وسط الليل من أجل وصفة كهذه · وزاد على الوصفة أشياء أخرى حلوة ومرة لا يمكن بالتأكيد أن تضر ·

ووقع باسمه تحتها وذر الرمل فوقها · وذهب الى النافذة · لكن صعوبة نشأت اذ ذاك ·· فكيف يستطيع بحق الشيطان أن يوصل الوصفة الى يدى هذه المرأة اللعينة ؟·· أيلقى بها اليها من النافذة ؟ ·

مستحيل ·· فلا مناص من أن تقتنصها العاصفة وتذروها فوق نصف المدينة · وباب البيت متربس بالمتراس ، وهبوطه فى هذه الليلة درجا يمتد أربع طبقات ثم صعوده اياه كرة أخرى كان فى الحق ينغصه ·

على أن خاطرا خطر له والحمد لله ، فقد جعل من ورقة الوصفة

قرطاسا ملأه بالرمل الدقيق الذهبى اللون الموضوع الى جانب المحبرة فى علبة خشبية للتجفيف • فثقله كاف لايصال الوصفة الى الارض، وعلى كل فقد سد القرطاس بختم ختمه به •

وصاح : « هيه ! انتبهى ! انه آت ! »

ورمى اللفة فى الظلام الى أسفل وسمعها وهى ترتطم بالارض، وقطع الثرثرة الباكية العامرة بعبارات الشكر بأن جعل المرأة تزوده باسم الواضعة وعنوان مسكنها •

وصاح : «أجل ، أجل ، لا مانع • فقد أمر وأرى كيف حالها• طاب ليلك •• والى حيث ألقت !•• »

وأقفل النافذة ، ورجع الى فراشه ، ثم لم يلبث أن غلبه النعاس مرة ثانية ••

وفى الصباح جاء المولود الى الدنيا فتاة صحيحة البدن تكاد تبلغ زنتها أحد عشر رطلا ، وهو ما يجب أن يذكر معه أن الرطل الروسى أقل من الرطل الالمانى والا لكان هذا بالنسبة لفيرا لفوفنا مصابا •

وكانت النفساء لا تفتأ تصيح : « يجب أن أراه ! يجب أن أراه !• احضروه الى هنا •• أريد أن أشكره » •

وفى صحوة النهار خرج ديبلنجر كارها فى طريقه اليها يخشى بعض الشىء ألا يكون الوضع قد تم على ما يرام ، وقد هدأت عاصفة الليل وصفت السماء وطلعت الشمس صفراء فوق الثلج الهش ، وانعكست أشعتها براقة فى نقر المساء ، وداخل ديبلنجر من الهواء العليل ومرح الطيور المرفرفة الجناح بعض التخفيف وبعض الثقة •

وانظر •• لقد استقبلته النسوة فرحات معظمات ، ولاقينه بالكثير من الصيحات والكثير من الثرثرة ، وتزاحمن من حوله ،

وقبلت العـجوز التى أزعجته من نومه يديه ، واستنزلت من السماء كل بركة عليه ، وأرينه الطفلة التى لم يجد فيها مايخالف أى مولود حديث من مدينة أنجاشتات الى برجوشوف ، واقتدنه على أطراف الاصابع الى النفساء ٠٠ ونحت احداهن الستائر قليلا ، فاذا بالمرأة الشابة راقدة مستغرقة فى النوم فوق سريرها المصنوع من خشب الموغنا الجميل الذى كان محلى بصور أطفال الملائكة ٠

وكانت ما تزال شاحبة اللون قليلا ، وزاد من هذا الشحوب فى صورة مؤثرة شعرها الاسود الجميل المائل الى الزرقة ، المجدول ضفيرتين سميكتين ، تجعل ديبلنجر يتأملها راضيا ، ولم يلبث أن داخله الشعور فجأة بأنه أحسن صنعا ٠

وتراجع حذرا ، وكتب فى الردهة بعض وصفات أخرى، وأوصى لتقويتها بنبيـذ البرتو مـع البيض النيىء ، وقال انه سيعود عما قريب ٠

وأعانته العـجوز على ارتداء معطفه وهى تكيل له آيات الحمد المؤثرة وكانت تقول المرة بعد المرة : «يا للمسحوق الذهبى الجميل ٠٠ لتعلم ياسيدى الدكتور أن قوة الشـفاء الحقة ، الحقيقية ، هى فى الذهب ، فقد دبرت السماء هذا من قبل » ٠

فسأل ديبلنجر متعجبا : « فى الذهب ؟ كيف فى الذهب ؟»٠

«لكن كيف اذن ياسيدى المبجل ؟ لقد كان ذهبيا هذا المسحوق الطيب الذى تفضلت بالقائه من النافذة ٠ ذهبيا كالذهب فى كنيسة الله » ٠

قال ديبلنجر : « كذا ، كذا ، نعـم ٠٠ نعم ٠٠ والآن كيف قدمته الى السيدة المحترمة ؟ »

فردت فى حمية : « فى مشروب الخنزير أيها المحسن ٠ فقد

فكرنا فى أن هـــذا الشراب أقوى من الماء ، فكنا نتاولها كل بضع دقائق بضعة صغيرة حتى نفد المسحوق ، فاذا بالمولود يأتى فى تلك الأثناء ، ويالها من طفلة عجب .. أيها الأب .. ستعطينى أيضا من المسحوق ، اذ يحين فى حوالى عيد العنصرة دور ابنة أختى » ..

لم يكن وضع فيرا لفوفنا السعيد بلا نتائج بالنسبة لديبلنجر وأقل هذه النتائج أنها ثبتت سمعته كطبيب ، فكان من ذلك الحين يأتى الى الأرملة ليطمئن على نمو الطفلة وصحة الأم ويساعد على ذلك ما أمكن ، ولمـــا كان ابن عم فيرا لفوفنا قد ألحق بالمحافظ كموظف مكلف بالقيـــام بمهـــام خاصة ، فقد تلقى الطبيب المسن ردا على عريضته لم يكن يتوقعه ، اذ استدعى الى خدمة الجيش ، وعهد اليه انشاء مستشفى فى عاصـــمة المحافظة كانت قد تبرعت به سيدة وطنية . وكان هذا تشريفا له وأمرا مواتيا فى الوقت نفسه ، وقد ألقى خطابه واجتمع له من بادلهم الأنخـــاب ، وحضر مجتمعه أيضا أناس لم يكونوا قـــد عرفوا بعـــد نوادره وفكاهاته ، ولم يؤد عملا كثيرا ، وفى ذات مرة جاءوا له باثنين من الجند تشاجرا ، وفى مرة أخرى بمجند كسرت ترقوته وهو يقفز ، لكن عاصمة المحافظة كانت من البعد عن ميدان القتال بحيث ان الجرحى الذين كان يراد موافاته بهم كانوا يشفون فى الطريق اليه اذا واتاهم الحظ ، فاذا ساء حظهم قضوا فى الطريق وفق تعليمات الخدمة السارية ، لكننا لا نريد أن نتعجل فى الحكم على الحظ وسوء الحظ كما سبق أن قررنا فى بداية هذه الحكاية . هذا الى أن الطبيب المسن لا يهمنا بعد ذلك ، والشىء المهم بالنسبة لنا أن طعنه فى ديبلنجر ذهب أدراج الرياح ، وفى ذلك الحين جعل ديبلنجر يحس أن رمل علبة التجفيف يحتوى فى الواقع ذهبا .

وعادت فيرا لفوفنا فى فصل السنة الجميل الى ضيعتها ثانية. فكانت كثيرا ما تبعث بمركبتها الى ديبلنجر ، فاذا سمحت له أعمال

مهنته ركب اليها ، ولم يكن مناص من أن يصـــدر له كابتن المخفر الرئيسى جواز مرور لمثل هذه الركبات مرة واحدة ، وتصادقت الارملة وديبلنجر ، اذ كان حقا شابا وجيها وسيما ، بل انه كان يفهم فى شئون الزراعة شيئا ما ، وكانت تتكلم الالمانية قليلا ، وأحرز هو مع الايام تقدما فى اللغة الفرنسية .

وانضم ملك بفاريا قبيـــل معركة ليبتسيج الى الحلفاء فبات ديبلنجر بهذا حليفا ، وبغتة لم يعد فرنسيا حقيقيا ، وهو ماوجده بعض الناس فى برجوشوف مخيبا لظنونهم بعض الشىء ، لكنه الى أن تلقت برجوشوف هـذه الاخبـــار والى أن استنتجت منها أشياء كاطلاق سراح الأسرى وما أشبه ، أستغرق الأمر وقتا طويلا جدا ، وهكذا لبث ديبلنجر وقتا طويلا آخر لا يزعجه أحد .

لكنه بعد ذلك لاحظ يوما أن عليه أن يقرر أشياء فهل ينبغى أن يعود حقيقة الى بفاريا ، وأن يزحف على فرنسا فى حرب جديدة ، وأن يجلس ثانية فوق مقعد المدرسة ليتلقى دروسا فى حماية البلاد، وأن يضايق نفسه بالدائنين وبالنصائح الأبوية ؟

وركب الى فيرا لفوفنا ليشاورها فى الامر ، وبدأ بأن قص عليها حكاية وصفة الدواء فارتمت على صدره مغرقة فى الضحك ، لكنها تنهدت بعد ذلك ومررت منديلها الدنتيلا الجميل الصغير على عينيها وقالت ان مربية طفلتها التى تفهم فى كشف الورق وتعبير الرؤى قد تنبأت لها دائما بأنهـا ستلقى فى الرمل شفاءها وهناءها ، والقرية التى لقى فيها زوجها حتفه تسمى بسكى ، وكان ديبلنجر يعلم أيضا ان اسم المكان هذا يطلق على شريط رملى من الارض .

وتزوجا فى سنة ١٨١٤ وترتب على ذلك أن عرفت فيرا لفوفنا كيـــف تدبر لديبلنـجر أن يصـــبح مديرا لاحـــدى مستشفيات بطرسبورغ .

فلما فرغت مزولة حياته الرملية كان قد بات فارسا يحمل نشان «أنى» ويشـــغل رتبة مستشار دولة · ويملك ضيعتين فى محافظة تفرش ·· ذلك ان الملك الموجود فى مركز برجوشوف أصبح من نصيب الابنة · وقد اختصته صحيفة سان بطرسبورغ الالمانية بكلمة رثاء مستفيضة · ونعتته بأنه رائد فاضل للروح الالمانية فى الروسيا ·

وقد وقع حفيـده الأكبر الذى لم يكن يتكلم كلمة ألمانية فى أسر بفاريا فى سنة ١٩١٤ · واذ كان بوصفه متطوعا شابا لا رتبة له فقد فرض عليه العمل فى مزرعة قروى · فلما انتهت الحرب بقى معلقا هناك ، وتزوج · والا فماذا كان خليقا أن يفعل فى الروسيا وقـــد رزق أبنا نشأ بفـــاريا ودرس الطب فى ســـنة ١٩٤١ فى ميونيخ · ودخل الجيش · ومن يعـلم كيـــف كانت حكاياتنا ستواصل اذا لم يعن لنا أن نختمها عند هذا الحد ؟ ·

الخيال القديم

« Der alte Husar »

أسماء الشخصيات :

Mawrikij Afanassjewitsch Terentjew

حافريكى أفاناسيفتش ترنتييف

Nikola

نيقولا

ان أحسن الحكايات كما نعلم هى دائما تلك التى كانت ماتزال تقع فى العصر الأوتقراطى ، ففيها شىء من روعة الخرافة والمجاز العتيق وهو مالا تستغنى عنه حكاية حقة • والسلطة ليست تجريدية ، وليست غفلا ، ففيها شخصية فى صورة الامبراطور • وفكر ماذا تصبح الأقصوصة اذا أوردت فيها بدلا من الملوك والأمراء والخلفاء رؤساء وأبناء رؤساء ومستشارين فى مجمع الكرادلة ، أو اذا خلص المرء أميرة ثم ظهر بعد ذلك أنها ابنة أحد مستشارى الاتحاد •

للمرء أن يقول ما يشاء ضد النظام الأوتقراطى فلن يرغب معظم الناس فى عودته ، والراجح أنه لم يعد يوائم عصرنا • ولو أننا خبرنا أن شعوبا بأسرها نزلت مسرورة عن حرياتها لبعض من قطاع الطرق والمهرجين ، فاذا طرحنا الشعارات والتصورات التقليدية جانبا ــ وهو صعب أو مستحيل لكثير من الناس ــ فيجب أن نقول انه توجد دوائر تاريخية وجغرافية للأوتقراطية لها ما يبررها ، والمصاعب لا تبدأ دائما الا حيث تكون مقتضيات أخرى قد تطورت على مر الزمن غير تلك التى تتم فى ظلها الظاهرة التاريخية المعنية ، وهى فى هذه الحالة النظام الأوتقراطى ، على أنه ليس ثمة ظاهرة تاريخية قادرة على أن تنزل طوعا ، بل على أن ترى أيضا أن من الممكن أو من الضرورى أن يحل غيرها محلها •

عندئذ تتصارع الأنظمة بعضها مع بعض الى أن تقوم بذلك الحياة التاريخية المرادة • هذا على الهامش ، فطبيعى أن الأوتقراطية كانت فى الروسيا فى وقت بعينه منطقية وضرورية ، وهى فى الحكايات ما تزال كذلك الى اليوم ، ذلك أنها فى الحقيقة صورة مما يجرى فى العالم ، فيجب ألا يرى المرء أن اساءة استعمال السلطة عن جهل من خواص بعض بعينه من أشكال الحكم ، وانى أؤكد لك أن مثل هذا يقع فى كل روضة أطفال وفى كل فصل من فصول المدرسة ، وفى كل عمل مصلحى أو تجارى ولا يصح الخلط حقا بين أوتقراطيتنا ونفس الحكم الملكى المطلق كما كان فى الأقطار الأخرى فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، ولم تكن تلك الأوتقراطية مفروضة ، فظل كل انسان يراها أبدا طويلا شيئا لا غبارعليه • وأخيرا كان الأوتقراطيون مجرد منفذين للقدر ، لكن القدر محق دائما ، وقل أنت نفسك : أينبغى أن يظل رجل كترنتييف يجزى حقا بالمناصب وتغدق عليه الألقاب ؟ •

لكنك لا تعلم مطلقا بعد من هو ترنتييف ؟ ، فلنتوقف هنا لحظة •

من الغريب حقا أن يشترط فى أناس بعينهم صفات بعينها لأنهم يحملون على ستراتهم جدائل بعينها ، فهناك تصور رومانسى عجيب « للهوسار » أو الخيالة • لكنه كبعض هذه التصورات من القوة بحيث أمكن أن يؤثر فى الحقيقة • وقد كان سلطان هذا التصور من الكبر بحيث انه اذا وقع فى ألاى من آلايات الخيالة أى حادث فاضح كان القومندان وكبار الرفاق يسعون أكثر مما يحدث فى جهات أخرى الى تسوية الحادث وكتمانه وما أمكنهم ذلك يقولون ملتمسين العذر نوعا ما وفخورين نوعا ما فخرا يكادون لا يخفونه : حكاية أصيلة من حكايات الخيالة ، كذلك سائر الناس كانوا حيال

الخيالة أكثر تسامحا منهم حيال من عداهم ، وأذكر لما كنت ماأزال حامل راية أن قومندان الآلاى اســتدعانى مرة وقال لى : « هذه الحكايات لا يجوز أن تقع ثانية ، فنحن هنا لسنا بين الخيالة » ، وطبيعى انه يمكن الاعتراض بأن أمثال هذه الأشياء يصح أن تقع بين الفرسان والفارعين من المشــاة والقوزاق وفرق المتســللين والمدفعيين العليمين حقا ·· لكن كان يوما ماشىء يســمى أسلوب الخيالة ، وطالما وجدت الخيالة كان ينتظر منهم صــفات الخيالة ويتوقع الاستهتار والطيش والجرأة وأيضا تجاوز للحد ينطوى على عدم المبالاة بتعليمات الخدمة · وهذا يتصل بالماضى البعيد ، ذلك أن الخيالة « الهوسار » كانوا فى الأصل لا ينتمون فى بعض البلاد الى الجيش النظامى ، فقد كانوا شيئا كرجال المقاومة أو كمغامرى الفرق الحرة ، يجب أن يكون الواحد منهم راقص مازوركا متوحشا خيــاليا خصب الخيــال ، فارسا جسورا ومعــاقرا لبنت الحان ومبارزا · يؤمن بأنه لا يمكن أن يصيبه شىء لأن للخيال «الهوسار» حظا معروفا ·

والحكاية التى أريد أن أقصها عليكم لابد أن تكون وقعت فى سنة ١٨٣٥ ، لان من شرائطها عادة كانت مرعية فى البلاط القيصرى وأبطلها نيقولا الأول فى السنة المذكورة · وكان هــذا الأسلوب الخاص ما يزال اذ ذاك منطبعا فى الخيالة « الهوسار » · وبهتت علاماته المميزة فيما بعد بطبيعة الحال ، لكن شيئا منها عاش حتى فى زمنى ·

وقد دخل مافريكى أفانا سيفتش ترنتييف ابن موظف مات مبكرا من موظفى وزارة العدل فى محافظة تفرشن ـ دخل تحقيقا لرغبــة وصــيه ، فتى من النبــلاء فى آلاى من آلايات خيــالتنا « الهوسار » ·

ولم يحبه الرفاق ، لأنه كان حريصا على واجباته ، حاذقا ، مستقيما لكنه كان اذا تناوله الحديث قيل عنه فى النهاية : « انه ليس خيالا » وكان البعض يضيف الى ذلك قوله : انه ينتسب الى قسم الطبوغرافيا ٠٠ ذلك أن أسلوب الخيالة كان ينطوى بطبيعة الحال على استهانة بعينها بالثقافة العلمية ٠

وهو نفسه لم يكن يستشعر الارتياح فى الآلاى ، فقد لاحظ أنهم يتبرمون ولا يختلطون به ٠ فلما مات وصيه أخيرا وأصبح هو برتبة حامل العلم طلب الاقالة ليدخل فى الخدمة المدنية ، فسر الآلاى أيما سرور بأن يتخلص منه حتى لقد زوده بأطيب الشهادات ثناء عليه ٠

وتوجه الى ســـان بطرسبورغ ووجد عملا فى وزارة المالية وتزوج ٠ وكانت الزوجة من أسرة موظف بالمالية وكانت مثله فى الراجح تبعث على الملل وعاشا دون أن يرزقا أولادا ٠

لكن كانت لمدام تريتنتييف أخت كبرى ٠ وقـــد قررت هذه الأخت مصير مافريكى أفانا سيفتش ليس ــ بلا ريب ــ بالمعنى الذى يمكن أن تقرر به بعض النسيبات الطروبات مصير بعض الأزواج ، وقد لاحظت عدا ذلك أن القدر لا يستخدم فى قراراته النسيبات الانادرا ٠ والحمد لله ٠٠ والا فالى أين يكون هذا خليقا بأن يفضى ؟٠

وواضح أن مافريكى أفانا سيفتش كان صالحا جدا لوزارة المالية ، اذ بات فى أمد وجيز لا يستغنى عنه فقد كان من أولئك الموظفين الذين يرسلون الملفات الى مساكنهم بعد الفراغ من العمل ٠

وكان فخورا بانه اعتاد أن يكون أول من يطأ أرض الوزارة وآخر من يغادرها فكانت حياته منتظمة أكمل انتظام ، كان يأوى الى فراشـــه مبكرا جدا ، وينهض مبكرا جـــدا ، وفى أيام الآحاد

يتناول ــ مراعاة لصحته ــ مشروبا روحيا قبل الغداء ويستمع بعد ذلك ثلاثة أرباع الساعة الى « البيان » تعزفه له زوجه ، ولم يكن من عادة آل ترينتييف الاختلاط بالناس ٠

وسرعان ما لحظ الوزير ما يحسنه مافريكي أفانا سيفتش فرفعه الى رئيس قسم ، وبقى برهة فى هذه الوظيفة ، فاذا بكتاب يأتيه من نسيبته وكانت قد تزوجت من موسر من أصحاب الأطيان فى محافظة كورسك ثم لم تلبث أن ترملت ٠ وكل امرىء يفهم أنها تتوق الى شىء من التغيير فى حيـاتها الريفية الوتيرة ، فأبلغت آل ترينتييف أنها قادمة للزيارة لقضاء عيد الميلاد والدخول فى السنة الجديدة ٠

وتفكيرها بالذات فى أن تمد اقامتها فى بطرسبورغ الى مابعد رأس السنة قد كان له سببه ، وقد سبق لى أن ذكرت أنه كانت اذ ذاك فى بلاط القيصر عادة بعينها ترجع فى الراجح الى عهود قديمة جدا فأرادت النسيبة أن تنتفع بهذه العادة طلبا للترفيه ، وفكرت أيضا بطبيعة الحال فى أن يكون لديها عند عودتها الى الريف ماتقصه على جيرانها ومعارفها ٠

وكان يحتفل بحلول العام الجديد فى البلاط على نحو مأثور بمرفع يقام فى القصر الشتوى ، وكان لكل امرىء ، أميرا كان أو فلاحا ، غسالة كانت أو أرملة جنرال ، حرية الدخول فى القصر دون أية رسميات ، كأنما أريد أن يكون الناس مرة فى العام على الأقل ، سواسية جميعا أمام القيصر كما هم أمام الله ، وأن يدخل القصر آخر الناس مرتبة كما يدخل أولهم فى العام الجديد الذى لا يعلمون ما يخبىء لهم ، وأن تقرب كل بداية لعام جديد هذا الفرد أو ذاك شقة أخرى من نهاية مقدراته على الأرض ٠

وكانت الحفلة التنكرية تجرى بحيث تقوم أسرة القيصر ومعها كامل الحاشية بجـولة فى كافة قاعات القصر الشـــتوى المخصصة

للاستقبالات والسمر مرتدين جميعا معاطف التنكر ، ثم يتعشى البلاط فى مسرح الارميناج بعد ذلك ، وهنا يجوز لكل امرىء أن يشهد العشاء ويستمع الى موسيقى المائدة • وكان الجمهور يبلغ الآلاف عدا فكان فى الوسع رؤية فراء الخرفان القروية الى جانب بذات الحرس ، والنساء فى عصبة الرأس بجانب السيدات فى زينة المجتمع ، وأحيانا يتعرض الناس فى الزحام للاضرار •

وكانت الحفلة تجرى فى الأصل بحيث لا يأتى كل أولئك الضيوف الا مشاهدين ، فتطورت مع الزمن بحيث أخذ البعض ـ تحدوهم روح الحفلة ـ يرقص وفى ثياب التنكر ، وكان بضعة من المهرة بين خدم القصر يقيمون المقاصف فى الغرف الجانبية البعيدة فيشربون ويأكلون ، ويرى بينهم سكارى ، بل ان المأثور أنه كانت تقع مخالفات أخرى حتى حمل طغيان مثل هذه الحماقات القيصر آخر الأمر على أن يبطل العادة •

وبطرسبورغ مدينة موظفين ، وفى حياة الموظف موعدان كبيران يعود أحدهما كل شهر وهو اليوم العشرون فتصرف فيه المرتبات ويعود الثانى مرة فى العام فحسب وهو عيد رأس السنة وهنا تستحق كل المكافآت وتعلن أيضا الترقيات والانعامات بالألقاب والنيشانات • وتوزع بالمناسبة أيضا أحقاق السعوط والخواتم الماسية • لكن هذا بدأ يصبح اذ ذاك عتيقا لا يتفق والشهرة الذائعة •

وفى كل من هذه الانعامات كان يجب أن يرشح المرء الى مرتبة أعلى ، وفى النهاية الى أعلى مرتبة • فالمرء ـ كما كانت لغة الديوان الروسى ـ يجب أن يقدم الى المكافآت • وكانت تعد العدة لهذا فى نوفمبر وديسمبر •

وهنا كان يرتفع لغط يسوده الانفعال وحب الاستطلاع فى

كل المصالح وكانت الأقسام ـ كل على حدة ـ تقدم مقترحاتها فيكثر السعى وتكثر الدسائس والتكهنات وتربو الآمال ، ثم يعرض الوزراء ـ كل فى دائرة اختصاصه ـ قوائمهم على القيصر يلتمسون موافقته .

ومفهوم انه كان بين زوار الحفلة التنكرية القيصرية موظفون عديدون وأن بين هؤلاء بدورهم كثيرون كانوا يعرفون بالضبط ما سيأتيهم به الغد من مكافأة ، ولهذا كان الزوار المتنكرون فى قصر الشتاء يتركون أنفسهم غالبا على سجاياهم متجاوزين الحدود كما هو الشأن فى العطلات .

وقد رغبت النسيبة من ثم فى أن تسهم فى هذا المرح فحاول مافريكى أن يصرفها عن ذلك بأن أكد لها فى الحاح أنها لن تجد شيئا غير الضوضاء والحر والزحام ، وأن المرء يقع هناك بين أناس أفظاظ من العامة ويتعرض لخطر الدفع جانبا فى الغدو والرواح ، ولا يرى أحدا من الأسرة القيصرية أو من الحاشية ، لكنه بدا أن النسيبة لم تتحول عما تريد ، بل ان مافريكى أفانا سيفتش اضطر الى أن يوجه الى زوجه اللوم فقالت : ماذا تظن ؟ أتريد أن تفسد على أختى سرورها . وهل تنسى أنه لا يجوز أن تعكر مزاجها ؟ انها تملك الأطيان وليس لها من ورثة أقرباء غير آل بترنتييف ! فكره الزوج أن يرد . فقد كان يرى بذلك الغلو ـ الذى اعتاد المستاء أن يقع فريسته ـ أن مثل هذا التغيير فى عاداته يمكن أن يقصر حياته بحيث أن أعظم ميراث يمكن ألا يعود ذا نفع له .

ولم يجد شيء .. ففى مساء الحادى والثلاثين من ديسمبر ركب مافريكى أفانا سيفتش مع السيدتين الى القصر الشتوى وهو أشد ضيقا على التحقيق من جميع موظفى الدولة ، وقد أنعم عليه فى رأس السنة الفائت بنيشان ورفعت درجته ، فلم يكن ثم من

شيء ذي شأن يتوقعه في اليوم التالي لكن كان ينتظره في مساء اليوم بالتأكيد كل تلك المضايقات التي وصفها لنسيبته ، وقد انتظرته حقا بعد مسيرة في هواء الشتاء المثلوج، وما أسهل أن يتعرض المرء لبرد خطر ، وفي طريق العـودة على الأقل ، ولو بقي في المنزل اذ ذاك لصح أن يجد الراحة في فراشه المعتاد ، وكان أمله الوحيد ألا تلبث السـيدتان طويلا فيلم بهما التعب فتطلبا العودة بالمثل الى البيت ٠

في هـذه الظروف ٠٠ ألح مافريكي أفانا سـيفتش على أن يخرجوا في الميعاد تماما ، وفي شيء من الحث المتواصل وصل الى أن يجري الأمر هنا على هواه وهكذا حداه الأمل في أن يدرك مأواه في وقت معقول نسبيا ٠

وجرى كل شيء في مبدأ الأمر مجرى حسنا ، فكان مافريكي أفانا سيفتش والسيدتان أول من ترجل من الضيوف عن الزحافة أمام القصر الشتوي ٠

وفي هـذا الوقت يجب أن يفكر في عادة من عادات البلاط تجري في ليلة رأس السنة ٠ وهي ترجع الى أيام القيصر اسكندر ، وكانت تقضي بأن أول من يدخل قصر الشتاء وآخر من يبارحه يسأل عن اسمه ومهنته ثم يبلغ الجواب عن هذين السؤالين الى القيصر في اليوم التالي ٠ لماذا ؟ ٠ هذا خارج عن الموضوع ٠

ولنفكر في بيت الشـعر الذي يحصي به الأطفال النجوم :

واحد ، اثنان ، ثلاثة

والأخرى واقفة معها

ولنفرض أن هذين الاثنين ، الأول والآخر ، يمثلان الجمهور الهائل العديم الاسـم ويجمعانه كما تحيط الألف والياء بجميع

الأحرف ، بل ان هذين لخليقان ألا يمثـلا جميع الضيوف فحسب في ليلة رأس لسنة ، بل كذلك شعبا بأكمله لا يحصى ولا يعد ٠

واذن فقد رجا ضابط منوب مافريكى أفانا سيفتش عند باب سالتيكوف أن يذكر له اسمه ، ودون هذا الاسم المحترم مع لقبه في سجل الحراسة ليعلن الى القيصر في اليوم التالى ، وبعد ذلك دخلوا ، وكانت القاعات ما تزال خالية فذهبوا يتسـكعون فى الصالات ، يتأملون النفائس وآيات الفن ، ويسر النسيبة أن كل شيء بعد الحريق أعيد ثانية بما يدعو الى الاعجاب ، وفى هذا التأمل حانت الساعة التى اعتاد مافريكى أفانا سيفتش أن يأوى فيها الى فراشه المريح ، وباتت الأبسطة المصورة والسجاجيد وفرش الأثاث التى كانت السيدتان تنعمان بالنظر اليها أقل استرعاء لاهتمامه على التوالى ، واستولى وسن قاتل على عينيه وخدر أعضاءه وذهنه ، وكان وهو يدخل القصر قد اكتشف مكتبا جانبيا صغيرا خابي الضوء مجهزا بأثاث جذاب من الوسائد ، فلم يكن ميسورا أن يركز تفكيره على شيء غيره ٠

فقال : « طفلتى ، استميحكما عذرا ٠ سأرتد الى هناك وأعطى أحد الخدم « راشنا » لأبقى فى المكتب دون ازعاج ٠ عاينا ماحولكما ماحلالكما ، فاذا اكتفيتما فتعاليا لتأخذانى ، وأتمنى لكما متعة طيبة ، لا تقضبا ، لكنه محال أن أبقى بعد ذلك صالبا عودى ٠ » فأبدت النسيبة ملاحظة ساخرة ، لكنها لم تكن أفادت الكثير من صحبته فلم يصدر لا عنها ولا عن أختها اعتراضات جادة ، وبعد دقائق كان مافريكى أفانا سيفتش قد وفر لنفسه الراحة وأطفأ له أحد الخدم النور وأقفل الباب ٠ ورسم مافريكى أفانا سيفتش على صدره علامة الصليب وغلبه النعاس ٠

فى تلك الأثنـاء امتـلأت خارج المكتب القاعات ، وسرعان

ما أعلنت الموسيقى بدء جولة الحرامل • وليس معقولا بالنسبة لنـا أن نرافق كلتا السيدتين فى دورتهما ، وأيضا كلمة دورة لم تعد من أمد مناسبة فى هذا المجال ، فهى تؤدى حركة منتظمة توجهها خطة وارادة ، وقـد كان عليهما أن يشـهدا كثيرا وكان على الأخت الكبرى أن تعرب عن نيتها فى مشاهدة اللوحات الأربعمائة المرسومة فى قاعدة القواد لقواد فضلاء فى الجيش والأسطول حسب الترتيب، والتأكد عند كل لوحة من شخصية المرسوم ، كذلك لم ينقصهما بعض ما تنبأ لهما به مافريكى أفانا سيفتش من متاعب ، وقد عزاهما عن ذلك أنهما التقيتا بمعارف تولوا أمرهما بل أسقوهما الشمبانيا• وكان بين هؤلاء المعارف رجل متقدم فى السن تبدو عليه الوجاهة ويحافظ على مظهره بصورة رائعة وكان يسمى السيد بورتو جالوف، ويشغل مركزا محترما فى مصلحة الطرق ، وغدا ـ وهذا ما كان يروقه أن يحكيه ـ سـينعم عليه بالطبقة الثـابتة من نيشـان ستانسلاوس •

ومر الوقت سريعا ولم يريا الأسرة القيصرية تتجول فحسب بل شاهداها أيضا تتعشى ثم تنسحب بعد ذلك ، وأخيرا شـعرا بالرغبة فى العودة الى المنزل •

الهنا الذى فى السموات ! كم قاعة فى القصر الشتوى ؟ وكم مكتبا جانبيا وبابا وخادما ؟ ان الخـدم شبيه كل منهم بالآخر ولا عجب •• فان البزة ليست وحدها الموحدة بينهم ، بل طولهم كان أيضا واحدا وقصة الشعر والشارب ، وحتى اذا كنت فى قوتك وفى صبرك لتهتدى الى كافة المكاتب الجانبية وتدخلها فكيف تصل اليها وآلاف الناس واقفون أمامها كالجدار ؟ • وكيف تريد فى هذه الفوضى المركبة من النـاس ولوحات القواد والموسـيقا والشمبانيا أن تتذكر أى خادم سألت من قبل ، وأى باب طلبت أن يفتح لك • وأى مكتب جانبى دخلت باحثا ؟ •

ويوصل السيد بورتو جالوف السيدتين الى البيت فى زحافته التى يجرها جوادان كما ينبغى ، وفى انتظار رب البيت يشربون قدحا من الشـــاى ، بل ان السيدة تيرنتييف لتعزف قليــلا على « البيان » للتسلية ، ولا يأتى مافريكى أفانا سيفتش ، ولا ضير فى هذا ففى المكتب الذى شغله لا يمكن أن يحدث له شىء وقــد كان أيضا متعبا جدا ، وهذا مفهوم ، ذلك انهم أيضا متعبون الآن بالمثل وهكذا يفترقون مع أطيب التمنيات بالعام المبارك ، كل شىء كما ينبغى أن يكون ٠

وعاد مافريكى فى وضــح النهار الى بيته ، فقد أيقظه فى الصباح رجل أبدى له أنه يريد أن يدهن الأرض فابتاع منه مافريكى أفانا سيفتش نصف ساعة أخرى ٠ أما عدة ساعات أخرى فلم يشأ الرجل أن يمنــحه ، وعلى كل فقد رجاه مافريكى أفانا سيفتش أن يحضر له زحافة ، وعند البواب سئل مرة أخرى عن اسمه ولم يبق له بعد هذا الا أن يصعد الى الزحافة لتنطلق به الى بيته ٠

وانقضت الســنة التى بدأت على هــذا المنوال بالنسبة لآل تيرنتييف لا تلفت النظر ولا يستحق فيها الذكر سوى أن التعارف الذى تم بين النســيبة والســيد بورتوجالون ارتقى الى الخطبة فالزواج ٠

وحوالى نهاية العام ـ لا قبل ذلك ـ حدث شىء له صلة مباشرة بمافريكى أفانا سيفتش ولم يكن نمى اليه بعد ، ففى شهر ديسمبر بالذات عرض وزير المالية على القيصر قائمة بالمرشحين للانعامات ، فألقى القيصر على القائمة نظرة عابرة وهز رأسه ٠

ثم سأل : « وتيرنتييف أيضا ؟ » ٠

فتكلم الوزير بضع كلمات دقيقة نوعا ما أثنى فيها على رئيس قسمه ٠

فقال نيقولا : « كذا ، اذن هذا رأيك ياكونت • لكن لى أنا رأيا آخــر • آه منكم أيهــا الوزراء •• ماذا تعرفون بالفعل عن رجالكم ؟ اذن فلتعلم أيها الآخ ! »

وطفق يحدثه عما يريد قوله منتقلا الى الفرنســية ، منمقا كلامه بكلمات :

« يا للشيطان ! أرجوك يا عزيزى ! وى ! انظر ! »

وكان يزهى نيقولا أن يظهر انه أعلم من وزرائه ببــواطن الأمور ، وكان يرى أحيانا أن ذاكرته ضعفت ، ويعتقد أنه لا يصح أن يدع أحدا يلحظ ذلك ، وهكذا كان يفيد ـ كما يميل كثير من أصحاب السلطات ـ من الفرص التى تبدى منه ذاكرة تســـتحق الاعجاب ، وقــد احتفــظ أكثر من أحد عشر شهرا باسم تيرنتييف فى مفكرته ، ومن عليه أن يمارس سلطة ويبديها في الوقت نفسه يميل الى أن يسلك مسلكه من يسبر الكل بجزء • ويتخذ مما سمع أو رأى من شىء اتفاقا مشخصا له ، ولعله لا يستطيع أوتقراطى بل قومندان آلاى أو ناظر زراعة أو مدرس أن يحتمل مركزه بغير هذا ، فهو يحتاج الى أن يتصور أنه عليم كل العلم تقريبا بكل شىء وهكذا لم يكن نيقولا الأول يرى أنه عرف شيئا اتفاقا ، بل كان من رأيه أنه فات علمه على الأكثر شىء ما اتفاقا •

« أول مرة ذكر لى فيها اسم وحيد : فأى انسان لابد أن يكون هذا ! لقد طلبت آنذاك الاطلاع على ملفه الشخصى ، فمن هو ؟ لابد أن يكون بالبديهة خيالا قديما فى « الهوسار » •• ومن يعلم لماذا استقال ؟ •• الراجح أنه ارتكب شيئا تجاوز مفهومه عن عمل الخيالة ، ولا تشتمل الأوراق بطبيعة الحال شيئا عنه ، لكن أعلم علم اليقين كيف يتستر خيالتى بعضهم على بعض ، كل شىء فى موضعه ، ومغريات الخيالة لا تناسب وزارة المالية ، فالرجل من عشاق الليل وليس من العاملين » •

وتناول القلم وشطب اسم تيرنتييف شطبة قوية ٠

من ذلك الحين درج القيصر كلما جاءه وزير المـالية ليحاضره فى شئونه أن يسأله عند الانصراف وعلى وجهه ابتسامة واهنة تنم عن رضائه عن نفسه : « والآن ماذا يفعل الخيال ؟ » ٠

وكان هذا يضايق وزير المالية ففى ذات يوم استدعى مافريكى أفانا سيفتش وأفهمه أن يقدم استقالته ٠

وضمر مافريكى أفانا سيفتش كالنبتة التى نقلت الى أحوال غير صالحة ، وعلى كل فقد كان خليقا أن يحصل ـ استنادا الى شهادة لامعة تنوه بخدمته ـ على مركز كبير كمدير بنك أو أى منصب كبير آخر ، لكنه أولا لم يكن يرغب فى ذلك اطلاقا لأنه جرح جرحا شديدا فأراد أن يبقى كما هو ، وثانيا لأنه لم يتلق شهادة التمجيد التى كان يستحقها ، ذلك أن مثل هذه الشهادة لم تكن حقا محتملة ، لكنه لم يكن من المحال بحال من الأحوال أن تقع مثل هذه الشـهادة تحت نظر القيصر الذى اهتم مرة بمافريكى أفانا سيفتش بهذه الصورة التى لا تسر ، فيكون ذلك اتفاقا محفوفا بالمغامرة ، فيغضب الوزير بذلك وهو ما كان حقيقا الا يؤثر على مركز الوزير الشخصى فحسب ، بل أيضا على شئون وزارة المالية وما يعده الوزير من اصلاح مالى ٠

مل القيصر نكتته النمـوذجية فلم يعـد يتذكر مافـريكى أفاناسيفتش ٠٠ لكن نيقولا ـ والله يعلم لمـاذا ـ تذكره ذات يوم وسأل : « ماذا يفعل الخيال حقا ؟ »

فأجاب الوزير : « لقد مات يا صاحب الجلالة » ٠

فرسـم نيقولا الصليب على صدره فى غير اكتراث وقال كالعادة : «يرحمه الله» ٠ ثم زاد على ذلك قوله ٠ « كان ينبغى أن

يبقى بين خيالة « الهوسار » ، فكل امرىء يجب أن يعرف مكانه ٠ وكنت خليقا أن ألفت اليه يوما فأهتم بسيرة حياته ، فانى لا أستغنى عن خدمات « الهوسار » الأشداء ٠ ولكن ليس فى وزارة المالية ، يجب أن يكون كل شىء فى موضعه ولابد من النظام ٠ ولكن بأى شىء مات ؟ »

فلم يرد الوزير أن يجيب الجواب الذى كان قمينا أن يطابق الحقيقة بل قال كيفما اتفق : « مات غماً ٠ مات بالسكتة القلبية يا صاحب الجلالة » ! « بالسكتة القلبية ؟ هذا ما افتكرته دائما فى الراقص ٠٠ أول من يدخل وآخر من ينصرف ٠٠ ولابد أنه كان أيضا سكران ٠٠ انى أعرف بالتأكيد هذه العادات القديمة عند « الهوسار » » ٠

ولو عاش مافريكى أفانا سيفتش على الأقل الى أن يتولى الحكم نيقولا الثانى الذى لم يسمع بحكايته لبات معاذ الله فى النهاية وزيرا للمالية ، لكن العناية الآلهية لم تجد فيما يظهر أن هذا أمر مرغوب فيه ٠

وقد عاشت هذه الحكاية بعد ذلك فى جميع أساطير الخيالة فاذا قصت على مستفيد مستجد قل أن ينسى الراوى أن يضيف : « يستأهل » ٠ فكان المستفيد يقول عندئذ دون شك : « ٠٠ وجدير كل الجدارة بالملاحظة » ٠

الشريط الحريرى

« Das Florettband »

أسماء الشخصيات :

مورتيمر	Mortimer
شرودر	Schroeder
فالنشتين	Walinstein
ماكس	Max

ان النـــاس جميعا على هذه الأرض ممثلون بدرجة ما . كل يختار مسرحه وجمهوره ، ويعرض كل ما يستحثه طموحه من قوى ليفوز بتصفيق الصالة التى اختارها . يقابل ذلك الاسكندر الأكبر الذى كان يفكر فى تصفيق الأثينيين وهو على ضـــفاف الهندوس ويرى فيه أجمل جزاء على جهوده .

(نابليون الثالث ـ شذرات من التاريخ الانجليزى)

فى الوقت الذى كان فيه دوستويفسكى مشغولا بتصـــوير شخصية راسكولينكوف والاخوان سيمنس مشغولين باختراعاتهما الكهربية وهندنبرج مشغولا بالاستعداد لامتحان حامل العلم وذلك فى العقد السادس من القرن الماضى كان فى مسرح المدينـــــة فى ريجا ممثل شاب من الالزاس نســـميه ومرتيمر لنعين فى الوقت نفســه اتجاه رغباته ، وكان رأى مورتيمر هـــذا فى كفايته عاليا تحدوه آمال بعينها على وجه الدقة ، لكنه كان أحيانا يستخدم فى أدوار صغيرة فى روايات حديثة توائم الشهرة كصديق لأبطـــال من الشباب يظل ينعم بترائهم الى أن يعجل بالتخلى عنهم فى اللحظة التى يدركهم فيها الفقر ، أو يظن أنه ألم بهم ، أو الى أن يطردوه ويبعدوه عنهم بعد تحول مفاجىء فى أسلوب تفكيرهم الى ما هو أكثر جدا ، فهذه الحرفة التى خفت مزاولتها فيما بعد كانت تعرف فى ذلك الوقت بحرفة الخلان الكاذبين . ومن ظل يفيد منهـــا مدة

كافية بما يبعث على الرضا ، وسعه أن يأمل فى أن يرتفع الى مرتبة الناعمين .

وشعر صديقنا الألزاسى بأنه لم يخلق ليكون لا من الخلان الكاذبين ولا من الناعمين ، فقد كان مقتنعا بأنه لا بد أن تواتيه الفرصة يوما ما ، لأن يظهر حميته وقوته فى دور كبير كدور مورتيمر فتنطلق سيرة حياته بغتة من المنخفضات العديمة اللون الى أعلى ، لكن بدا أن هذه الفرصة بالذات لا تريد أن تواتيه . فكان يلقى اللوم تارة على عدم فهم المدير وتارة على نكايات الحاسدين بين الزملاء ، وتارة ـ وهو مكتئب ـ على سوء حظ يجثم الآن فوق كيانه ، ولعله فى تلك الأثناء ـ وكيف يريد المرء أن يثبت ذلك اليوم ؟ ـ كانت المسألة ببساطة أن تلك الخاصة التى يصعب تعريفها لم تكن بالذات قد ظهرت على مورتيمر وهى التى لابد للممثل منها اذا شاء أن يأسر النظارة ، هذا الى أن المسرح الفرنسى الذى سعى اليه فى بداياته لم يرد أن يتقبله لأنه لم يستطع الاقلاع عن اللهجة الألزاسية .

واذن فيجب أن نترك المسألة عن قدرات مورتيمر مفتوحة ، وهذا أدعى الى أن تشغلنا أكثر : مسألة طموحه فى سكون ، لكننا هنا أيضا لا نصل بادىء ذى بدء الى رأى بعينه على وجه الدقة ، ويبقى مؤقتا سؤال مفتوح هو : هل هذا الطموح فى الواقع ـ كما يعتقد مورتيمر ـ كان ينشد بطبيعته وضرورته اكليل الغار على المسرح ؟ أو أنه كان لا يستطيع بالمثل السعى فى ميدان آخر الى النجاح الذى يعينه على توكيد ذاته ؟ .

وكان مورتيمر ، تبعا لمركزه الثانوى ينقد أجرا زهيدا . فلم يكن فى الأدوار التافهة التى كانوا يسندونها اليه ما يحفظ غالبا عن ظهر قلب فكان الوقت متسعا له ، يفيد منه فى توسيع دائرة

معلوماته فى اللغة واعطاء دروس فى المحادثة الفرنسية • وقد نمى هذا دخله وأعانه على الحياة ، واذا كان قد شب ملما بلغتين فقد أوتى القدرة على التمكين من اللغات الأجنبية بسرعة وهو ما كان يرى حقا أنه يعبر عن موهبته للتلاؤم ، لكنه فى الوقت نفسه كان تعبيرا عن حاجته الى التلاؤم ، تلك الحاجة التى لا تضير طبيعة تنزع الى فن التمثيل ، وقد أكمل معلوماته فى الانجليزية واشتغل بتحصيل الروسية واللاتفية بوصفهما اللغتين اللتين كانتا متداولتين فى البلاد الى جانب اللغة الالمانية • لكنه لم يزاول هذا كله فى غبطة حقة ، فقد كان الأمر عنده سدا لثغرات •

وقد وصل أمره مع الوقت الى أن كان بعض العمال الموسرين يجتذبونه كلما جدت مناسبة الى القيام بأدوار تمليها الهواية فى الأعراس الماسية والاحتفالات النقابية ، أما فى دوائر المجتمع الراقى فلم يبلغ شيئا وان كانت هذه الدوائر مفتوحة فى ريجا للممثلين بقدر ما تسمح به أصرم مفاهيم العصر فى ألمانيا •

وكان الناس فى مدن ألمانيا معنيين آنذاك بمجهودات السيد فون بسمارك فى سبيل تقرير زعامة بروسيا ، وفى سبيل نقابة عمال لاسال وشئون البرلمان والدستور ، وكانت ريجا تابعة للامبراطورية القيصرية الروسية فلم يكن من المستحب الكلام فى السياسة فاذا كان فى المجلس سيدات حرمت بتاتا أمامهن •

وعادت حماسة المجتمع بأكملها ، فانصرف عن الشئون العامة الى المسرح كما كان المألوف أن يقع فى مثل هذه الظروف ، وهذا الشغف ــ وقد كاد أن يبلغ حد الهوس ــ أمكن أن يعزى فوق ذلك الى تقليد دام عشرات السنين • فمنذ ثلاثة أرباع القرن تقريبا كانوا يملكون المخطوط الأصلى لدون كارلو • فاذا مثل وجدت على رقعة المسرح : النص وفق المخطوط الذى يمتلكه مسرح المدينة •

فاذا عرض « مبيت غرناطة » أو غنى أو رنم أو ارتفع صوت رباعى رجال فى مكان ما : « هذا هو يوم السيد » تذكر المرء الملحن كرويتزر الذى كان قائد فرقة مسرح المدينة الموسيقية ودفن فى ريجا ـ دون أن يفطن ـ لو صح هذا ـ الى أنه ليس فى هذا فضل لجمهور ريجا ، وفى عهد قيادة فاجنر للفرقة الموسيقية كان الشاعر الجوال هولتاى مديرا للمسرح تعبده المدينة ، فلما ماتت زوجه وهى نفساء ـ وكانت ممثلة شغف بها الناس كثيرا ـ شيعت لها جنـــازة كانت أعظم ما شيع فى القرن ، ومشى خلفها الى جانب زوجهـــا الأرمل حاكم اقليم البلطيق العام ، كان هذا ما يزال حيا فى الذاكرة كما لو كان قد وقع أمس فقط ، والى هذا كان للمدينـــــة اذ ذاك دار المسرح الجديدة الجميلة ٠

وكان المال يســـيل غزيرا ، والنساء يسعدهن الحظ ، لكن ماذا جناه مورتيمر من هذا ؟ ٠٠ لقد كان يلازمه ســـوء الحظ ، ولو كانت السماء صافية صفاء بالغا ما أراد هو وأراد لها اله الفن المسرحى من صفو ٠

وبغتة غرب فى تلك الأثناء طالعه السىء وطلع نجمه ٠ ولم يكن ذلك يبدو هكذا بادىء الأمر ٠ وكان القســـس والمدرسون الأوائل يطالبون بما يحث على الفضيلة وما يدخل فى الكلاســيك فاندسوا خلف لجنة المجلس الخاصـــة بالمسرح وأعلن المدير عن فالنشتاين ٠ وكان أول مساء مخصصا للمعسكر ولبيكولوميني ٠ وكان هذا المدير يعـانى آلاما فى المعدة ، مما كان يخلق منه كثيرا رجلا منحرف المزاج ٠ وكانت عادته أن يخاطب كل من يريد ابلاغه خبرا ســيئا بقوله : « يا صديقى العزيز » ٠٠ وقـد آســند الى مورتيمر دور جوتس ٠

والناس تعرف هذا الدور ، أو على الأصح لا يعرفونه ، لأنه

ليس فيه ما يعرف • فجماله ما ينطق به الجنرال جوتس ، وهو سيد صموت ، هو تسع كلمات لا تبلغ أولا عن آخر أكثر من ثمانية أبيات ونصف • وعباراته ليست ذات شأن ، فأهم ما يقوله : « أيها الأخ ، شهية طيبة ! •• معذرة ! •• لست قادرا ! •• يا سيدى الكونت ، اسمح لى أن أقدم احتراماتى » •

وقال المدير : « لا تقلب وجهك هكذا يا صـــديقى العزيز فجوتس لشيلى ليس جوتس لجوته وهى فروق ما بين الشاعرين • فلا تجعلنى مسئولا عن ذلك • ولن تدرس فى الدور شيئا كثيرا • وهذا يستحق ، ولو وددت أن يكون لى من الفراغ ما لك » •

فتمتم مورتيمر شيئا ينم عن الرضوخ والتبرم •

فقال المدير : « ماذا تريد اذن ؟ انك تتلقى فوق ذلك دورا فى المعسكر • دور هوسار الحرس الخاص أو متطوع السنة الواحدة فى أورطة النقل الثالثة • وستسمع منى عن ذلك شيئا نهائيا » •

وغدا مورتيمر الى بيته كسير القلب ، حتى أمله فى المعسكر ليس فيه ما يعزيه ، ففى هذه القطعة لا يظهر كما هو معروف سوى الكومبارس ، ومهما تكلم هؤلاء فلن يعدوا أنهم كومبارس ، وحتى الراهب الفرنسيسكانى يظل نكرة لا يخرج عن تنكره •

لـكن نحس الطالع يغرب الآن ويطلع نجمه : فقبل التجربة الكبرى يستدعى مورتيمر الى المدير ليقول له : « انى حانق جـدا يا صديقى العزيز • لقد أخلى سبيل مكس • والسيد نويمان يعانى تقلصا فى العضل ولا تدخل رجله فى حذاء فوق الرسغ ، ويقدر له الطبيب أسبوعين ، والاعور عند السيد مونتى ملتهب ، والسيد شرودر أكثر بدانة مما يجب ولابد لى أن أجربك ان خيرا وان شرا • وليس فى ذلك خير كثير يا صديقى العزيز ، بل لعـــله شر كثير

ولا مفر ، فهل تثق بنفسك ؟ أيمكن أن تحفظ هذه المقاطع الآن في حينها ؟ .

فصاح مورتيمر : اني أحذق الدور يا حضرة المدير » .

« كذا ؟ حسن .. اذن اسمعني » .

وكان مورتيمر قد درس دور مكس كبديل ، درسه بدقة وعض عليه بالنواجذ كما يدرس كل الأدوار التي تدخل في وفاضه . فاتخذ وضع الدور وبدأ .

« أيها النهار الجميل اذا كان الجندي في النهاية » .

وعندما أعلن في النهاية اليه ، الى فالنشتاين ، أنه يريد أن يريق آخر قطرة من دم قلبه ، خيل اليه أنه مورتيمر في الفصل الرابع ، وأنه يستل الخنجر ويصيح متحمسا : « ماذا تريد أيها العبد الرخيص ، رقيق الطغيان ؟ اني أسخر منك ، اني حر » .

ومكس ومورتيمر دوران كانا يلقيان اذ ذاك من علو التقدير ما يلقيان اليوم ، ولعل خطاب مورتيمر الحماسي ما كان ليستهوينا ، لكن مثله كان يستهوي أجدادنا .. وقد كان أجدادنا يؤلفون جمهور مسرح المدينة في ريجا . ومن ثم لم يخاطر المدير في الحقيقة بشيء .

كان ينظر الى خارج النافذة فلما سكت مورتيمر قال من دون أن يستدير اليه :

« يعلم الله أن السماء ستمطر ثانية . اذن حسن .. لا مانع عندي أن تمثل هذا الفتى الذي جعلوه قبل الأوان كولونيل . فلا مناص . ولن أستطيع تنحية فالنشتاين بعد الآن .. أما جوتس فأستطيع أيضا أن أجعله امرأة من القائمات على خزانة الملابس

تمثله ، وأخيرا يمكن أن يشطب دوره أيضا • فالمسرحية على كل حال تشتمل على أكثر مما يجب من الجنرالات •• أليس كذلك ؟ » •

فلما تولى مورتيمر ناداه المدير وقال له : « لكن أفرغ قصاراك • فان رجلا عظيم القدر سيكون فى مقصورتى » •

فأجاب مورتيمر : « حسنا جدا يا سيدى المدير » •• وكانوا فى ذلك العهد ما يزالون يقولون « حسنا جدا » •• وأنا شخصيا سمعت « حسنا جدا » مرة واحدة فى حياتى •• كان هذا أثناء أن كان نسيبى يتلو فى محيط الأسرة فصلا من احدى روايات فونتان• وكان وقع التلاوة « حسنا جدا » •

وسرعان ما تحدثوا بأن الرجل العظيم الشأن كان مديرا فى مكان ما فى ألمانيا لمسرح بلاط الغراندوق ، وكان ابنه سكرتير مفوضية فى مفوضية الغراندوق فى بطرسبورغ ،وقد تزوج منذ فترة وجيزة ، وقد عاد المدير من العرس الى ألمانيا • وأقام فى طريقه بعض الوقت فى ريجا •

فهزت مورتيمر آمال جريئة ، فانه بدلا من شؤم الطالع الغارب لم يكن ثمة يمن واحد للطالع بل مجموعة كاملة فى الطوالع الميمونة ، كان مدير مسرح البلاط الغراندوقى يؤلف مركزها • فسيلحظ اسم مورتيمر •• ربما لا يكون فى الحال ، فالأشياء التى تتصل بالغراندوق تحتاج الى وقت لكن هناك أيضا أشياء لابد أن تتضح على الفور فاذا راق مورتيمر فى دور مكسى فى رواية بيكولوميني ــ وكيف لا يروق ؟ ــ فسينتزع الاستحسان فى منظر مكشوف ــ اتضح أنه سيسمح له بعد ذلك ببضعة أسابيع أن يمثل مكس أيضا فى « موت فالنشتاين • وسيقرأ الناس فى الصحف : « لكن أعظم مفاجأة فى المساء كانت تمثيلَ السيد مورتيمر ونحن

نتساءل : لماذا أخفت عنا الادارة الى الآن مقدرة بهذا القدر ؟ • عبثا نحاول تفسير ذلك (وربما قيل فى هذا الموضع : وضح لى يا كونت أورندو ••) على أنه لا نفع أبدا فى الوقوف عند الماضى ، ولنا أن نأمل بالنسبة للمستقبل أن نلاقى السيد مورتيمر فى أدوار تناسب موهبته » •

وغربت الطوالع الميمونة وطلع نحس الطالع • كان الجو عند تحول مارس الى ابريل عاصفا ، رطبا ، قاسيا • فكل من كان فى مقدوره شىء أصابه برد أو التهب له حلق وألمت به الحمى ، وكانت مثل هذه الأمراض تعرف اذ ذاك بالانفلونزا • وكثيرا ما يقرأ فى التراجم الأقدم : مات بالانفلونزا بعد أن قدر عليه أن يعانى قبل ذلك ألم فقد رفيقة حياته ، فى حمام الاسكندر متأثرة بحمى حامية فى المعدة •• ثم بطل استعمال الكلمة وكفرت هذه التراجم فى فصلها الأخير على الأقل بأن أصبحت غير مفهومة ، وظهر اسم المرض ثانية ، مدهشا علماء اللغات والمرضى وآل المتوفين على السواء • ظهر فى سنة ١٩١٧ أول ما ظهر فى غضون الحرب ، وهو ما ظن أن له صلة بأنه كان على رأس الهيئة الطبية العسكرية أناس مسنون انتهزوا الفرصة لانعاش ذكرى من ذكريات الشباب •

ومورتيمر أرشد مما يخلق بشخصيتى مورتيمر أو مكس اللتين يمثلهما ، فتغرغر وتناول حبوبا واقية • وفى اليوم السابق للتجربة الكبرى استيقظ محموما أجش الصوت يتألم من رقبته • فجرى الى الطبيب ، ففحصه ومس بفرشاته موضع الألم ووصف الدواء • لكن يبدو فى الحق أن لبعض أعضاء الجسم البشرى نزعة عفريتية ، اذ يأبى الطاعة على صاحبه اذا ما كان عليه أن يعمل لخيره بكل همه ، ويعرضه للفضيحة واليأس فلا يكون عليه عندئذ أن ينفذ أمرا عدائيا له موجها اليه فى خفاء وخجل •

وساءت حالة مورتيمر وهزته رعشة البرد ورنحت كتفيه هنا وهاهنا وأصابه دوار ، وشعر بدمه يغلى ويدوى فى أذنيـه ، ولم يطرأ تغيير ، وجعـل يتغرغر ، لا على سبيل الوقاية الآن ، بل على سبيل العلاج ، وكان يرقد معظم النهار فى فراشه ولا ينطق بكلمة نافلة مع أحد ، ومع ذلك فقد كان يحس أن مقاومته تنهار من ساعة لأخرى ، وصمد فى المسرح للضرورة بالتحامل على نفسه وبالأدوية والمشروبات الروحية ، فاجتاز التـــجربة الكبرى . وكان يرى أنه نجح أيضا فى التجربة العامة اذ يحاول اخفاء ما يعانى .

لكنه أثبت للمدير أنه كان مخطئا فى هذا الرأى ، ذلك أنه قال له :

« يلوح لى يا صديقى العزيز أن صوتك ليس على ما يرام فالزم على الفور فراشك واعرق . وغدا صباحا أسمع صوتك ، فاذا لم يتحسن فلن يكون هناك مفر من اللجوء الى السيد شرودر ، فهو ليس آخر الأمر بهذه البدانة اطلاقا ، هذا الى أنه قد خطر لى أن مكس قد بات كولونيل ، ولا يصح أن يكون للكولونيل مظهر الملازم » .

فلما أراد مورتيمر أن يغادر المسرح بعـــد التجربة الكبرى رافقته الملقنة فى الرواق ، وهى عجوز طيبة القلب تحبوه بميــــل الأمهات أو الخالات ، وقد كانت فى مجرى حياتها ساذجة بطلة بين الأمهات وعجوزا مضحكة . وقد احتفظت فى كيانها من كل هـــذه الطبقات بنصيب .

وصاحت : « يا الهى ، ما خطبك ؟ كيف تبدو ؟ » .

فأراد أن يصرفها صامتا ويتولى عنهـا ، لأن كل كلمة يمكن تجنبها كانت فى رأيه مما لا يغتفر . لكنه شعر اذ ذاك بحرارة قلب العجوز وتواضعها وبساطتها ، وشعر بأنه يريد أن يسلم نفســه

للسقوط فعليه ألا يعارض وأن يترك المسئولية لسلطة الامومة ورعايتها على نحو ما يفعل الأطفال • واطرح ضبط النفس ، وبدا له أن من السعادة ألا يضطر بعد الآن الى كبح سعاله الأليم وأن ينفض عن نفسه بدنه كله •

جعل عندئذ يتكلم ، تقطع كلماته حقا نوبات سعاله التى استسلم لها فى غبطة الذى يذل نفسه ، وشكا مر الشكوى لأنه لا مندوحة له عن أن تكون هذه حاله على الدوام اذا ما أبدى الحظ فى النهاية بصيصا مرة • أنه لا يصلح لشىء سوى الدمار •

وكانت الملقنة وهى تصغى اليه توجه اليه نظرة مفعمة بالعطف والرضى معا ، فهى لم تشهد فحسب شقاءه الحادث الذى يستقر فوقه كطبقة من الصبغة الكدرة المختلطة بالقذارة ، بل شهدته نفسه تحت هذه الصبغة كما كانت تفعل من قبل ، وكان جميل البنية ، عضلا ، نحيفا ، منتظم الملامح مليئا بالحيوية • لكن كانت له أيضا تلك الشدة العنيفة التى يتبينها المرء فى ملامح من يتملكهم الطموح من الشبان وان لم يحالفهم النجاح ، وهو تعبير يمكن أن يجعل الوجه الفتى جذابا ومؤثرا فى القلوب فى الوقت نفسه ، وليكن أيضا أن يستولى على المتأمل شىء من قبيل العطف المظلم الموجه الى المستقبل فى صيغة السؤال ، عطف هو فى الوقت نفسه من نصيب كل المقدرات البشرية المتداعية وانزلاقها الى العادى ، وعلى كل فلا ينبغى أن نفرض أن مثل هذا قد داخل وعى الملقنة الواضح •

وقالت له بعد تردد قليل : « اسمع ! انى أعرف دواء لك • لكن لا تضحك منى » •

فأجابها عاتبا : « يا الهى ! انى لا أجد فى نفسى ميلا الى الضحك • لكن ما هذا الدواء الذى يمكن أن يأخذ بيدى عندئذ ؟ ان نصف الصيدلية قائم عندى فوق منضدة الليل ، ان خير ما أفعل

هو أن أعلن آنى مريض وأتوجه الى الفراش ، فاذا نهضت ثانية بعد أسبوعين أمكننى أن أعود ثانية الى تمثيل دور جوتس » ٠

فقالت وقد بدت كأنها قد تحولت تحولا تاما من فرط ما أبدت من غيرة وهمة ٠ ان ثمة شيئا آخر ، فقط لا يصح أن يقابل باللغو والا أضاع ، كما يقال ٠ فى ضاحية موسكو حانوت لبيع الشرائط ، عبارة عن حجرة خشبية غير ظاهرة فى زقاق بعيد نوعا ما عن المخازن الحمراء ، لكن لا تقلب وجهك هكذا ، فان فى وسعك أن تعتمد على ما أقول ، فقد جربته بنفسى غير مرة ، وكذلك جربه بعض معارفى » ٠

وازدادت ملامحها تأثرا ، وحركات يديها حيوية ، كأنما هى ما تزال واقفة على المسرح تقوم بدور من أدوارها كقوادة أو محرضة أو دساسة ، وعلى كل كمرشدة لمصائر الغير التى تحب أن تدخل عليها العزاء ، أجل لقد أدت أمامه مشهدا صغيرا صادقا ، مشهدا من دورين ، ولعله كان لهذا بالنسبة لها شأن يمكن أن يكون لأحد مشاهد مورتيمر فى مارى ستيوارت من شأن ، وفى النهاية ــ وهذا ما رآه مورتيمر فيما بعد ، وما يمكن أن يكون الواحد أو الآخر منا قد تذكره ــ فى النهاية كانت قد فتحت الموضوع بأكمله لمجرد أن تتيح الفرصة لمثل هذا العرض الذى عرضت ، لكن مورتيمر لم يكن ــ كما أن الواحد أو الآخر منا كان خليقا ألا يكون ــ محقا فى هذا التفكير ٠

قالت : « انتبه ! الآن ، ادخلْ ! » وتراجعت بضع خطوات ، كما لو كانت تتحفز ، وبدأ المشهد ٠

هكذا يجب أن يحدث بعد أن يدخلَ المرء ذلك الحانوت الحقير فى ضاحية موسكو ، امرأة قصيرة القامة ، بيضاء الشعر ، واقفة خلف خوان البيع تنحنى الى الأمام وتسأل فى صوت مرتعش

قليلا : « ماذا يروق السيدة ؟ » فتتخذ المشترية هيئة من يتظاهر بعدم الاكتراث وتجيب بصوت خافت : « أريد قطعـــة من شريط حريرى أسود » •

ولا حاجة بالمرة الى أن يقول المرء بعد هذا شيئا لا عن طول الشريط ولا عن عرضه ، لا حاجة به اطلاقا الى السؤال عن الثمن ، ولا تنطق البائعة بكلمة ، بل ان هيئتها لتعبر أيضا عن عدم الاكتراث المصطنع الذى تبدى وراءه التفاهم والتواطؤ بصورة مستسرة فتفتح قمطرا وتأخذ منه الشيء المرغوب ، مقصوصا من قبل ، وتقدمه من فوق الخوان دون أن تهتم بعد ذلك بالعميلة الغريبة بل دون أن ترفع اليها بصرها ، وتتناول هذه طرف الشريط الاسود صامتة وتدسه وتنصرف دون أن تدفع أو تشكر أو تحيى •

قالت الملقنة ، بشكل مصطنع الى حد ما : « اذا ما أراد المرء أن يدفع أو يشكر ضاع المفعول • هذا أكيد • وهكذا فكرت فى أن خير ما يفعل المرء ألا ينبس ببنت شفة فتجرى الامور مجرى مأمونا ، والأمر بحذافيره مضحك بطبيعة الحال ، لكن أكثر بعثا على الضحك أنه يفيد حقا ، وليس فى ذلك شك مطلقا ، وطبعا اننى لم أشأ أن أصدق ذلك فى مبدأ الأمر ، ويجب أن يطوق المرء بالشريط عنقه ليلا ، ويضعه فى جيبه بالنهار فاذا كان شيء بالحنجرة أو بحة فى الصوت أو التهاب فى الحلق فان كل الآلام والشكاوى تزول • »

فحملق مورتيمر فى الارض ولم يقل شيئا ، وجعلت العجوز تلاحقه بالاقناع وتصف له المكان مغتبطة بالقول • وبغتة تنـــاول يدها وهمس اليها بصوته المبحوح : «اذن سأجربه بحق الشيطان» • ثم انطلق وهو يسعل •

بينما يسرع مورتيمر الى ضاحية موسكو ليبحث عن حانوت تباع فيه الشرائط فى أزقة بعيدة غير مرصوفة ، تغطيها الثـــلوج

وتغص بالبرك بين بيوت خشـــبية عوجاء مدهونة بالألوان الزاهية ذات طبقة واحدة ـ بينما هو يسرع ويبدو من المناسب أن نتفاهم ببضع كلمات عن طبيعة الخرافة فبهذا يكون أيضا مسلك مورتيمر مفهوما وربما ألقى فى الوقت نفسه شعاعا صغيرا من الضـــوء على طبيعة الانسان والقدر ٠

طبيعى أن مورتيمر عـــرف كما نعرف جميعـا أن الشريط الحريرى ـ اذا وجب الكلام عن المنسوجات الشافية ـ أقل نفعـــا من أربطة « الفانيللا » ، وأن كل شيء قيل كان خرافة سخيفة بل الراجح أن الملقنة عرفت هذا بأسلوبها الخاص ٠ لكن هذه المعرفة لا تنفى الاعتقاد ، ومن السخف الجدال فى كيف يؤمن هذا أو ذاك من الأشياء ، فانه لابد أن يلحظ أن هذا يخالف العقـل ، والذين يتكلمون على هذا النحو ينكرون طبيعة الخرافة ٠ غير أنه تكمن فى الانسان عندئذ نزعة الى تصديق ما ينافى العقل بالذات والى مزاولة لعبة خاطفة جادة ٠ وعنصر اللعب هذا كامن فى كل خرافة ٠ فمن يقارف خرافة يعتقد بطبيعة الحال فيها ، ولكن بقدر ما فحسب ، وليس بالمعنى الذى يعتقد به فى جدول اللوغرتمـــات ودليـل العناوين وبيان أسعار البورصة ، ويذيع الناس عن الممثلين وأصحاب الطبائع الفنية أنهم نزاعون الى الخرافة ، ويخطىء من يعدهم من جراء ذلك أغبى ممن عدموا الخيال ، ومورتيمر لم يكن حقا ممثلا فحسب ، بل كان أيضا مريضا بالحمى وانسانا فوق ذلك فى محنة ، يتملكه القنوط ويرى أنه يقف مواجها تقرير مصيره ذلك أن هذا كان مؤكدا لديه ، فلقد جاء الى التمثيل وهو يظن أنه يلعب ورقته الى النهـاية ويمكن أن يكون المجاز هنا فى موضعه ، لأن الشخصية التمثيلية لا تبدو كافية فى الانسان وخرافته فحسب ، بل أيضا فى المصير ، فاذا لم يكسب الورقة سلم بهزيمته ونطق بحكمه نهائيا ٠ ويمكن أنه لم يفكر كثيرا فيما قد يكون للشريط الحريرى من تأثير طبى ،

وأنه شعر هنا بشيء يصيبه لم يكن ميالا الى تناول حياته كجالب للشفاء بقدر ما كان ميالا الى تناولها كجالب للهناء · والانسان فى الحمى يفكر تفكير الأطفال على غرار أكثر مجازا من المألوف ولعله قد داخله أن مثل هذا التطوع بالاقتراب من دائرة الحـــداد والموت والامراض كالذى يتم بالحصول على الشريط الحريرى الاسود ، يمكن أن يخفف شيئا من تهديد القوى المظلمة ، ألسنا جميعا نمد أيدينا الى السخيف اذا لم يثمر المعقول ؟ وأيضا لقد راقه المشهد على الرغم من حالته النفسية البائسة ، راقه المشهد الذى مثلته الملقنة على أنه دار فى حانوت بائع الشرائط ، والمشهد الذى سيشترك هو نفسه فى تمثيله اذا ما قرر أن يذهب الى هناك ، واذن فقـد قرر مدفوعا أيضا من تصوره أنه بعد الكمادات والحبـــوب والمس بالفرشاة سيتولى شيئا جديدا ·

وما نكاد ننتهى من هـــذه التـأملات حتى يظهر مورتيمر فى غرفة الملقنة ـ تلك الغرفة المتواضعة حقا ـ محملا بالمؤثرات ، غاضبا خائر الهمة معا ·

فصاح مورتيمر : « أى شريط حريرى ؟ خيبة من حول العنق وشنق ؟ » · لعله بالغ فى التعبير عن قنوطه على نحو ما يفعـــل الممثلون ·

وطبيعى أنه لم يرو قصته كما يفعـل كل منا ، والأصح أنه أيضا مثل الآن المشهد ذا الدورين ، لكن الدور الذى كان عليه أن يؤديه بخلاف دوره هو لم يكن دور امرأة بيضاء الشـــعر بل دور بائع مستدير الوجه أشقر الشعر ·

« بم يسعنى أن أخدمك ؟ » ·

« قطعة من الشريط الحريرى الاسود » ·

« أهي لحالة حداد ؟ وما عرضها ؟ فعندى أشرطة مختلفة أريك اياها » •

فلم يحر مورتيمر جوابا • وأشار للبائع الى طول الشريط ببضع حركات غير معينة فى يده ، وباعد أخيرا فى ارتباكه بين الابهام والسبابة • فابتسم البائع بأدب •

وقال : « فاهم ، فاهم ، هذا القدر هو ما يلزم للذراع والقبعة وعندى لذلك أنواع مختلفة » ، ويبحث فى أدراجه ثم يبسط ما أخرجه على الخوان ويأخذ فى شرحه •

ويواصل مورتيمر الصمت ، ويرفع يده اليمنى ويحركها مرات هنا وهناك فى احتفال ، ويسأل البائع : ماذا يختار السيد ؟ ، ويشير مورتيمر صامتا الى القطعة القريبة منه ، ويعده البائع فيما يبدو له شخصا غريب الأطوار ، لكن هذا لا يدعوه الى أن يحبط صفقة ولو متواضعة بهذا القدر •

ويلف الشريط الحريرى فى ورقة ويناوله اياها من فوق الخوان ويقول : « خمسة وثمانون كوبيكا » •

وينظر مورتيمر اليه صامتا ولكن مستكنها وتطلب نظرته الراجية الفهم ، ويأخذ اللفة وينفض رأسه ويريد الانصراف •

ويقول البائع متضايقا جدا : « من فضلك •• خمسة وثمانون كوبيكا » ، ولا يدرى مورتيمر بعد ذلك ماذا يفعل ، قد يلقى اللفة فوق خوان الحانوت ، ويهرع الى الباب لا يريد غير الانطلاق ، وليظنه الرجل معتوها أو نصابا • ويصيح البائع خلفه ويشهر به ، لكن لما كان الرجل فى حانوته بمفرده فقد بقى مورتيمر آمنا من المطاردة •

وتمتعت الملقنة بسماع هذا المشهد •

وقالت : « عظيم ، عظيم • لكن هذا كله مستحيل • لابد أنك وقعت فى حانوت غير الحانوت » •

فلم يصغ مورتيمر الى هذه الكلمات المعقولة ، بل طفق يلعن نفسه ويشكو ويتهم ، وثار ولم يمكن تهــدئته ، ولم يهمه كيف لازمه النحس • وسيان عندنا أيضا هل لم تتوخ الملقنة بطبيعتها الودودة الدقة الكافية من قبل حين وصفت له المكان أو أن مورتيمر لم يصغ بانتباه كاف ، ففى حالة كحالته ينجــذب الناس بما هو عاطفى غير محدد مما يجذبهم الشىء الدقيق •

وكانت الملقنة على استعداد لأن تنهض من كل قلبها بــكل التبعة ، لكنه صرخ ، فهو الآن يزود بعلامة على أن شوكة النحس تأبى أن تكسر وأنه يعز عليه أن يهتدى الى الطريق السوى ولن يكون من ثم أبدا صائغ حظه • وارتمى بهذا على الأريكة ودس رأسه فى تيه الوسائد الزهيدة ولفات النوم الاسطوانية •

لكن الملقنة عقدت العزم كما يتطلب دورها فى هذا المشهد ، وهكذا ثبتت يديها فوق ردفيها ، وقد ربى الجمهور على تأويل هذه الحركة بأنها عرض من أعراض التصميم ، وثم قانون كما هو معروف للتفاهم بين المسرح والنظارة ، ونحن جميعا نحفظه من الصغر ، وقد بدا هذا بالفعل فى أقصوصة عيد الميلاد •

وصاحت : « ألا تخجل ؟ » ثم وضعت يدها اليمنى فى أهمية على كتفه بينما بقيت يسراها على ردفها دلالة على أنهــــا ما تزال مصممة •

وأعلنت اليه : « سأكون صائغتك • وسأصوغ حديدك وهو ساخن » •

فقال واهنا : « حديد رقبتى » •

« حسنا . حديد رقبتك . ابق هنا مستلقيا فوق الأريكة وسأغطيك ، وأعد لك بسرعة شايا ثم أنطلق وأعود بالشريط أدراجى » .

لكن مورتيمر هب بسرعة لأنه لم يرد السماح بذلك ، فلعل الذنب ذنبه فى الحقيقة وعندئذ يريد حقا أن يرى كيف وقع فى الحانوت ما وقع ، كذلك داخله شيء طفيف من الريبة ، أليس مما يمكن أن تشترى من مكان ما على مقربة أية قطعة من الشريط الحريرى حتى لا تتعرض لكسوف ؟ .

فصاح : « انى آت معك » .

لكنها عز عليها أن تسمح له مع ذلك بأن يقطع الطريق كرة أخرى على قدميه فى المطر والثلج ، وهكذا أخذا كازيلينا وهو الاسم الذى كانوا يطلقونه فى ريجا فى احتقار على المركبات ذات الحصان الواحد وعادا بها ثانية مقابل عشرة كوبيكات ، وكان باعثا على رضى السائق أنه تلقى خمسة كوبيكات أخرى بقشيشا . وأرادت الملقنة أن تدفع ، لكن مورتيمر لم يقبل ، وآلمته ريبته الطفيفة فى الذهاب ، اذ جرى كل شيء بطبيعة الحال كما وصفت له الملقنة ، وقامت بدورها فى الحانوت بالاجادة نفسها التى أدت بها دورها فى رواق المسرح بل أبرع ، ذلك أن جمهورها كان قد تضاعف ، وكان مؤلفا عدا مورتيمر والبائعة العجوز من طفلين أيضا كانا هناك لابتياع أزرار للملابس الداخلية ببضعة كوبيكات .

وشكر لها موريتمر فى الاياب صنيعها وضغط كلتا يديها وأراد أن يقتادها حتما الى حلوانى كافيتزل لكنها لم تشأ أن تسمع من هذا شيئا بل كان الأولى فى نظرها أن يؤوب الى البيت بأسرع ما يمكن ويأوى الى فراشه ، فأطاعها وأرضاه أن يطيع ، لكنه قبل أن يطيع صرح لها بقوله وهو يشعر بالانقباض مرة أخرى : « إن

هذه آخر محاولة أو كما يقال آخر أحكام الله ، فاذا لم تنفع الوصفة كرة أخرى فلن أحرك ساكنا بعد الآن وليكن بعد ذلك ما يكون » ٠

وقالت الملقنة : « سترى » ٠

وبلع موريتمر الدواء ولف الشريط على عنقه واضطجع وتناول نبيذا ساخنا وشعر بأنه قد شملته عناية دافئة ، وحين غلبه النعاس كان قد انتوى أن يتدارك الزيارة لكافيتسل وأن يجزى العجوز على احسانها بسخاء ٠

وفى صباح اليوم التالى استيقظ خاملا ، فهل تحسن عن ذى قبل ؟ لكن كيف يقطع بهذا فى اللحظات الاولى والمرء لا يكون عند النهوض من النوم رائق الذهن بعد ؟

وتناول قبل حلاقة ذقنه بضع جرعات من الكونياك ، وقرر أنه يشعر بأنه أحسن حالا ٠٠ وتوجه الى المسرح ٠

« هل عرفت أيها الصديق العزيز ؟ نعم ؟ حسن ٠ فصوتك أجلى ، فصن نفسك فقط الى مساء اليوم وعندئذ استجمع قواك ، فانى لا أود أن أعرض نفسى للسخرية أمام هذا المدير الغراندوقى ،

وأجاب موريتمر :

« حسنا جدا يا سيادة المدير ٠ »

ووقف مورتيمر فوق المسرح مساء والشريط الحريرى فى جيبه ، وكان نجمه طالعا ونحسه غاربا ، ومؤكدا أن موريتمر كان يمثل وهو محموم لكنها كانت حمى من ذلك النوع الذى يشبه النشوة ، فكل القوى تبدو متزايدة ولا يعود للعوائق الارضية على المرء سلطان ٠

وكان المسرح غاصا وكذلك الكونت شوفالوف الحاكم العام لأقاليم البلطيق الثلاثة كان حاضرا تحيط به كالهالة كافة أنواع البزات فى مقصورة هى واسطة عقد الدرجة الاولى تواجه المسرح رأسا ، لكن هذه المقصورة وتسمى مقصورة القيصر ـ ذلك أن الحاكم العام كان يجلس فيها كممثل له ـ لم يكن لها شأن فى نظر موريتمر فنجمة اللامع مقدر له ألا يصعد هنا بل فى مقصورة مقدمة المسرح • وحقا أن المدير الغراندوقى كان جالسا بجانب مدير المسرح وكان سيدا عظيما متقدما فى السن ، والى هذه المقصورة سيتجه بتمثيله فيما بعد ويكون عليه أن يسلط كافة قوى ارادته عليها ، ولا شك أنه لم يكن يسعه ككومبارس عسكرى أن يأمل بعد فى أن يلقى أى التفات فى مقصورة مقدمة المسرح •

وأخيرا رنت أغنية الفارس ، ومع أن مورتيمر كان يعتقد أن صوته عاد اليه وبات فى حوزته فانه لم يغن مع المغنيين على سبيل الاحتياط بل اقتصر على أن يؤدى مهمته فى مجموعة المغنيين بحركات من فمه لعلها مبالغ فيها ، وبغتة تذكر أنه كان انتوى أن يعطى حليفته الأمينة الجاثمة فى صندوق التلقين علامة التفاهم ، وحقا لقد نسى ذلك تماما وبحث عنها بعينيه على عجل ، ولما لم يكن عليها ما تلقنه أثناء الاغنية الختامية فقد دست « بونبونة » فى فمها وجعلت ترفع جوربها المحيك •

وعندما لقيتها نظرته رفعت بصرها ، فابتسم لكنها أشارت بابرة الحياكة اليمنى وانتهت الأغنية عقيب ذلك وكان التصفيق باعثا على الرضى وارتفعت الستارة بضع مرات ، وكان لكافة أنواع السلاح أن تنحنى وفهم الفرنسيسكانى أن يزاحم الى المقدمة بصورة تنافى الزمالة لكنها كيسة ، وذلك أنه أخذ بيد جوستل فون بلازيفتش ورقص معها بضع خطوات متوثبة ، فراق هذا

الجمهور لكن المدير قطب جبينه لأنه لم يكن من محبى الارتجالات اذا لم يحفز هو نفسه اليها ويدرب عليها ٠

ومرت فترة الاستراحة وتبدل المنظر وهو الآن قاعة غوطيـة قديمة فى بلدية بلسن مزدانة بالاعلام وغيرها من أدوات الحرب ٠ وفى هذه القاعة زاول أوكتافيو وكفستبرج المنظر الثالث ، وكان مورتيمر واقفا فى الكواليس ينتظر اشـارة وكان على أوكتافيو أن يعطيها وكان نصـها : « هدوءا ! ها هو ذات آت ٠ » وليس أوفى بالغرض منهذه الاشارة ٠ ودنت لحظة مورتيمر فوقف مستعدا للقفز ككلب الصيد ٠ وقف أمام التحول ، أما الحكم والفصل ، أمام نعم ولا ، وأحس من القوى ما لم يحس به من قبل ، فخطرت له العبارة التى يعرف بها الروس الشـعور العظيم بسلطان السكر : والمدير والمدير الغراندوقى والأسرة الغراندوقية وحاشية البـلاط « ان البحر يبلغ ركبتى » سيقهر الجميع : الجمهور والصحافـة ومقر الحاكم العام والقدر وكان كفستنبرج قد قال من هنيهة :

« انه انصياع السماء المبين ٠ »

فهوى النجم ، هوى النحس ـ كلا فما نريده من الآن فصاعدا التخلى عن هذه الصورة الفلكية ٠ هذا الى أنه ينبغى أن نقيم حكاية الشريط الحريرى الدليـل على أن الامر يتعلق باليمن والنحس كما يتعلق بنجمة الصباح ونجمة المساء ، بالجرم امسماوى نفسه فضلا عن أنه سيتضح أن حكمة القدر تفوق حكمة البشر ٠

وبغتة سمع مورتيمر من خلفه خطوات مقعقعة عاليـة بصورة غير مناسبة ، فالتفت مذعورا فوجد قبالته ضابطا ، ليس من جنود فالنشتاين بل ضابطا روسيا من ضباط القيصر عرفه من وجهـه فقد كان الياور الثانى للحاكم العام ٠ وكان الانفعـال قد قلب سحنته ، أجل لو لم يكن مورتيمر قـد تملكته الدهشة لتبين فى

عينى الضابط تعبيرا عن الرعب • وكان يمسك فى يده بورقــة ويتبعه المشرف على المسرح بحركات فى غير وعى •

وسأله الياور : « أتتكلم الروسية ؟ »

فهز موريتمر رأسه بالايجاب •

وأمسك له الياور بالورقة وقال شيئا عجز مورتيمر عن فهمه لأنه كان ما يزال مترقبا الاشــارة المنتظرة • فأعاد اليور قوله • وكان يتكلم بصوت خافت لكنه لم يفعل هذا كى لا يشوش على التمثيل ، اذ قال : « تقدم واتل هذه البرقية • أبلغ الجمهور أن التمثيل سيتوقف • ؟ »

فى هذه اللحظة قال أوكتافيو : « هدوءا ها هو ذا قادم » •

وبادر الى الابن الذى طال افتقاده فى عطف الأب فتبعـــه كفيستنبرج على مبعدة متأملا •

لكن مكس على النقيض من ذلك لم يبد لا مسلك الابن ولا مسلك كولونيل يرتدى الدرع حسن التربية ، بل تقدم الى الامام تصطك ركبتاه ، دون أن يأبه بكلا الرجلين صاحبى المنصـــبين العسكريين الجنرال والمستشار الحربى ، وكل ما رآه فى هذه اللحظة هو عينا الملقنة المحملقتان من الرعب ثم غام كل شىء لناظريه •

ووقف فى مقدمة المسرح وتلا البرقية :

وكانت تتضمن أن عيـــارا ناريا أطلق فى حديقة بطرسبورج الصيفية على صاحب الجلالة السيد والقيصر اسكندر الثانى •

وأدرك مورتيمر أن آماله جميعا قـد انهـارت فسيغلق المسرح لفترة طويلة حدادا ، ويـكون المدير الغراندوقى قد رحل فى تلك

الاثناء من أمد والسيد تويمات قد تماثل للشفاء والسيد مونتى بالمثل • ألا ان القدر ليعاكسه ، وأجهش بالبكاء وجعل ينتحب نحيبا بادى التشنج واليأس ، أدى اليه كل ما شد من اعصابه وارادته فى هذه الأيام الأخيرة وكل ما أنهكه وما أصابه من حمى وأحس وجهه تبلله الدموع فمد يده فى جيبه يبحث عن منديل السعوط فأخرج بدلا منه شريط الحداد الأسود ، وأمسك به فى يده وحدق فيه لحظة وأتى بحركة تدل على استســـلام عديم الامل كل العــدم وعلى قنوط هو أفدح ما يكون • ثم انحنى انحنـــاءة مقتضبة وخرج •

وطالما كان مورتيمر على المسرح كان ما يزال محافظا على شيء من الاتزان أما الآن فقد زايلته قوته فانهار وهو ينسحب ، انهار فى وقت لم يفت الجمهور أن يراه فيه لكنه كان متأخرا عن أن يشعر الجمهور به •

ولم يكن فى نيته أن يطلع الجمهور على انهياره • وكان يمكن أن يغمى عليه ويقع على الارض لكنه تداعى وهو يسير وارتمى رأسه على صدره وتخاذلت خطاه ، وأصبح واضحا أن رجلا كسيرا يترنح مشهد مؤثر نزلت عليه الستارة ، وقد استمع اليه الجمهور فى حالة من الجمود ، فما بلغ هنا كان تام الهول بل تام الاستحالة ومضى بعض الوقت قبل أن يعيه الجمهور •

وقارىء اليوم الذى سمع الكثير من الاعتداءات الروسية على الحياة يمكن أن يدهشـــة هذا ، فلعله يفكر أنه بالعيار النارى الذى أطلقه الطالب كاراكوسون فى الرابع من أبريل ١٨٦٦ دخـــل الاعتداء على الحياة فى التاريخ الروسى كشىء جديد كل الجدة ، فقد حدثت مؤامرات فى القصر ووقعت حوادث قتل للقياصرة ، لكن مثل هذا كان ينفذ خلف جدران القصور ويقع خفية ، وكان الناس

يشعرون به كما لو كان بلا ريب تطهيرا ذاتيا للقيصرية يثير الرعب ، كذلك وقع آخر هذه الحوادث وهو قتل القيصر بول قبل ستة عقود ونصف عقد من السنين ، وكان الناس يعرفون أن فى فرنسا آلات جهنمية أرعدت أمام مركبة القيصر فى طريقها الى المسرح ، أما أن يرفع أحد فى بطرسبورج وعلى رءوس الاشهاد السلاح فى وجه القيصر وبالذات الاسكندر مريد الخير ، القيصر المحرر ، فما بدا نذيرا بانهيار كل الامانى وقيام مخاوف لا يمكن تصورها · كذلك يجب أن يدخل فى الاعتبار أن تلك الطبقة من المجتمع التى كانت تزور مسرح مدينة ريجا كانت تقابل كل مسعى يرمى الى احداث انقلاب باستنكار ونفور دينى تقريبا - اننا لنعرف حقا أجدادنا ·

وأخيرا ارتفعت صيحات وأصوات نساء تصرخ وأنات وانخراط فى البكاء ووقع مقاعد منهدة وحركات مختلطة ·وسقطت من مقصورة مروحة ومن أخرى منظار أوبرا · وأمسك أناس غرباء بعضهم بعضا من الاذرع · وكان كثيرون ما يزالون يحملقون فى الستارة المسدلة كأنما ينتظر من هناك شيئا مسليا · كلا لا شىء - ولا من أحد يريد أن يتسلى ، بل كل يريد أن يعلم بالصاعقة علم اليقين ·

وهكذا كانت وحدة المشاعر من القوة بحيث انه لم يشرع فى مبارحة المسرح الا قليل أرادوا الخروج بهذا من دائرة المشاطرة الأليمة ·

ولم يكن مورتيمر قد قدر بعد على التفكير فى ازالة أصباغه وتغيير ملابسه فبقى جالسا فى غرفته معتمدا مرفقه على المنضدة محملقا فى المرآة زائغ البصر ·

وانفتح البـــاب وانطلق اليـــاور الى الداخل وكانت فى يده ورقة مرة أخرى ، وكان وجهه متهللا ٠

وصاح الياور : « أخيرا لقد فتشت عنك فيجب أن تتوجـه الى الستارة ٠ فقد وردت برقية أخرى ٠ ان القيصر يعيش ٠ »

وصيح فى الجمهور : « هدوءا ، هدوءا » وعندما وقف مورتيمر أمام الستارة يلوح بالبرقية ٠ ارتبك الناس الذين كانوا بسبيل الانصراف ٠ ورجع الكثيرون أدراجهم متدفقين ٠

وتلا مورتيمر : « لقـد ثبت طبقـا لأنبـاء مختلفة النص أملاها انزعاج واضطراب مفهومان أن جلالة القيصر على قيد الحياة لم يصب بسوء ٠ وقد رعته العناية الالهية واستخدمت قرويا ممن حررهم جلالته وهو الشاب لوسيب كوميساروف فدفع ذراع المعتدى فى لحظة الطلق الى أعلى ٠ »

فدوى تصفيق يعم الآذان تصحبه صيحـات الهتاف وصرخات المرح ، وكان الاستحسان ينصب فى المحل الأول على العنـايـة الالهية والقروى كوميساروف ، لكن بعضا منه كان من حق مورتيمر أن يتلقاه فانحنى من ثم ثلاث مرات ، مرة نحو مقصورة الحاكم العام ، بوصفه والى القيصر ، ومرة نحو مقصورة المدير التى يجلس فيها المدير الغراندوقى وثالثة للجمهور عامة ٠

ومفهوم أن مورتيمر كان يشعر أن أسطع النـجوم نورا كان يسلط أشعته عليه ، كذلك هو تملكته قوة اللحظة التاريخيـة ، واستؤنف التمثيل ، وكان عليه أن يمثل مكس فيالها من خلفية خلقها لدوره ، فلم يطأ المسرح قط ممثل فى مثل هذه الظروف ٠

فى مثل هذه الغبطة التى فاض بها قلبه شعر مع ذلك بالرغبة

فى ألا ينهى أبدا دوره الذى هو محط الانظار قبل الاوان فيجب أن يتذوقه حتى النهاية ٠

وأشار مورتيمر بيده التى تمسك بالبرقية ، ولاحظ الجمهور أنه يريد أن ينهى شيئا آخر وانتظر أن يسود الهـــدوء ٠ فقرت الضجة ، وأعلن مورتيمر كرة أخرى رسالته لـكن باللغات الالمانية والفرنسية والانجليزية واللاتفية ٠

وكون مورتيمر قد استخدم أيضا اللغـة الانجليزية ، قـد حسب له حسابا عاليا وبمعنى من معانى الظرف الخاص وحضـور الذهن ، ذلك أنه كانت ترسو فى الميناء سفينة مدرسية انجليزية ، وكان ضباطها مع القنصل وأسر التجار الانجليز المقيمين فى ريجا موجودين بين النـــظارة ٠٠ على أن مورتيمر لم يكن يعلم من هذا شيئا ولو اتفق أن كان يتكلم الباسكية قليلا لأذاع بهذه اللغة النائية أن القيصر فى الحفظ والصون ٠

لقد جلب له هــذا الملحق ، هذه « المـــرة » ، نجاحا كبيرا واستحسانا عظيما فوضح هذه المرة أن العناية الربانية أو القروى كوميساروف لم يكن المعنى ٠

وأراد مورتيمر الانسحاب الى ماوراء الستارة اذ كان لابد أن يعود التمثيل بأسرع ما يستطاع ٠ فالمدير الذى كان مقعده خاليا كان يقف حقا خلف المنظر ويصدر أوامره ، ولنا أن نفترض أنه كان يقصد أن يختصر عددا من المناظر ، وأن يدخل بدلا منها «باليه» ليس مايبعث عليه لكنه يريد به التنشيط ، وكان فى نيته على كل حال أن يظهر فى مأدبة الجنرال الكبرى فى الفصل الرابع سربا من الراقصات ، ولم يـــكن من الهنات الهينات بالنسبة للدرامى أن يقتنع بهـذا ٠ فقـد كان آنئذ متضايقا ، لأنه كان الأليق فى رأيه

لو أن الحاكم العام كان قد رجاه أن يتلو البرقية بوصفه رب البيت، لكن الكياسة قد جوفيت بلا ريب فى مثل هذا الذعر والانفعال ، فضلا أن مثل هذه التبليغات الى الجمهور لم تكن تقررت لها تقاليد ، وفى تلك الأثناء أحس أيضا أنه ساخط على مورتيمر ، فكان يفكر : ان هذا الشاب ليصبحن فى نظرى أصعب مراسا مما ينبغى ، وقد كنت مرة أخرى أطيب معه مما ينبغى ، وسأحرص فى المستقبل على أن أكون معه أشد ايجازا ٠

واذ يوشك مورتيمر أن يبتعد رأى كيف أن الحاكم العام نهض وانحنى فوق حاجز المقصورة وأشار بيده ٠ وكان واضحا أنه يريد الكلام فارتفعت صيحات تحث على الهدوء ، وقرت ضجة الاستحسان وبقى مورتيمر ٠

فقال شوفالوف بصوته الواضح الرضى باللغة الألمانية وتوكيد من ولد روسيا وهو توكيد يتطلب الشدة : « سيداتى وسادتى ، بعد هذا الذى هز وجداننا وكان فى هذا المساء من نصيبنا تكاد لاتكون فى الحق قادرين على أن نعبر مثل هذا الأداء الرافع للمسرحية ماهو خليق به من الالتفات ، واذن فلنعد الى بيوتنا ونضىء منازلنا ونحمد الله أن دفع عنا السوء بمنه وفضله » ٠

وهتف على الأثر بحياة القيصر ، فهب واقفا من لم يكن وقف بعد ، واقترن بذلك النشيد القومى : حفظ الله القيصر ، وأمر سوفالوف ياوره بتنغيمه وغنت الدار كلها معه ٠

ولم يكن مما كره الجمهور أن قطع التمثيل ، فقد كان كل هؤلاء الذين هزهم ما وقع جد متلهفين الى الحديث والحكاية فى البيوت أو تبادل الآراء والافتراضات والتأثرات فى فندق روما وفى مدينة فرانكفورت وفى المنتديات حتى لكأنهم كانوا فى الراجح خلقاء أن ينفضوا دون أن يطالبهم الحاكم العام بالانفضاض ، وغنوا

النشيد مرة أخرى · وكان المدير أيضا مرتاحا بل لقد اعتدل مزاجه فجأة ، وأوى الى فراشه مبكرا ولم يحتج الأمر الى استرداد أثمان التذاكر ·

كان مورتيمر مايزال واقفا فى مقدمة المسرح ، وكان يغنى بصوت جاوز ارتفاعه الحد ، فلم يعد ثمة داع الآن لأن يغنى بصوته فقد هزم نهائيا ، لقد زاول معه شيطان عدو له ، ذو قوة قاهرة ، زاول معه من قديم لعبته الغائظة الشريرة ، بيد أنه استسلم اليه كل الاستسلام لما أطلق لآماله العنان وترك الملقنة توسوس له فى أذنه بأسرار الشريط الحريرى الأسود ·

لقد كان عاجزا عن أن يتعزى بفكرة أنه بعد غد بالفعل ـ لأن غدا يوم أبرا ـ سيقف على المسرح بوصفه مكس ، وسيلقى التفاتا واستعدادا لم يلقهما بيكولوميني من قبل · كان عاجزا عن أن يتذكر أنه قبل أسبوع واحد لم يكن يعلم بوجود المدير الغراندوقى وأنه استخفه الطرب لما قيل له أن له أن يمثل مكس أمام جمهور المسرح المألوف الذى درج على الحضور ، والآن لم يكن تتملكه سوى فكرة واحدة هى أن المدير الغراندوقى سيرحل غدا وأنه سيحمل آماله جميعا معه عبر الحدود ·

ونشيد القيصر الروسى الذى ألفه شاعر حميم حقا هو بين أناشيد العالم القومية أوجزها وأعظمها شأنا والآن قد انتهى من غنائه ·

لقد بلغ حنق مورتيمر منتهاه على مسلك بين ذروته بالايقاعات الأخيرة ، أفلا يزال هذا الشيء اللعين فى جيبه ، هذه الخرقة السوداء التى بدا له كل مافى قوة التحس من شر مجسما فيها ·

وأخرج الشريط الحريرى وأمسك به وجعل يتأمله بضع ثوان ، تحت نظر الجمهور ثم مزقه شذر مذر ونثره على الأرض . انه ماكان ليكون حتما ممثلا لو لم تستهوه الستارة لكن خيل اليه فى الوقت نفسه أنه يمزق بشريط الحداد هذا ماضيه الخاص ومستقبله الذى حلم به وآماله وأوهامه ، وانه يتنصل من كل ما ضلله وأربكه وأمضه وأنه يفوز بحرية لا حدود لها بهذا التمزيق وهذا النثر لما مزقه .

ورأى الجمهور فى هذا التمزيق لشريط حريرى لم يعد له نفع ، خاطرا أنيقا هو أحب ما يكون الى النفس ، وبينما بعض التفكيرات على افرادها تتناول فى سكون مايصاحبها فى هذا الصدد وتتساءل من أين أمكن أن يكون لمكس بيكولومينى فى اللحظة المناسبة بالضبط شريط حداد تحت يده ـ وقد ذكرت سيدة مثقفة بجيوب بيتر شليميل قالت ـ : قوبل بعاصفة من الهتاف منظر الختام الجميل الذى ختم به مساء عدأجدر ما يكون بالتفكير بين كل أمسيات مسرح المدينة .

لكن مورتيمر لم يعترف بالاستحسان ولم ينحن بل خرج منه بشكل درامى كمكس أصيل مصمما على أن يلقى بكل شىء .

واذ يصل الى حجرته يشعل سيجارة أول ما يفعل اذ ماذا يمكن أن يضيره خطر التدخين يصدر عن الطبيب أو عن ادارة المسرح وفك أزرار السترة العسكرية وكان يريد خلعها لكن خطر بباله أنه اذا كان الحديث عن خلع سترة عسكرية فالقصد فى الأغلب هو أن المرء يستعفى ويدفن كل آمال حياته ، لكن هنا فتح الباب وظهر الياور للمرة الثالثة .

قال له الياور وهو يبتسم : « زر سترتك العسكرية ثانية ياحضرة الكولونيل فانى مكلف برجائك أن تصحبنى الى المقصورة» .

فهب مورتيمر واقفا يكاد يصرخ • كلا فانه لم ينس • فالمدير الغراندوقى يريد أن يتحدث اليه ويجب أن تتحقق كل الأحلام •

وألقى بلفافة التبغ فى قدر للأصباغ أكل عليه الدهر ، وأخذت تتصاعد منه فى الحال روائح كريهة كأنما يريد أن يعـــاقب على مخالفة أوامر الدار ونظام المرضى ، واقفل مورتيمر سترته ومضيا وخطر له أن يظهر أهميته بجانب الياور فكان يتحرك فى انتصابة عســكرية

فلما اقتربا من مقدمة المسرح أراد مورتيمر الوقوف وأن يدع مرافقه يتقدمه فى الدخول فقال الياور متعجبا : « هنا ؟ يظهر أنى أعرف منك بهذه الدار » •

فتمتم مورتيمر دهشا : « لكن هذه هى مقصورة المدير » •

« المدير ، انى أمرت بأن أقتادك الى مقصورة القيصر » •

فارتد مورتيمر الى الشقاء ثانية • اذن الى الحاكم العـام • فماذا يمكن أن يبغيه منه الحاكم العام ؟ سيقول له بضـع كلمات ودية ثم ينصرف ثم يظل هو الى الأبد يمثل فى ريجا أدوار الخلان الزائفين •

ودخلا المقصورة • وكان يجلس فيها سيدان الحاكم العــام فى بزته البراقة ، وسيد بجانبه بدين أشـــيب الشـــعر يرتدى « الفراك » ــ وتزين الأوسمة صدره وعنقه •

فانحنى مورتيمر للحاكم العام فحنى له رأســه وهو مشتت الفكر ، وانحنى مورتيمر للسيد لابس « الفراك » ورأى أمامه رجلا ذا غضون كثيرة فى العنق وله وجه ذو عينين ذكيتين حادتى البصر •

وقال هــذا الرجل : « لقــد طلبت استدعاءكم ، فانا الأمير جاستوبلسكى ، لكن هذا هو أقل ما هنالك • ذلك أننى قبل كل

شيء رجل مسن غريب الأطوار واذا شئت ، مجنون ، لكنى حاذق بلا ريب ، هذا الى أنه مسموح بكل ضرب من ضروب الفنون لانسان على درجة بعينها من النفوذ والثراء ، وهـذه الدرجة متوفرة لى ، وكثير من النـوادر تروج عنى ، وانى لأخاطبكم مع الكلفة ، وهذا امتياز كبير والا فانى أرفع الكلفة فى خطابى لكل الناس فيما خلا القيصر ، هذه عادتى وستعرفون عاداتى الأخرى ، وليس بينهـا وأقسم بشرفى ، ما يمكن أن يسبب لكم المتاعب ٠

وكان الأمير يتحدث بالروسية والفرنسية مبادلا بينهما وأخرج علبة « سجائر » ذهبية وقال : « تكرم أيها الحاكم العام » ٠ فتناول شوفالوف ثم قدم الأمير الى مورتيمر ثم تناول هو وكانت السجائر مما شهره القيصر ، ولم يدخن معه السجائر الا دائرة ضيقة لما كان ما يزال وليا للعهد لا يرضى عنه أب صـارم يدخن الغليون وارتقى اسكندر العرش وغزت السيجارة العالم صادرة عن بطرسبورج ٠

واستطرد جاسنوبلسكى يقول : « ان لك لالماما باللغـات وانك لسريع الخاطر حاضر البديهة وأنت رجل وطنى تدرك المواقف وتفهم كيف تعامل الناس ٠ وقد بعث بى القيصر الى هنا لأفتش على بضع سلطات مضجرة وغدا أسافر مبكرا عائدا الى بطرسبورج فهل تريد مرافقتى سكرتيرا خاصا ؟ وسأؤدى عنكم الغرامة العرفية » ٠

ولما كان مورتيمر لا يزال ملازما الصمت فقد أضاف الأمير الى ذلك قوله : « ويمكن أن تكون سعيدا » ٠

وقد أعجب مورتيمر بالصورة الرائعـة التى مثل بها الأمير دوره الذى اختص به الأمير نفسه على كل حال ، ومع ذلك فـلم يكن لدى مورتيمر وقت لأن يتدبر هـذه الفكرة ، فقد جرى كل شيء سريعا ، كذلك لم يعد يسعه الاهتمام بحالته الصحية ، فليس

يتوقف عليها شيء كثير • وحقا لقد كان بصوته بحة قليلة ماتزال ، ولكن ماذا يضير هذا فنحن جميعا مبحوحو الصوت أحيانا •

ومثل مورتيمر على مسرح العالم دوره الذى خصص له وعظم الدور تحت يديه ، وكان عنده ما يدعـو الى أن يـــكون فى ادارة جاسنوبلسكى عاليا ، وقد لاءم مورتيمر بين نفسه وبين العالم على أسلوبه وازدادت ملاءمته على مر السنين •• ذلك أنه لم يكن يوما من تلك الطبائع الطموحة التى تستطيع أن تلائم العالم • وقد توفى فى ليلة الحرب العالمية الأولى حائزا لعدة أوسمة ومالكا لعدة ضياع فى محافظتى جاروسلاف وبتسا • وفى سنواته الأخيرة عاد الى العيش فى بطرسبوج مؤثرا العيش فيها بعد أن جال فى الروسيا كثيرا ، وقد احتفظ للمسرح بالمودة ، ولمـا كان يعد من الخبراء فقد ظـل طويلا رئيســا لجمعية المسرح الألمانى يمـدها بالنصائح ، وكان له فيها نفوذ ولها منه الحماية ، وبالجملة كان له كما يقال دور • وقد جاء الى ريجا مرة أخرى لبضعة أيام ، ولعل ذلك كان بعد مبارحته لها باثنى عشر عاما فحيا رفاقه فى ذلك العهـــد ، بعضهم بحرارة وغيرهم بتحفظ ووجد المدير قد طعن فى السن وحنته الآلام وحناه الخضـــوع • وقدم اليه علبة ســـجائره الذهبيـــة فى قلة مبالاة وقال له : « تكرموا يا حضرة المدير » • فانحنى له المدير اجلالا قبل أن يمد الى العـــلبة يده ، ومفهوم أنه لم يعد يخاطب مورتيمـــر بياصديقى العزيز بل بياحضرة مستشار البلاط ، على أنه قال له مرة : حسنا جدا ياحضرة مستشار البلاط • وتحادثا برهـة عن الأيام الخوالى فسأل مورتيمر عن هذا وذاك ، وأيضا عن الملقنة التى عادت تخطر بباله ثانية •

فقال المدير : «نفس طيبة ياحضرة مستشار البلاط متواضعة• ان موتها كان الشيء الوحيد الذى ساءنى منها ، كنا بالذات نؤدى قطعة كلاسيكية وكل شيء فيه شعر واســـتشهاد يعرفه الجمهور

ويعرفه رجال الصحف ‥ أجل صحيح كانت تمثيلية باتان ، يقوم السيد مونتى بدور الفارس الدينى فيها والسيد مونتى ـ دعنا نقل ـ لم يكن قوى الذاكرة يوما ما لكنه كان فى مقابل ذلك ذا فهم كبير ٠ والفهم أيضا أهم شأنا على شريطة أن يلقن الممثل تلقينا صحيحا ، وارتج على السيد مونتى وبدأ يعتمد على التلقين ، فكان يقترب على الدوام من صندوق الملقنة ، لاكلمة افلست أعلم حتى اليوم كيف نجونا من الفصل ٠ فما كادت الستارة تنزل حتى هرع السيد مونتى الى الملقنة ليوجه اليها اللوم ٠ وناهيكم كيف كانت الحال ؟ كانت الملقنة ميتة بالسكتة القلبية ، وكان السيد مونتى ساخطا ٠ قال : « أوجب أن تختار هذه اللحظة بالذات ؟ « فأجبته : «ياصدقى العزيز ، يجب أن تخشع أمام الموت وأمام هذه الميتة بالذات انها لميتة جندى فى ساحة القتال ٠ لكن الخشوع لم يكن فى الحقيقة شيئا عند السيد مونتى » ٠

« وعلى كل فقد كان ذا فهم ٠ والفهم أيضا أهم ‥ وعندنا مساء اليوم ممثل جديد : أدولف فيلبرانت ‥ فاذا راقكم الحضور الى مقصورتى أكون سعيدا ياحضرة مستشار البلاط » ٠

وركب مورتيمر الغم أن بقى هذه المدة الطويلة لا يفكر فى العجوز الطيبة ٠ لقد كان فى نيته أن يأخذها الى كافيتزل وكان خليقا أن يكتب اليها على الأقل ، وهو لم يودعها مرة ، فقد تم كل شىء على عجل ، وهو الآن يفكر فى تأثر بالغ : الملقنة ‥ الموحية ‥ الملهمة التى كانت تلهمنى الصواب ‥

ولم يفض مجرى أفكاره الى أبعد من ذلك ، لكننا نحن كنا نحب أن يضيف اليه أن الأمر اذ ذاك لم يكن يتعلق بالشريط الحريرى الأسود بل بقوة الشفاء الخفية الكامنة فى كل انسان والتى تحتاج لتكون فعالة الى نداء تحدوه الثقة ، والى تلك المناسبة المنظمة التى

لا تذلل عوائق الصـــحة فحسب بل تتولى أيضا ما لحقه الفشل والمسخ فى مصير الانسان •

واننا لنحب أن نتذكر أن كلمة الهام لا تعنى غير النفث والنفخ والايحاء وان كل مثال منظم يحب أحيانا أن ينقل وظيفته النافثة الى انسانة مثل عجوزنا الطيبة •

وقرر مورتيمر أن يزور قبرها على الأقل وأن يضـــع عليه اكليلا جميلا • بل انه فكر فى أن يثبت على ذراعه اليسرى طيلة هذه الزيارة للمقبرة شريط حداد ، لكن المقابر كانت حقا نائية فى الخارج وكان الأوان شتاء والصـــقيع قاسيا والثلج عاليا ، وكان لابد له أيضا من أن يستعلم أولا وفى شىء من الكلفة عن المقبرة التى دفنت فيها ، هذا الى أنه كان يعرف أية مصاعب تعترض الاهتداء الى قبر ليس من بين القبور المحترمة بالذات ، وهكذا اقنع نفسه من دون كبير عناء فى أول الأمر بأن الملقنة لم يعد ينفعها اكليل ، وان العجوز وشريطها الحريرى ماكان يمكن أيضا أن يكون لهما فى الحقيقة دخل كبير بأحداث حياته •

بوبسك

« Pupsik »

اسماء الشخصيات :

دنيا	Dunja
بوبسك	Pupsik

أقمت فى باريس فترة من الزمن مع مهاجر روسى أصغر منى سنا جنبا الى جنب ، وكان قد وجد وظيفة فى بنك ·

وكنت أحب أن أصغى اليه فروى لى ذات مرة حادثا عاشه ، شديد الغرابة وانى لأقص عليكم حكايته كما حكاها لى :

كان أبى موظفا فى السكك الحديدية فنقل فى سنة ١٩١٠ من كريمنتشوج الى ميتاو فالتحقت هناك بفصل من فصول التعليم الثانوى الأدنى ، وكان لنا مسكن تابع للمصلحة أقرب ما يكون الى المحطة · وكانت له حديقة واسعة نوعا ما ، كان يحلو لأمى الاشتغال بها ، وقد زرعت فيها حوضا مستديرا للورد كان فى وسطه على قائمة خشبية مدهونة باللون الأخضر كرة زجاجية لامعة بلون الفضة شد ما كانت تعجبنى ·

وكانت أختى « دنيا » ما تزال تعايشنا فى ذلك الوقت وكانت تكبرنى بخمس سنوات ، فلما كانت الحرب الأهلية بعد ذلك فقدت أثرها ، ولا أعرف هل ماتت أم ماتزال الى اليوم على قيد الحياة ؟

كانت دنيا وسيمة بألوانها النضرة الجميلة وعينيها اليقظتين القلقتين بعض الشىء · وكان لها معجبون كثيرون فكنت أغيظها أحيانا بذلك ، وقد دللنى المعجبون بها وكانوا يهدون الى الحلوى

كثيرا وفى مقابل ذلك كنت أوافيهم بأخبارها وأؤدى لهم طلباتهم ٠ وكنت أحب أن أفعل ذلك لأنى كنت شديد الحب « لدنيا » ٠

وكان فى جملة محبيها ضباط أيضا فكان يزهينى أن أظهر معهم فى الطريق وأن يحيينا الجنود ولم أعد أتذكر هؤلاء الضباط تفصيلا فقد كانوا كثيرا ما يتبدلون ، والراجح أنهم كانوا متشابهين بعضهم ببعض شبها قويا اللهم الا واحد علق بذاكرتى وأتبينه بدقة ، وليس شك فى أنى كنت قد كبرت فى السن بعض الشىء حين دخل فى حياتنا وكان اسمه بوبسك ٠

لم يكن بوبسك ينتمى الى حامية ميتاو فالأصح أن فرقته الحقيقية كانت فى مكان ما من روسيا الصغرى ٠ وكان بوبسك ملازما أول بالمدفعية ومن أهالى فيتبسك ٠

كان قد نقل الى ميتاو فكان يغشى القصر كثيرا ، وكان أيضا فى العادة على صلة بكافة السلطات ومن بينها ادارة السكك الحديدية ، وعلى هذه الصورة تعرف بأبى ، وأخيرا ادى لنا زيارة ٠

وكان اذ ذاك ما يزال يسمى بوبسك ٠ ولبثنا نحن أمداً طويلا ننادية ماتفيج ماتفيجتش ٠ وقد اطلقت عليه أختى اسم بوبسك فقد كان من دابها أن تطلق على الناس الكنايات اذ كانت ذات طبيعة هوائية ٠

وبوبسك كان العنوان الروسى الذى أطلق على ابريت سخيفة ترجمت عن الألمانية ٠ وكانت تعرض فى معظم المدن الكبرى يترنم بطقاطيقها جميع الناس ويعرفها كل أرغن يدار ٠ واليوم لا يمكن انسان أن يتصور هذا ، أما اذ ذاك فكانت كالوباء ، وكان أكثر مافيها ذيوعا أغنية تبدأ : « بوبسك يا قرة عينى » ٠ وكان اللحن عاديا لكنه كان يمتاز بأنه « يعشعش » فى الأذن ولا يبارحها ثانية ٠

كان بطل الاوبريت يسمى « بوبشن » (الدمية) أو بوبسك • ولست أعلم لماذا ،ولست أعلم أيضا لم تلقى ماتفيج ما تفيجتش من أختى دنيا هذا الاسم ، وقد علق به ووجد الجميع أنه يصـلح له وعليه يلبسه جيدا ووجدت أنا هذا أيضا

وكان بوبسك أقصر قامة من دنيا بنصف رأس وكان وسيما وأنيقا نحيل الجسـم • وانى لأتذكر بجـلاء تام عينيه الجميلتين الوادعتين الحزينتين قليلا ، ولعلهما كانتا أيضا أكثر استغراقا فى الأحلام منهما فى الحزن • ولم أكن أيضا اذ ذاك قد بلغت من العمر ما يجعلنى أميز هذا بالضبط •

وكان بوبسك يستطيع أيضا أن يكون طروبا جدا ، فقد كان يمارس معى كافة الألاعيب الممكنة فكان يداخلنى أحيانا الشعور بأنى الأكبر سنا • لكن لابد أنه كان ذا عقل راجح والا ماكان من نصيبه هذا النقل ، وانى لأفكر الآن أن هـذا النقل لابد أنه كان راجعا الى شئون تتعلق بالتعبئة والمواصلات •

كان يكثر من زيارتنا وسرعان مالاحظت انه وقـع فى حب « دنيا » وكان يلعب معها التنس ويأتى اليها يحمل الأزهار والحلوى والعطور الفرنسية •

وقد أسلفت القول أن دنيا كانت هوائية • وكان هذا الملمح من ملامحها يسيطر أحيانا على دماثة خلقها المطبوعة فيها وكان أيضا يرجع اليه أن دنيا كانت كثيرا ماتسخر من بوبسك • أجل انهـا كثيرا ماكانت تغيظه وكانت تحب أن تحيى فيـه آمالا لاتلبث فى اليوم التالى أن تتنصل منها وقد سـمعتها مرة تقول : « لابد لى يا بوبسك أن أحزنك قليلا لأنك تصبح عندئذ أشـد جاذبية » • ومع هذا كانت على وئام معه ، منذ أول زيارة له • وكانت كذلك تميزه على غيره من الضباط وعلى صـغار الموظفـين الذين كانوا

يترددون علينا . ان كل ما قصصته الى الآن يقوم على ملاحظاتي الخاصة ومن الآن فصاعدا لن أجد مندوحة من أن أروى أشياء لا أعلمها الا من تصريحات لاحقة لأمي ، وقد كانت دنيا تكره دائما أن تخاطبني في ذلك

كانت لبوبسك كما يقول الناس « مقاصد جدية » ، وكانت ظروفه مواتية للزواج اذ كان أبواى يحبانه وان لم يحب أبى في العادة العسكريين ، فقد كان من الأحرار ، وكان يختلط كثيرا بالألمان واللاتفيين . بينما كانت أمي تقتصر على الاختلاط بالمتدينين، وكان أبي أيضا لا يذهب الى الكنيسة لكنه يوافق على أن نذهب اليها نحن الآخرين .

وكان بوبسك يتحدث أحيانا عن احتمال وقوع الحرب ، فلم يكن أبي يحب سماع ذلك ، وكان كثيرا ما يقول ان الحروب لم يعد ممكنا أن تنشب في عصرنا ، وان نشبت ففي البلقان على الأكثر ، لكن بوبسك كان أدرى بذلك من الضباط الآخرين ، وكان هذا بطبيعة الحال يتصل بعمله العسكرى .

كان يتكلم أمام دنيا أيضا عن امكان وقوع حرب ، فلم تكن كأبي تعتقد بهذا ، وكانت ترى أن بوبسك انما يبدى هذا ليحثها على اتخاذ قرار في شأنهما ، وكانت هي نفسها ميالة الى اتخاذ مثل هذا القرار ، لكنه سرعان ما يسرها أن ترجئه ، فقد كانت أيضا تخشى أن ترجع عما تكون قد قررته ، وأحيانا كانت تغريه بالمداعبات . وقد سمعت مرة كيف قالت له : « ان مصابي يا بوبسك أني أحبك . فلو لم يكن هذا لكان كل شيء في منتهى البساطة » .

وقد فقد بوبسك والديه مبكرا جدا ، وتربى في فرقة الطلبة العسكريين . وكان يقضي عطلته دائما في بيت خالة له في فيتبسك، وكان يذكر هذه الخالة أحيانا . كان يتعلق بها كما يتعلق بأم

ولدته ، وعلى كل فقـد كان فى طبيعته أن يهفو الى من له طبيعـة الأم وهكذا تقرب من أول يوم الى أمى وركن اليها ركونا يوائمه جدا كركون الأطفال ، وقد جزته على هذا بعطف من جانبها عظيم ، اذ قالت لأبى فى بداية التعارف تقريبا ـ ولعل هذا كان فى فصح سنة ١٩١٤ ـ اذ قالت له « ان ماتفيج ماتفيجتش حبيب الى قلبى، فمثله تقريبا من تمنيت على الدوام زوجا لابنتى » .

وكانت الخالة المقيمة فى فيتبسك أرملة ، اتخذت ربيبة لها صبية فى البيت ، قريبة من بعيد لزوجها ، وكان بوبسك يتحدث أيضا عن هذه الفتاة أحيانا . ويظهر أن شيئا كحكاية حب نشـأ بينهما ، لكن بوبسك لم يبادل الربيبة هذا الميل وان كان قد بقى معها على الدوام على مودة ، وقد حكى لأمى عن ذلك بكل ما يتصف به من حسن النية وكذلك ذكره لدنيـا ، لكن لعـله لدماثة خلقه وتسامحه طاوع هذه الفتاة الى أبعد مما ينبغى ، وهكذا أحبت أن تزعم لنفسها نوعا من الحق ، ولم أستطع أن أتعقب هذه الملابسات وأتحراها .

كان بوبسك يحمل خاتما ذهبيا مرصعا بفص أخضر يلفت جماله النظر ، وكان من البرازيل عزيزا على بوبسك جدا ، وقد أهدته اليه خالته المقيمة فى فيتبسك لما رقى الى رتبة الضابط ، لكنه فى الوقت نفسه كانت هناك ملابسة مع الفتاة الربيبة ، ذلك أن الخاتم كان من بين ما خلفه زوج الخالة وكان من قبل يخص جد الفتاة الأكبر فكانت ترى فيه قطعة من الأسرة ، وكانت فيما يظهر ترتب على هذا أن هذه القطعة بانتقالها الى حوزة بوبسك قد أنشأت علاقة بين الأسرتين أرجعتها الى نفسها بحبها لبوبسك .

وذات مرة راهن بوبسك دنيا على لعبة على سبيل المباسطة ، ولم أعد أذكر ماذا كان الداعى اليها ، وطبيعى أن بوبسك أراد أن

يخسر الرهان لتتاح له الفرصة لاهداء شيء الى دنيا ، وكان ينبغي ألا يلفت هــذا القصــد النظر وهــكذا فكر بوبسك في أن يرجيء الشروط التي كانت مفروضة على الطرفين فترة من الزمن • وفي هـــذا الارجاء فاتته اللحظة المناسبة فخسرت دنيـا ، فأنحت عليه باللائمة وقالت انه قصر في التفاته نحوها ، وقلة شـــهامة منه ان يدعها تخسر ، فذعر بوبسك وتكدر ، فضحكت دنيا وحاولت أن تسرى عنه • وأهدت اليه على أساس اللعبــة التي خسرتها منبها مجهزا بشيء يشبه صندوقا عازفا ، فعند الايقاظ تعزف لحن بوبسك: « أنت قرة عيني » بدلا من الدق المزعج في العادة •

وبقيت العلاقة بين بوبسك ودنيا معلقة برهة على هذا النحو الذي وصفنا ، لكنها وصلت أخيرا الى أن قالت له دنيا : « حســنا يا بوبسك • اذا وقعت الحرب فأريد عندئذ أن تعلن خطبتنا ، هــذا ما أعدك به • لكنه لا يصح الآن أن تنطلق وتثـير من جـراء ذلك الحوادث على الحدود بين فيربالين وايدتكونن » ، فلما نشبت الحرب بقيت دنيا عند كلمتها ، وأظن أنها كانت ستنجزها ، فقد كان باديا عليها أن الأمر بات عنــدها أكثر جدية من ذى قبل • وتلقى بوبسك أمرا بالتوجه الى لواء لمدفعية الميدان شكل حديثا ، فكان عليه أن يودعنا على عجل ، ولعل ما حداه الى هذه العجلة قد كان أيضا شعورا صارما كل الصرامة بالواجب أو داعيا كل الدعوة الى القلق أو بالغ الحماسة ، وأهدى الى دنيا عند الوداع الخاتم المرصع بالفص الأخضر التورمالين ، وكانت لبوبسك يدان صغيرتان ، ومن ثم لاءم الخاتم أصبع دنيا كما لو كان قيس عليها •

وظل بوبسك هذا المساء الأخير طويلا عندنا ، فأنا نفسي كنت قبل انصرافه قد أويت الى فراشي

لقد قص على فيما بعد أنه قال لأمى : « اذا لم أرجع فتفضلى بالسفر الى فيتبسك لتعزية خالتى وربيبتها » .

وفى ضحى اليوم التالى ، وكان بوبسك قد رحل بالفعل حضر الينا تابعه ، اذ لم يكن رافقه الى كتيبته لأنه ينتمى الى حامية ميتاو، وكان قد وضع تحت تصرفه مدة قيادته فحسب ، وأحضر المنبه زاعما أنه لسهو تبينه فى اللحظة الأخيرة لم يضعه فى أمتعته ، وقد كلفه بأن يسلمه لحفظه ، وكنت قد عددت هذا آنذاك مجرد ذريعة ، فالراجح أنه أهم بوبسك أن يوصل المنبه الى يدى دنيا ليذكرها يوميا به ، ووضعت دنيا المنبه على منضدة الليل فى غرفتها ، لكنها لم تملأه ، وقالت انه لا ينبغى أن يدور ثانية حتى يعود بوبسك . قالت : « سأجعله بحيث يطلق أغنيته فى اللحظة نفسها التى يدخل فيها بوبسك البيت » .

واشـــترك بوبسك فى الزحف على بروسيا الشرقية ، وكان يكتب كثيرا ، لكن رسائله لم تكن تصل بانتظام ، وأحيانا لا يصل شىء لأمد طويل ثم اذا برزمة كبيرة من البريد المكدس تصل على حين بغتة مرة واحدة ، ومن ثم ألفت دنيـــا ألا تقلق كثيرا لتأخر أخباره .

لكنه فى خلال المرحلة الأخيرة من الخريف انقطعت أخباره ، وكان الانقطاع هذه المرة أطول من المألوف ، فأخذت دنيا تقلق .

وكنا جالسين جميعا نتناول طعام الافطار فى صباح يوم أحد رنت بغتة فى حجرة دنيا أغنية : « بوبسك يا قرة عينى » .

فنظر جميعنا بعضنا الى بعض مأخوذين وهبت دنيا واقفة ، وانطلقت الى الغرفة المجاورة وأوقفت المنبه ، ولما عادت كانت تبدو

شاحبة جدا ، وعاودت مجلسها الى المائدة وتناولت جرعة من الشاى وفتتت خبزها ، لكنها لم تأكل منه شيئا ٠

وجهد أبى فى اجراء الحديث وفجأة أجهشت دنيا بالبكاء قالت : « لقد حلت مصيبة ، لقد وقع مصـــاب » فجعلت والدتى تهدىء روعها ، وقال أبى فى غضب « هذه سخافات » وسئلت أنا : « هل أدرت المنبه ؟ » فنفيت ثم أسفت على هذا النفى بعد ذلك ، فقد كان ينبغى أن أقول نعم ، فتهدأ دنيا بذلك بالا ، وسئلت كذلك خادمة الغرفة فأجابت بأنها لم تمس المنبه ، وأخيرا فصل أبى فى الأمر بقوله ان دنيا لا بد قد فعلت ذلك وهى شاردة الفكر ٠

واستولى علينا الغم فى الأيام التالية ، وأبرقت أمى الى فيتبسك تسأل هل من أخبار عن بوبسك ؟ فجاء الرد سلبـــا ٠ ثم جاء الخبر من كتيبته بأن بوبسك سقط قتيلا فى اليوم وفى الساعة التى انطلق فيها المنبه واللحن بالذات ، وكتب الياور بعد ذلك أن بوبسك دفن مع بعض رفاقه معا فى مقبرة قرية فى شرق بروسيا ، غير أنه يمكن اذا رغبنا أن نعد الدفن مؤقتا ، وينقل الجثمان الى الوطن ، وقد كتب بهذا المعنى الى الخالة أيضـــا فى فيتبسك ، وأبدى اليـــاور مايتخذ لهذا الغرض من اجراءات وتعليمات تتطلب المراعاة ، وموافقات يجب أن تستوفى ٠

وكانت دنيا المسكينة عاجزة عن اتخاذ أى قرار ، وتبادلت أمى الرسائل والبرقيات مع خالة بوبسك ، وتقـــرر أن يدفن بوبســـك فى فيتبسك ، وأعد لذلك كل شىء ، ولما تلقى أبى الخبر بأن العربة التى تقل النعش أرسلت الى فيتبسك سافر والداى ومعهما دنيا الى هناك ، وبقيت أنا والخادمة وحدنا بالبيت ٠

واتفق على أن تمكث أمى مع دنيا بعض الوقت فى فيتبسك ، وكان بوبسك قد أبدى رغبته فى أن تقوم أمى بتعزية خالته وربيبتها

وكانت هذه الحقيقة رغبة غريبة وخاصة فيما يتعلق بالفتاة ، لكنها كانت تعبر بكل وضوح عن وجدانه كل التعبير ٠

ولم يسع أبى لأسباب مصلحية أن يتغيب طويلا فى مينا ولذا أراد العودة عقب الدفن مباشرة ، لكن عودته تأخرت ٠

وفى ذات يوم بعد أن عدت من المدرسة ألفيت خادمتنا شديدة الانفعال ، شديدة الخوف ، فقد رن المنبه ثانية بغتة على ما زعمت ، وما كان أبى هذه المرة ليزعم أن أحدا ملأه سهوا أو شارد الفكر ، ذلك أن دنيا أوصدت عليه منضدة الليل قبل سفرها واحتفظت بالمفتاح ٠

وفى الأيام التالية رنت الاغنية ثلاث مرات أخرى فالمرة الاولى سمعتها بنفسي ، وكان رنين الصفيح فى الاغنية الدارجة التى لاتنطوى على حرارة وكانت مع ذلك عامرة بمعان متعددة وتعبر عن الهوى والرجاء ، عن الحزن والشكوى ، كان يبدى شيئا مخيفا ، شيئا أخاذا فى الوقت نفسه ، ولست أستطيع أن أتصور أغنية موتى أبعث على الذعر منها ٠

وأخيرا جاء أبى فعلمت منه أن الجنازة لم تشيع بعد ، وأنه لم يتيسر له التخلف أطول من ذلك ، وقد لبثوا فى فيتبسك ينتظرون وصول النعش على غير جدوى ، وأبرق أبى الذى كان يعرف رقم العربة وتحرى تليفونيا عن مقرها ، فعلم أنها تعطلت سهوا عند احدى المواصلات وهو ما لم يكن يندر حدوثه فى ذلك العهد من فوضى المواصلات ، ثم ألحقت بقطار آخر ٠ وقد وفق أبى بعد عناء لا نهاية له أن يقع ثانية على اثر للعربة وجعل يتابع تيهانها عن بعد ، وقد انتهى هذا التيهان الى ميتاو ، وظلت العربة ثلاثة

أيام مركونة فوق قضبان السكة الحديد ، قبالة بيتنا حتى أمر أبى وهى فى قوة فيتبسك بأن تتابع سفرها اليها ، والآن وقد رجع أبى كانت العربة فعلا فى طريقها الى فيتبسك لكن أبى لم يعد يستطيع انتظار وصولها الى هناك ٠

وقد قصصت عليه أمر رنين الاغنية المتكرر مرات أخرى ،وهو ما حدث بالذات فى تلك الأيام ٠ ولم يشأ أن يسمع من هذا شيئا أما أنا فلم أشك فى أن ثمة علاقة هنا بهذا الرنين ، وما أخذنى على الاكثر قد كان فكرة فعالية تأثير لا بد أن يكون نابعا من تعلق الميت وحبه ٠ وكانت عربة السكة الحديدية تقل أيضا نعوشـــا أخرى والى جانبها قطع شحن من كل نوع ، لكن هذا التأثير كان من القوة بحيث استطاع أن يعين للعربة التى كانت ترتبط بها مع ذلك مختلف المساعى والأفكار والامانى وجهتها ٠ وقد أراد أبى أن يرى فى هذا مجرد صدفة تفسرها فوضى المواصلات أثناء الحـرب بسهولة ، لكن أمى على خلاف ذلك كانت بعد عودتها ترى رأيى ، وقد رأت أيضا فى دوران المنبه حادثا عظيم الاهمية ٠ ولم أرو شيئا من هذا لدنيا ، وكذلك الخادمة أمرت بكتمان الخبر ، أما مجىءالعربة الى ميتاو فلم يخف عن دنيا بلا ريب ، لكن لم أحب أن أطرق موضوعه مع دنيا ٠

وفيما خلا ذلك بقيت أمى ودنيا بعد الدفن فترة أخرى فى فيتبسك ٠ ونشأت بين دنيا والربيبة علاقة صداقة ٠ ولكن لعله لم ينقص هذه العلاقة من جانب الربيبة شىء من الغيرة ربما كان مايزال خفيا ، وهذا ما أراه الآن ، وربما لأنها ما كانت فيما عدا ذلك لتعرب عن رغبة غير عادية لم تعرب عنها على كل حال شفويا ، بل الاصح أنه بعد عودة دنيا وعودة أمى ببضعة أيام جاء خطاب من الربيبة رجت فيه دنيـــا أن تتخلى لها عن الخاتم المرصـــــع بفص التورمالين كتذكار لبوبسك، وكان خطابها يشتمل ــ كمـــا قالت لى أمى ــ على

عبارة لم يكن لها تفسير الا أن بوبسك ارتكب حسب رأيها شيئا كالخطأ نحوها وعدم الوفاء لها باهدائه الخاتم الذى أهدى اليه ، كذلك قالت لى أمى فيما بعد : انه قد آلم الربيبة كثيرا أن تتجه عربة السكة الحديدية الى ميتاو بدلا من فيتبسك ، مع أنها كانت تؤكد ـ المرة تلو المرة ـ أنها محض الصدفة وأن الأمر لا أهمية له .

وأرت دنيا أمى الخطاب وكانت قد تعجبت من الطلب ، لكنه لم يجرح شعورها ولا سخطها ، ولعله أيضا كان خليقا أن يحدث لفتاة أخرى ، أجل انه بدا أنها لم تكن تكره أن تحقق للربيبة رغبتها ، ويمكنني الآن أن أفسر ذلك بأن دنيا أخجلها أن هذه الفتاة أخلصت لعاطفة وحيدة منذ صباها الباكر بصورة مستقيمة مطلقة ، وهكذا رأت أنها فى الواقع أمام مطلب هى أحق بأن تطالب به لنفسها لكن أمى أشارت عليها بألا تتعجل فى اصدار قرارها .

وذات مساء فى ذلك العهد كنت جالسا فى غرفتى مكبا على واجب مدرسى كتابى ، وكانت دنيا قد توجهت الى صديقة لها ، وكذلك أبى لم يكن بالمنزل ، فدخلت على أمى قبيل الساعة العاشرة فاذا بها منفعلة جدا ، وأزعم أنى ما أزال الى اليوم أرى كيف كانت شفتاها ترتعشان ، فهببت واقفا ظانا أن حريقا شب فى البيت وأرادت أمى أن تحكى لى شيئا ، لكن الكلمات لم تسعفها ومن ثم دعتنى فحسب الى مرافقتها ، فذهبنا الى حجرة الطعام وأشارت أمى الى احدى النوافذ وسألتنى ان كنت أرى شيئا .

وكان القمر مضيئا لكن ضوءه كان ضعيفا ، فوقع نظرى أولا على الكرة الزجاجية القائمة فى حوض الورد فبدا لى أنها تلمع أكثر وعلى نحو أكثر نورا من المعتاد ، وأذكر أننى قلت لنفسى أنها شبيهة بثمرة فضية لكننى لم ألبث أن عجبت من مكانها ، ذلك أنها لم تكن

فى موضعها المألوف ، بل لعلها بعدت ثمانى خطوات الى اليمين ، وباتت أدنى الى الارض مما كانت • لكن سرعان ما اتضح لى أن هذه ليست بالكرة الزجاجية بل هى شىء أصغر كثيرا خيل الى بضوئه اللامع أنه ليس امتدادا لها ، ودققت النظر فتبينت أن ذلك الشىء اللامع انما يكون جزءا من ظاهرة أوسع نطاقا ، وبغتة تبينت شكل رجل يقف هناك بلا حراك ، ويعتمد بيديه على سيف ، وصحت : هذا بوبسك •

فهزت أمى رأسها موافقة • وكان الآن قد استردت هدوءها كاملا •

وقالت : « لعلنا مخدوعين ، ابق هنا وسأعود حالا » ، وكانت حجرة خادمتنا تقع على الطرقة ، فطرقت أمى بابها وقالت لها أن تنهض وتوافينا ، وتركت الباب المفضى الى الطرقة من قاعة الاكل مفتوحا •

ولبثت واقفا عند النافذة وفتحتها واقتنعت بأن كل خطئ مستحيل ، وجاءت أمى الى جانبى وطوقت بذراعها كتفى •

وجاءت الفتاة ترتدى الكفاف من الثياب حافية القدمين فلم تكد تصل الى النافذة حتى صرخت مرعبة : « هذا بالتأكيد .. هذا خطيب الآنسة وولت هاربة وسمعناها توصد باب حجرتها بالمزلاج • ومع أنى كنت خائفا فقد خرجت من حجرة الطعام وشاهدت أمام « الفيراندة » بوبسك بالوضوح نفسه الذى أحاطه من النافذة • وكذلك لما جئت فوق الدرج المؤدى من « الفيراندة » الى الحديقة ، لكنى ما كدت أطأ أرض الحديقة حتى اختفى لناظرى كل شىء •

وناديت أمي : « هل ما زلت ترين شيئا ؟ » فأجابت بالايجاب فعدت اليها أدراجي واستدرت فوق درج « الفيراندة » فرأيت الظاهرة الواقفة هناك بلا حراك كرة أخرى ٠

قمنا أنا وأمي بالتجربة عدة مرات ، فكان أن الشبح يبدو مرئيا لنا من النافذة ومن « الفيراندة » ومن الدرج بكل وضوح ، لكنه اذا دنا المرء منه اختفى ٠

وعاد أبي الى البيت فذهبنا لملاقاته في الردهة وروينا لهماوقع ورجوناه أن يقتنع بنفسه ، فأبى أول الأمر أن يأتي الى النافذة ، قال ان لأجدر بنا ألا نعرض أنفسنا للسخرية ، لكنه في النهاية استجاب لارادة أمي ونظر من النافذة ، وصرح كارها بأنه يلوح كأنما هناك رجل واقف يرتدي بذلة ضابط لعله يشبه بوبسك ، لكن لما كان هذا لا يمكن أن يكون فلا بد أن يكون مرجع ذلك الى الضوء والى ظل الاشجار أو ما شاكل ذلك ، ثم قال انه لا يزال عنده ما يؤديه وتوجه الى مكتبه ٠

وسمعنا عقيب ذلك دنيا قادمة تتجه الى مخدعها فارتأيت أن تظل جاهلة ما حدث وأن يحظر على الخادمة أن تفتح فاها بكلمة لها لكن أمي التي كانت تميل في العادة الى الرأفة بقيت هذه المرة عنيدة وقالت انه ليس من حقنا أن نفعل ذلك ٠

وذهبت الى دنيا ولبثت عندها طويلا ، بينما مضيت أنا في تأمل الظاهرة ومحاولة الاقتراب منها عبثا ، وكنت قرأت بعض حكايات العفاريت أو سمعتها تروى ، فلفت نظري الآن جـدا ، أنه على العكس من كل هذه الأقاصيص قد ظل شبح بوبسك لا يتحرك اطلاقا وأنه لم يفعل شيئا ليلفت اليه النظر لكن هذا السكون الصامت كان أقوى وأفعل بكثير من أي عمل أو افصاح يمكن أن يصدر عنه

وقلت لنفسى لعل يوبسك يعتاقه عائق يكابده ويتمنى أن يتخلص منه ليحدثنا ٠

وعادت أمي وقالت انها لم يمكنها حمل دنيا على مغـــادرة حجرتها مع أنها حاولت اقناعها فى الحاح شديد ، وحاولت فى دماثة خلقها أن تلتمس لدنيا العذر ومع ذلك فقد كنا نشعر كلانا أن هذا لم يكن ممكنا بحال ٠

ولم نتوجه الى النوم الا بعد منتصف الليل ، وكان بوبسك ما يزال واقفا فى الحديقة ، وتناولت أمي مسكنا وأعطتنى أيضا منه ٠ ومع ذلك فقد استيقظت بعد بضع ساعات فعاد كل شىء الى خاطرى من جديد ، فنهضت وتوجهت الى حجرة الطعام ، وكان القمر قد غرب ، لكن نور مصـــباح الطريق كفى لأن يدعنى أتبين الظاهرة بجلاء ، وكانت حيال السيف ما تزال تلتمع ، وقد ظل بوبسك على هذه الحال التى وصفتها أربع ليال متعاقبة فى حديقتنا وفى المساء الثالث شهدته أيضا سيدتان يعرفان أمى جيدا دون أن تعدهما أمى لهذه الرؤية ٠

كانت هذه الأيام مقبضة جدا ٠ ووددت الا أعيشها كرة أخرى، وقد تحاشتنا دنيا ، وفى مواعيد الأكل كانت تتـكلف مرحا حالفها فيه أبى ، لكن أمى كانت مقرحة العينين من البـكاء ، مغتمة الى حد يثير الارتياع ٠

وفى المساء الثانى أطـــالت دنيا الجلوس الى البيان وجعلت تعزف مواويل وفالسا وألحانا من الاوبريت ، ومؤكد أنها لم تعزف هذا عن خفة ، بل لأنها لم تكن تعرف ما تفعل ، وقد حاولت أن أتكلم معها ، لكنها كانت تردنى، وأخيرا أجهشت بالبكاء وصاحت : «أيجب أن تشقونى قسرا ؟» وتبدل وجهها الجميل تبدلا تألمت له ، ولم أستطع أن أزيد شيئا ٠ لكنه كان مخيفا لى أن أفكر أن بوبسك كان واقفا

فى الخارج فى تلك الأثناء صامتا لا يتحرك يعتريه شىء ما لا يستطيع أن يصرح به ٠

وأخيرا جاءت أمى الى وكان ذلك فى بداية الليلة الرابعة ، وكان أبى ودنيا قد أويا الى فراشهما ، وكذلك أنا كنت قد اضطجعت ، لكنى لم أنم بعد ، بل كنت أقرأ قصة لتورجنيف ، فجلست الى أمى على السرير وقالت انها ظلت تفكر ليل نهار ، وان الوسيلة التى اهتدت اليها ، لعلها الوسيلة الناجعة ، انها تريد أن تحاول الآن أن تريح بوبسك ، وانه ينبغى أن أعاونها على ذلك ، فنهضت من فراشى وارتديت ملابسى وخرجنا آنئذ الى حجرة الأكل ، ووقفت أنا عند النافذة المفتوحة ، وأرادت أمى أن تتجه نحو بوبسك فى الحديقة لتكلمه، وحقا لقد فكرت فى أن تدانيه بقدر مايمكن ، لكنها لم تستطع أن تتبينه بمجرد أن غادرت «الفيراندة» ، وكان على أن أتابع وجهتها وأن أتفاهم معها بالنداء عليها ، وقد رجوتها أن أخرج أنا بدلا منها، لكنها رفضت ورسمت على صدرها علامة الصليب وخرجت الى « الفيراندة » ٠

ووصفت لى فيما بعد ما قام بنفسها ، فلما هبطت درجات «الفيراندة» ، زال عنها دفعة واحدة كل قلق وزايلها كل شعور بالشقاء ، واطمأنت نفسها كل الطمأنينة وتعزت كل العزاء كأنما كانت على وشك أن تتولى ، فى مركزها الحرج ، الشىء الوحيد النافع المعين لها ، وعجبت فحسب من أن هذا لم يخطر لها من قبل ٠

ومشت الى بوبسك وهى جد آمنة وان لم تعد تستطيع أن تراه ، ولم أحتج أنا مرة واحدة الى أن أوجهها يمنة أو يسرة أكثر مما كانت تتجه ، بيد أنها أحست فجأة بردا يلم بها ، وشعرت فى الوقت نفسه بأن شيئا كتم أنفاسها ، فى اللحظة نفسها سمعتنى أناديها ، « الى الوراء » ٠ فقد باتت داخلة فيه تماما» ورأيتها تتراجع عندئذ خطوتين ، ثم وقفت وتكلمت وصحبت كلماتها حركات مطابقة

فى يدها كما كانت عادتها . كانت تتـــكلم بالضبط كما لو كانت تتحدث الى رفيق مخلوق على شاكلتها ، فكان صوتها يقع ودودا حارا كما كانت بطبيعتها .

قالت : « اسمع يا بوبسك . لقـد كددنا رؤوسنا طويلا فى البحث عن السبب الذى من أجله أتيت الى هنا ، وأعتقد الآن أنى عرفت السبب ، انه يشغل بالك أن تفكر دنيا فى خلع الخاتم من يدها والنزول عنه ، فأنت تحب أن تظل تحمله لكى يكون شىء منك حولها يذكرها بك ، فلتطمئن كل الطمأنينة ، فستحتفظ دنيا بالخاتم وسأتكفل بذلك . هذا وعد منى لك ، لقـــد أحبتك دنيا وحزنت عليك ، لكنى أحترم ارادة الله فعد الى راحتك ولا تعد ثانية . »

وألقيت الى الكلمات الاخـــيرة التى نطقتها أمى بالى أكثر مما ألقته الى الظاهرة ، والآن وقد انتهت من كلامها لاحظت فجأة أنها كانت وحدها ، فقد اختفى الشبح ولم يعد بعدئذ الى الظهور .

جورجيو ومارتينو

« Giorgio und Martino »

اسماء الشخصيات :

جورجيو	Giorgio
مارتينو	Martino
تيريسينا	Teresina
جاكوبسن	Jacobsen
بيترسن	Petersen

أتعرف حكاية جورجيو ومارتينو ؟ لا ؟ لقد ظننت أن أحدا قصها عليك ، فان الكثيرين من الناس هنا مايزالون يذكرونها ، وقد وقعت حوادثها قبل أن آتى الى هذه الناحيـــة ، وعلى كل فما أزال أعرف بعض من اشتركوا فى هذه الحوادث .

فى ذلك الحين لما أن بات فى هذه الناحية كيان للفنانين ، كان يوجد فى مورالتو حانة مستحبة جدا ذات طابع شعبى قروى من يوم أن أنشئت ، فلم تكن موائدها تحضر ، وكان النبيذ مايزال يحتسى فى الاباريق الأثرية ، تلك الجرار الفخارية الجميلة الألوان ذات الفم المدبب ، وفى ذلك العهد لم تكن هذه بعد صناعة فنية بالنسبة للأجانب الذين كانوا يقصدون الى هذه الناحية بلا ريب . لكنهم لم يكونوا أولئك الناس الحقيقيين الذين يقومون بالأسفار وينزلون فى الفنادق وكان الفنانون ـ وهى كلمة يحسن أن يتحاشاها المرء كثيرا كما هو معروف ، لأنه لم يكن لها ذلك المعنى الواضح المطمئن الذى لكلمات العطارين وموظفى البريد والمحتالين ـ كان الفنانون اذن ينسجمون مع أوساط الناس من الأهالى ، وكانت الحانة ملكا لزوجين لم أعد أذكر اسم أسرتهما ، ولا مانع من أن أسميهما تاجليا بللى أو فيتوشينى ، لكنه بالاســم الأول كانت الزوجة تسمى تبريسينا والزوج جورجيو ، ثم أطلق فى النهاية على الحانة اســم جورجيو بالمثل ، ويسأل المرء « أين نحن ؟ » فيجاب : عند جورجيو بالطبع . ومع ذلك فلم يكن هو الذى رفع أسوأ ادارة الى الذروة وأبقاها فى

القمة ، بل كانت الزوجة٠ كانت تطهو طهوا شهيا ، وتحسن الشراء ، وتراقب الخدم ٠ ونما الأطفال وكانت الحال كما هي في بعض مزارع الفلاحين حيث تستأثر الزوجة بالادارة جميعا ٠

وكان جورجيو وسيما ورجلا مرحا ، ميالا الى الدعابة ، يحب صيد الحيوان والسمك ولعب الورق ، وكان يسهم حقا في الادارة ، يسهم أحيانا بهمة وحمية ، لكن بدون انتظام ، ومن يحب من العملاء يعامله بالنسيئة ، فكان على زوجه أن تلقى بالها الى ضرورة وفاء الدين ، فاذا ألح عليه أحد أقرضه أيضا نقدا ، وأحيانا كان يقول في ابتسامة تدعو الى التساهل : « أنت تعلم حال المتزوجين » ٠

وكان يمكن أن يحل بالحانة البوار لو أن الزوجة لم تكن تتولى في يدها شئون العمل في حزم ، لكنه أحيانا ما كانت تقع خلافات وتقع مضايقات ، ولم يكن ضميرها مرتاحا في هذا كل الراحة ، ذلك أنه كان يقال لها مع ذلك أن الزوجة لا بد أن تخضع للزوج ٠ وقد تعهدت بهذا أمام الهيكل ، لـكن الأمور لم تجر بغير ذلك ٠

وكان من بين من يرتادون الحانة رسام شاب ، لم يكن بلا شك يقيم بالناحية ، بل كان يقيم في لوزون ، لكنه لما لم يعد يستطيع هناك أن يعامل على الحسـاب ، فقد اضطر الى الهرب الى مورالتو وقد أراد أن يشبع حقا ، ويترع حقا ، والشقة بين لوزون ومورالتو لم تـكن بعيـدة جدا ، وقد كان دانيماركيا وكان من ثم يدعى على الأرجـح بيترسن ٠ وطبيعي أنه يمكن أن يكون اسـمه جاكوبسن بالمثل أو ينسن ، وكان أبوه راعي كنيسة في مدينة ساحلية صغيرة في جوتلنده ٠

وكان جورجيو يحب الرسام ، وهكذا تضخم حسابه ، فأقلق هذا الزوجة وحارت كيف تسترد مالها ، لأن الرسام بطبيعة الحال لم يكن يكسب شيئا مذكورا ، وقد تسامع الناس بأن أسرته ترغب

فى عودته الى الدانيمارك ، وأنها تهدده بقطع مرتبه الشهرى الذى كان مع ذلك ضئيلا ٠

وكانت الزوجة الى ذلك تميل اليه ، فقد وجدت أنه كان بين العملاء الرسامين جميعا الوحيد الذى أمكن تقدير صوره وفهمها ، وانها لتحب أن لو استطاعت مساعدته ، وأخيرا خطر لها خاطر أسعدها ، وإن كان قد داخلها فى هذا الخاطر فى الوقت نفسه شعور بأنها تقدم على عمل جرىء ينطوى على الغش ٠ وقد اتحدت فى هذا الخاطر ثلاث أفكار ذات أهمية لها : ان المبلغ الذى يدين به الرسام لن يضيع ، وانه نفسه سيعلن ، وان ضميرها من ناحية زوجها سيرتاح ٠

ولكى تبدأ بالفكرة الثالثة : كان جورجيو فى الثامنة والأربعين من عمره (وكانت الزوجة أصغر سنا منه) ، وعيد ميلاده المتمم للخمسين قريب ٠ وقد فكرت أن تكرمه بهذه المناسبة الاحتفالية التى تقع بصورة جميلة مع عيد زواجهما الثانى عشر فى وقت واحد فينبغى أن يرى الجميع أنه السيد ، وأنها تكرمه ، كما أمر الله ٠٠ كسيدها ، وأنها تطلب من سائر الناس أن يولوه ما يستحق من تكريم ، وليكن من أمره فيما خلا ذلك ما يكون ، انه يجب أن يتبين كل امرىء فى الوقت نفسه أن جورجيو لم يكن على حق حين استراب ببخلها ، وقد قررت أن ترسم له صورة ، وأن يكون جاكوبسن هو الرسام ٠ وسيتذكر كل ما أبداه جورجيو نحوه من صداقة وصبر فلا يغلو فى ثمن الصورة ، وعلى كل ينبغى أن يجعل الثمن بحيث يخصم منه مبلغ الدين وأن يبقى بعد ذلك للفنان مبلغ ليس بالقليل كل القلة ، ولتبريسنا فكرة بعينها عن أثمان الصور ، ذلك أن الضيوف كثيرا ما كانوا يتحدثون عن ذلك بما فيه الكفاية ٠

وماذا كان ينبغى أن يرى فى الصورة ؟ لقد كان هذا حاضرا ، صورة لقديس يدعى جورج بطبيعة الحال يطعن من فوق جواده التنين

وهو صريع على الأرض ـ ويكتب تحت الصورة حانة «سان جورجيو» لكن الأهم أن يكون للفارس القديس ملامح جورجيو ٠

هذا كله كان يجب أن يدور وينفذ من وراء جورجيو ، يجب أن يباشر في حينه ، لأن ينسن رجل بطيء فى عمله ويمكن نعتـه بالكسل ، لولا أنه كان بالذات فنانا وأنه ليس فى كلمة « كسلان » شيء مزر ينطوى على الملام ، لكنه كان معروفا أنه أحيانا ما يحتاج فى رسم صورة صغيرة الى فترة طويلة من الزمن ، وقد يحدث أن تصلب جميع قواه الحيوية بشلل يدوم أشهرا وعندئذ يرقـــد فى فراشه فريسة لتفكير أسود ، ويطلق لحيته ، ولا يرد على الرسائل على الأقل ما يرد اليه من جوتلنده ، ولا ينفع الاقناع الودى فى رده الى نشاط الواثق بنفسه ٠

وعصر يوم وقد كان بيترسن رابضا وحده فى حجرة المـدير جلست اليه تبريسينا ودعته الى نصف لتر من نبيذ باربيرا أو فالبو ليشيللا ، ولم يكن ينسن معتـــادا على هذا منها ، وتجاذبا أطراف الحديث عن هذا وذاك من الموضوعات ، وتدريجا كشفت عن خطتها ٠

وأبدى جاكوبسن الذى لم ينتظر من نفسه الكثير ، اعتراضات من كل نوع ٠ لـكنه لما بلغ ما احتســاه من النبيــذ ثلاثة الأرباع استولت عليه فكرة أن هذا أول تكليف يكلف به ، وقد يكون بشيرا بازدهار كل شيء موافق له ٠

وقدمت له تيبريسينا دفعتين : واحدة نقدأ وأخرى بأن شطبت أمام عينيه جزءا من مبلغ دينه من الدفتر ، ولا يجوز أن يتصور من هذا الدفتر أكثر من اللازم فقد كان كراســة ابنتها المدرسية التى لم تكتب الى آخرها ٠

ودعت تيبريسينا الرسام بعد ذلك الى مشروبات منوعة أخرى

وان لم يعد هذا بالشيء الضرورى ،وقد قيدت هذا على أنه اكرام ، فقد كانت سيدة فاضلة ٠

وكان بيترسن اذ ذاك مرح النفس ، فلم يمض طويل وقت حتى كان قد عرض على تبريسينا بعض رسوم تخطيطية بالقلم الرصاص ٠

ويعرف الناس النحو المأثور الذى يصور عليه القديس جورج٠ فالمحارب القديس يبدو شابا متحمسا ذا فروسية باهرة ، أنيقا فى جلسته فوق السرج ٠ ويحدث أحيانا أن يشب الجواد عاليا وقد هب عليه نفس التنين السام البغيض ٠

لكن الفارس يحفزه على الهجوم ويطعن الوحش الذى يتلوى تحت قدميه فى صورة كريهة بالحربة فى حنكه أو فى صدره ٠ وجورجيو لم يعد شابا لكن دون أن يزيف المرء شيئا يمكن أن يخلع عليه مع ذلك ملمحا يغلب فيه الصبا وحب العمل والفروسية ٠

ومفهوم أن الصورة بالنسبة لتيريسينا هبة على سبيل الارضاء وانها ليست تكريما فحسب لجورجيو بل أيضا له ولجميع معارفه فى حكم المفاجأة واذن فقد حدث جاكوبسن جورجيو عنها ، لكن بضعة شبان كانوا يزورونه عرضا رأوا عنده رسوما تخطيطية ومشروعات مبعثرة هنا وهناك ، وأخيرا لمحوا الصورة المبدوءة أيضا ٠ وفى ساعة متأخرة بدرت منهم ملاحظات : « سنيور جورجيو آه لو علمت ماذا ينتظرك ٠٠ سنيور جورجيو ، ماذا يسمع الناس عنك ؟ انه ترسم لك صورة كقديس٠٠ انتبه فستذهب صورتك الى روما، وسيباركها البابا المقدس ويبجلها كل الكرادلة » ٠

ومعقول أن يسأل جورجيو ومعقول أنه لا يلبث أن يعرف الخبر ،

وقد أحس أن هذا تشريف له ولم ينبس لتبريسنا ببنت شفة لكنه لا يكون جورجيو اذا لم يتدخل بدعابة ، وبغتة ظهر في لوزون، لأنه من أصحاب الفنادق الذين هم في سعة من الوقت فجعل يطوف مشـــاهدا ، مستطلعا ، مزهوا • ووعد بينسن بألا يدع تيريسينا تلحظ شيئا ، لـكنه طلب منه أن يوليه معروفا ويجيبه الى رغبة ، وشطب له في مقابلها بقية دينه •

وما طلبه منه لا يقصد به ســـوءا ولا اهانة ، اذ كيف يلحق بزوجته اهانة ما ؟ لكنه مزاح يجب أن يسمح به • وصفوة القول أن على بيترسن أن يخلع على التنين ملامح تيريسينا ، بايحاء بعيد بحيث لا يثير غضبها ، كلا ، ليس هـذا وحده هو السبب على التحقيق ، فلا يجوز لغريب أن يفطن الى ذلك ، لكن يجـــوز للأصدقاء الطيبين والمعارف الطيبين أن يبتسموا ابتسامة صغيرة •

ولم يرق هذا جاكوبسن كثيرا فقد أحس الضيق وهو يفكر في تيريسينا • لكنه في تفكيره في الدعابة وفي سخاء جورجيو وجد أن لاقتراحه جماله ، وقد أكدت له تيريسينا على كل حال شطب المبلغ الذي يدين به ، وقد تم شطب جزء منه لكنه ما كاد يلمح الى هـذا محاذرا حتى دس جورجيو يده ضاحكا في جيب سرواله وأخرج ثلاث ورقات من ذات الخمسة الفرنكات ، ومع ذلك فقد ظل ينسن يتردد بضع لحظات وقبل أن يعلن موافقته كان قد تحفظ في نفسه أن يكون في رسم ملامح تيريسينا بين بين ، وذهب بعد ذلك جورجيو معه الى سولدونو ، واقتاده الى حانة هناك وأغدق عليه •

ووافق هذا كله حالة بيترسن المرحة السعيدة ، وبعد أسبوعين ودون أن يكون لهذا سبب تلبد وجه الدنيا له بسحب قاتمة ورقد في فراشه وأطلق لحيته •

كانت مثل هذه الاشياء تقع على البحيرة وكانت تقع في جوتلنده أشياء أخرى فقد تولى العم أسرة القسيس من أمد طويل ، وأخيرا قام ابن عم أكبر سنا من ينسن برحلة الى ايطاليا ، اذ أسر اليه القس وزوجه ما يحزنهما وناشداه العون . ذلك أنهما لم يستطيعا أن يبلغا بالرسائل شيئا فوعدهما ابن العم بأن يقوم في عودته بما ينبغي وأن يرى ابن القسيس الضال ، فاذا سار كل شيء على ما يرام فانه يأمل أن يعيده معه من فوره .

وظهر ابن العم على حين بغتة في لوزون وكان يسمى أيضا بيترسن اوجاكوبسن أو بينسن . وكان رجلا نشطا في عالم التجارة، وخير الرسام بين أن يلحق به في رحلة العودة الى جوتلنده وهنا قد فوض في أن يسوى ما يمكن أن يكون قد تراكم عليه من ديون ، ذلك أن قسيسا دانيماركيا لا يصح أن تكون عليه التزامات ، واما أن يرفض فتحبس عنه المعونة ، وعلى كل فسيذهب معه الى الحلاق .

وترك الرسام كل شيء يجرى في أعنته حلاقة وسفرا وهو في حالته التي جفاها التصميم وجافتها المقاومة وتكفل له ابن العم بحزم أمتعته وتقرر ألا يتخلف بسبب شيء يمكن أن تهفو اليه في جوتلنده نفس الوطني الذي اقتيد كرسم تخطيطي أو لوحة دراسة . فاذا شاء فيما بعد أن يتسلى بهذه الاشياء وراقه ذلك في أيام الآحاد أو بعد الفراغ من العمل فهذا شأن القسيس وزوجته اللذين تقرر أن يختارا له مهنة معقولة ويمليا عليه ، أما ابن العم فلم يعد يعنيه من هذا شيء .

وفي جوتلنده استقبلوا العائد الى الوطن بالترحاب دون أن يوجهوا اليه لوما ، وقد نال كثيرا من الرعاية وجاء الكثيرون لزيارته ليسمعوا منه حكاياته عن الجنوب وعن الفن . وقد ألفوه ممتعا ولابد أن يكون ممتعا في مدن جوتلنده الصغرى من زاول الرسم في الجانب الآخر من جبال الألب واحتسى الخمر من البرميل رأسا ، وقد

نشطت حيويته وهو يتحدث بذلك وبدا مبتهجا نوعا ما وأقام مرسما في غرفة خالية فى بيت القسيس ٠

وعد أبواه أن الوقت قد حان فبدءا يتكلمان عن مستقبله وانتهيا الى تقرير توظيفه في مكتب شركة ملاحة لقريب لهما وأجاب على هذا الاقتراح بأنه مريض فبدا من المناسب عندئذ أن يرجئا هذه الاحاديث الى كرة أخرى ٠ وطبيعي انه لا يريد الضغط عليه ففى الوسع دائما ادخاله الشركة عندما يتماثل للشفاء وليس من طبيعة هذا الأمل أن يعجل بشفائه ٠

وماذا ينقصه ؟ كان يكابد شتاء شماليا طويلا وبحرا قاتما وهواء رطبا ٠ وكانت نفسه تتوق الى البحيرة وتشتاق الى مرتفعات الكروم ودفء الشمس ، وأصدقائه وكامل أسلوب الحياة الذى اعتاده ٠ كان يشتاق البلاد التى ليس فيها مكاتب للملاحة ٠

وحوالى هذا الوقت أقيمت حفلة خيرية مع « يانصيب » لصالح البعثة ٠ وتبرع بيترسن بصورة لمنظر طبيعى ، ولك أن تفرض أنه كان يرسم صورا صغيرة جميلة ليست فريدة تماما ، فى مرتبة صورى فى الراجح ٠

وربحت امرأة تاجر ثرى صورة المنظر الطبيعي ورغبت فى نظير لها ٠٠ وهكذا تلقى طلبا وأخذ أبواه يبدلان نظرتهما اليه ٠ أجل لقد بات مشهورا وباع من صوره ولم يعد الحديث يتناول شركة الملاحة وان بدا أنه شفى من مرضه وبدا يحلق ذقنه ككل جوتلندى آخر ويتنزه على قدميه ويحتسى مشروب الاكوافيت ويرسم ٠ وكان هذا الرسم ينحصر فى أنه حول طائفة من الرسوم التخطيطية التى جلبها معه الى صور واشتد أثناء هذا العمل حنينه الى نهير تيسين وأخذ أيضا يعمل من جديد فى صورة القديس جورج جاهدا يتخوف ويحرص على ألايدع ذويه يلحظون ماكان يزاوله من خلط كاثوليكى ٠

وكان واضحا أن فترة الرخاء المتواضعة لا يمكن أن تستمر طويلا ، ذلك أن دائرة المشترين في مدينة صغيرة سرعان ما ينضب معينها ، لكنه كان حقا على شيء من الثقة بالنفس والشجاعة ، ولم يعد أيضا معوزا الى المال كل العوز فصمم على الهرب لكنه أرجأه لأن هناك بضعة أشياء أخرى صغيرة كانت ما تزال تنتظر البيع فأراد أن ينتظر حتى تنفد ، وجعل فى تلك الفترة يشتغل بالقديس جورج فتقدم عمله فيه اللهم الا وجه التنين ، فقد لقى فيه المتاعب ، ذلك أن ملامح تيريسينا لم يكن من السهل تأديتها جيداً من الذاكرة لكن هذا سوف يتـــدارك ولا يزال ثمة متسع من الوقت الى عيد ميلاد جورجيو المتمم للخمسين .

وذات يـــوم كان جاكوبسن كرة أخرى فى لوزون وكان قد تغيب عنها أكثر من سنة ، وكانت غرفته القديمة خالية فكان له أن يستأجرها من جـديد ولاحظ من فوره كيف بات احترامه فى نظر الناس منذ أن كان ابن عمه هنا يسدد عنه الديون وبديهى أنه كان سيعود الى الاستدانة فى لوزون وفى غـيرها هـــذا الى أنه أحضر الصورة التى كانت جاهزة تقريبا ، وأجرها يستحق عما قريب . وقد لعن قليلا ما كان منه اذ ذاك من جمـود اذ كان عليه أن يتفاهم على عجل مع تيريسينا فان ابن العم كان قد سدد فى جملة ما دفع مبلغ الدين المشطوب وبات له بذلك رصيد .

كان ينسن يتصور أنه لا بد سيجد كل شيء كما تركه فهذا ما يعتقده كل الناس فى مثل هذه الحالات ، لكن بعضا من أصدقائه ومن معارفه كانوا قد رحلوا واختلف غيرهم ومات أيضـا ثلاثة أو أربعة منهم ومن هؤلاء جورجيو أيضا ، وكان هـــذا فى الشتاء بعد وداع بيترسن بوقت غير طويل بينما كان قابعا فى جوتلنده يحدق فى البحر الاغبر الكدر . وكان جورجيو قـد عقد فى سكره رهانا أن يعبر البحيرة سباحة على الرغم من فصل الشتاء وكسب الرهان

لكنه أصيب بنزلة برد زيد عليها التهاب رئوى ، ولم يكن البنسلين قد وجد بعد ؛ وباتت تيريسينا أرملة .

وذعر جاكوبسن واستولى عليه اليأس ، لا لأنه خشى على صورته فى الحق فهى لم تعد تصح أن تكون هدية عيد ميلاد على كل حال لكن كتذكار للأرملة والاطفال كان يجب أن تحتفظ بقيمتها ومع ذلك فقد كان يداخله شعور سيىء كما لو كان شىء غدر به وكان يعتمد عليه كل الاعتماد .

وتحدث هو وتيريسينا عن جورجيو فأمرت تيريسينا يدها على عينها وقالت : «يالنا من بشر لا تدرك عقولنا الا بعد الأوان .. لقد كنت أحيانا أستاء من جورجيو فلم يكن يخطر ببالى أنه بمرحه وحبه للعشرة قد جذب الينا أناسا كثيرين أصبحوا عملاء للمحل . »

وقال بيترسن : « أجل لقد كان رجلا طيبا فلم يكن بد من أن يحبه الجميع فلنشرب نخب ذكراه » .

وقالت تيريسينا : « جميل منك أنك عدت يا سيد جاكوبسن. انك حقا قطعة من العهد القديم ، والآن قد تغير الشىء الكثير وسوف يتغير أكثر منه فيجب اذن أن أحكى لك على الفور ، لقد استخدمت نادلا ، رجـــلا حاذقا تعلم فى لوجانو ، وكان أخيرا فى مندريسيو يعمل فى محل حلوانى ، ان نوبته فى الخروج اليوم لكنك ستتعرف به غدا وهو يسمى مارتينو . أجل ، وســوف نتزوج ، فان الحياة تشق على امرأة وحيدة ، وهو أيضا يجلب معه شيئا ادخره ففى مكنته أن يودعه فى التجارة » .

فهنأها ينسن ولكن فى غير ما غبطة كثيرة فليس ممـا يحب الرجل أن تتزوج النساء .

وقالت تيريسينا : « أجل والآن لنطرق موضوع الصورة ياسيد

بيترسن . يجب أن أحملك مزيدا من التعب ، لكنى أعلم أنك تفعل هـــذا عن طيب خاطر ، وهو أيضــا مفيد لك ، أنت يا من له هذه المهارة . اذن فالصـــورة وعليها القديس جورج لم يعد لهــا قيمة وانظر فلا يزال الى أوان العرس عدة أسابيع أخرى فيجب اذن أن تحول الصورة ، ويجب أن يكون تحتها : «حانة القديس مارتينو» .

قال جاكوبسن وقد ذعر بعض الشيء : « أحولها ؟ من جورج الى مارتينو ؟ والتنين الى المتسول ؟ »

فنغضت تيريسينا رأسها مغتبطة . ودعته كما فعلت ذات مرة الى قدح من مشروب بريبرا أو فاليوليتشيللا ، وتحدثت عن مهارته وبذلت له الوعود .

وأخيرا بدأ ينسن يضحك ، فقد طاب له العيش فى جوتلنده وسمنوه .

« لم لا ، بالتأكيد . مادمت لاتطلبين منى أن أجعل من القديس جورج العذراء تحمل طفلها ومن التنين يوسف ، ومن جواد الفارس حمارا تركبه الى مصر » .

وكان مما يخفف عنه أنه لم يعد بحـــاجة الى تهريب ملامح تيريسينا الى وجه التنين . وقد شـــعر حقا كيف كان هذا الالتزام الذى أخذه على نفسه بهذا الطرب مفعما بالمضايقات .

طبيعى أن يكون للقديس جورج ملامح مارتينو ولدرس هذه الملامح يجب أن يكثر باترسن من الاقامة فى الحانة .

وطبيعى ألا تستطيع تيريسينا أن تطلب منه أن يتحمل نفقات هذه الاقامة بغية الدرس ، وقد كانت كثيرا ما تدس له النقود ، وهى تخطف عبرة ، فليس يجوز أن يلحظ مارتينو ذلك .

وقد كانت تراعى جاكوبسن لأنها يجب أن تستبقيه فى حالة نفسية طيبة ونشاط للعمل . ولا يصح كما أكد كثيرا أن يتهاون المرء فى واجبه . وقد كان الامر فى الراجح أبسط عنده لو أنه رسم صورة جديدة لكن الوقت والحالة هــذه يقصر ويحتــاج الامر الى اعتبارات وتصميمات جديدة ومن يعلم فربما لا تهبط على بيترسن فجأة تلك السحب القاتمة .

وقد أرادت تيريسينا أن تقنع نفسها بتقدم العمل لكنها مراعاة للناس لم يكن يسعها أن تزور بنسن فى مسكنه . ولم يكن يكفيها ما يوافيها به أحيانا من رسوم تخطيطية مرســومة بالرصاص بل كانت تصر على أن يريها بين الحين والحين لقطة شمسية لما أنجز وقد رأيت بنفسى آخر لقطة تمثل بالفعل الصورة الجاهزة . ومن الامضاء لم أستطع أن أتبين سوى المقطع الاخير « سن » .

ولما خرج العروسان من الكنيسة كانت الصورة قائمة يحتويها اطار واكليل فوق مائدة فى الحانة مفروشة بقــماش أبيض فتزاحم الضيوف عليها وهم يهتفون بشتى الهتافات ، لــكن تيريسينا أخذت مارتينو من يده واقتادته كالطفــل وأمسكت باليد الاخرى بيترسن وتعلق بهم الاطفال وهكذا ألف الكل جماعة لطيفة .

ولم يلحظ على الصورة ما تكلفته من عناء شديد لا مارتينو ولا الضيوف ، وكذلك تيريسينا باعتقادها الساذج بأن الرسامين لا بد أن يستطيعوا الرسم ـ لم تتصور شيئا من ذلك العناء ، وكان فى رأيها أن جاكوبسن غلا فى ذكر الصعوبات ، تارة لتراخيه وتارة عن حساب ومع ذلك لم تفكر فى أن تاخذ عليه هذا الحساب ، ذلك أننا لا بد أن نكون جميعا تجارا ، كل على طريقته ، لكنه معروف ـ مافى ذلك شأن ـ أن رسامى القديسين لا يصنعون ما يجول بخــاطرهم لأول وهلة بل أن عليهم أن يلتزموا القواعد والمأثور ، والقواعد فى

حالة القديس جورج تختلف عنها فى حالة القديس مارتن ، ولما لم يكن هذا حين شق الرداء نصفين ، أسقفا بعد ، بل كان فارسا صغيرا ، وهو ليس فيما يفترض أقل فروسية من القديس جورج ، فقد أضفى عليه الناس مرة شيئا من الكهانة وشيئا من الصبغة المدنية بالتأكيد ، ومن ثم بات بغض النظر عن سائر صفاته الاخرى راعيا لخياطى الأردية وتجار الأقمشة ، وعلى خلاف فرس جورج المحارب يرسم حصان مارتن واقفا أو متحركا على كل حال فى خطوة محترزة • وهنا لم يكن بالشيء الهين أن تنقل الحيوان الشرس الى أودع المواقف جميعا فوق ما يتولى المرء من قلق على المستجدى الراكع الذى اتخذ مكان التنين أن يصيبه أذى •

أجل ، فقد جعل من التنين متسولا ومن رأس الوحش يدا ممدودة ، تتوسل ومن الحربة سيفا ومن الطعنة النافذة القطعة القاسمة بعناية • لكن أصعب ما هنالك قد كان تحويل جورجيو الى مارتينو وتحويل الراعى المرح للخيالة والفرسان والفرويين الذين يسوسون الخيل الى نادل من مندريويو يمكن على كل حال أن يحمل على امتطاء حصان خشبى فى دوارة الأراجيح • كلا ان هذا حقا لم يكن بشخص الخيال والفارس المشبه جورجيو بل كان رجلا ربعة أو يكاد ، بدينا بعض الشيء قصير الساقين بعض الشيء ، ضيق الصدر بعض الشيء كذلك ، لكن هذا مالا يراه المرء فى الصور ، وكان على بينسن أن يكور له بطنه ويقصر ساقيه بحيث تبدو منتفخة جميعا •

كان هذا كله جديرا بالاعجاب وخاصة بعد الذى ذاع من حديث عن حكاية نشأة الصورة ، لكن أبهج ما فاز بالاعجاب قد كان حقا ما خطر لبترسن من أن يرسم نفسه أيضا • فقد خلع آلاف ملامحه على المتسول الذى يمد يده الى الرداء كما خلع من قبل ملامح تيريسينا على التنين ، ضاحكا تارة من نفسه ومن حياته الفاشلة التى لا تستغنى كل الاستغناء عن الجزاء مفكرا تارة فى أنه الآن بعد

أن انقطع مرتبه الشهرى من جوتلنـــده يعتمد على رضى مارتينو • ولعل أحدا سوى تيريسينا لم يلحظ الزمة الصغيرة المتهكمة للشفتين وتقويسة زاوية الفـم ، وماذا بقى لمـــارتينو ؟ ولما صخبت الحفلة وتولاها مزيد من الابتهـــاج هز مارتينو يد بنسن للمرة السادسة وأسر اليه فى ابتسامة أليمة أنه لن يدع راعيه الذى يحمل اســمه يظنه صعلوكا فهنا شيء يستطيع جاكوبسن أن يشترى له منه رداء كاملا •

ودس له بهذه الكلمات حفنة من ورق النقد فى جيب الصدر •

وسكر بيترسن بعد ذلك فحـــكى لتيريسينا عن الملامح التى كان يراد أن يحملها وجــه التنين حسب مشـــيئة جورجيو فبكت تيريسينا •

« انظر أى خاطر أملتــه الدعابة عليه ؟ ألم يكن غـــير زوجى جورجيو من يخطر له هذا ؟ وما كان مارتينو قط ليجد لهـــذا داعيا قط • »

ربما كان هـــذا شـــعورها غير مرة • وحقا انه لم يكن لديها ما تشكو منه ، وحقا ان لمارتينو محاسنه وفيه كل ما افتقـدته فى جورجيو ، بيد أن شيئا واحد ينقصه ، ســحر من يمـــكن اغواؤه بسهولة انها لا تندم قط على أنها أوصت على رسم الصورة وان كان هذا الرسم فى مجموعه قد تكلف كثيرا •

وذهب مع الايام بعض الاصدقاء فعـــاد جاكوبسن مرة أخرى والى الأبد الى جوتلنده وسر مارتينو وتيريسينا أنهـــما استطاعا بيع الحانة بثمن طيب الى حد ما ، بعد أن ألم بها الكساد • وقد حل محلها الآن فندق كبير •

ما كانت هذه الحكاية لتستحق أن تحكى اذا لم يكن فيها شيء

يتناول الناس كافة · وهذا على الاطلاق ما تتميز به الحكاية الحقيقية، وليس يجب أن تكون الحكاية دائما جلية ، فحسب المرء أن يتأثرها، وأيضا فى هذه الحكاية قد تعقبت مضمونها بادىء ذى بدء ثم أدرت فى رأسى بعض الافكار وأعتقد الآن أنى تابعتها ·

أتعرف ما هذا ؟ تحويل جورج الى مارتن ·

ان ما يستأهل على التحقيق هو أن يقتل تنين ·

وهذا يفعله المرء وهو شاب ويوليه سرورا · ولا يهم المرء كثيرا جدا أن يكون التنين عندئذ شريرا حقا ، ممعنا فى الشر ، ومؤذيا حقا ممعنا فى الأذى · وصيد التنين كما تعلم رياضة نبيلة · ومتى كبر المرء يرى أنه أليق بالقديس الفارس فى النهاية أن يشق رداء بسيفه نصفين ليعين شحاذا يرتعد فى البرد على التماس الدفء ·

واعتقد أن السيف أيضا يكون له هنا أكبر الشرف ـ شرف أعظم مما للحربة التى يطعن بها بطن تنين تعس ·

فهـــرس

المطبعة الثقافية

رقم الايداع بدار الكتب ٣٨٦٨/١٩٧١

وزارة الثقافة

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

المركز الرئيسى ١١١٧ شارع كورنيش النيل — القاهرة — ج.ع.م.
تليفون : ٧١٠٥٥ /٧١٠٥٨ تلغرافياً : بانشرو

الادارة العامة للتوزيع : ١٧ شارع قصر النيل — القاهرة — ج.ع.م.
تليفون : ٤٥٥٨٩ /٤٧٤٣٦

مكتبات القومية للتوزيع فى ج . ع . م .

القــــاهرة

٣٦ شارع شريف ت : ٤٠٠١٢ — ١٩ شارع ٢٦ يوليو ت : ٥٥٠٣٢
٥ ميدان عرابى ت : ٤٦٣٨٣ — ٢٢ شارع الجمهورية ت : ٩١٤٢٢٣
١٣ شارع المبتديان ت : ٢١١٨٧ — الباب الأخضر بالحسين ت : ٩١٣٤٤٧

الاسكندرية : ٤٩ شارع سعد زغلول ٢٢٩٢٥ — الجيزة : ١ ميدان الجيزة ت: ٨٩٨٣١١
دمنهور : شارع عبد السلام الشاذلى ٢٦٠٥ — المنيا : شارع ابن خصيب ت: ٤٤٥٤
طنطا : ميدان الساعة ٢٥٩٤ — اسيوط : شارع الجمهورية ت: ٢٠٣٢
المحلة الكبرى : ميدان المحطة ٤٢٧٧ — اسوان : السوق السياحى ت: ٢٩٣٠
المنصورة : أول شارع الثورة ٣٨٦٤

مراكز التوزيع خارج ج . ع . م

لبنان . الشركة القومية للتوزيع — بيروت — شارع سوريا بناية أبناء صمدى وصالحة
العراق : الشركة القومية للتوزيع — بغداد — ميدان التحرير — عمارة فاطمة

توكيلات وعملاء دائمون خارج ج . ع . م

الكويت : وكالة المطبوعات ٢٧ شارع فهد السالم بالكويت
الاردن : مكتبة المحتسب — عمان
ليبيا : محمود عارف الشويهدى — طرابلس
اندونيسيا : عبد الله محمد العيدروس — جاكرتا
تونس : الشركة التونسية للتوزيع ٥ شارع قرطاج — تونس
الجزائر : ٩٢ شارع ديدوش مراد بالجزائر العاصمة
المغرب : المركز الثقافى العربى للنشر والتوزيع ٤٢ — ٤٤ الشارع الملكى — الاحباس — الدار البيضاء
هولندا : مكتبة بريل — ليدن

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر
فى خدمة القارئ العربى

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر